كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم
King Abdullah bin AbdulAziz Chair For The Holy Quran

موسوعة الهدايات القرآنية
كرسي الهدايات القرآنية

عمادة البحث العلمي
DSR.UQU
جامعة أم القرى

الهدايات القرآنية

دراسة تأصيلية

المجلد الأول

إعداد
الفريق البحثي

أ.د. طه عابدين طه حمد
د. ياسين بن حافظ قاري
د. فخر الدين الزبير علي

النبأ العظيم
نشر هدى القرآن

الهدايات القرآنية

دراسة تأصيلية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .. و بعد:

﴿هَٰذَا هُدًى﴾: القران المجيد، الكتاب الحكيم، النبأ العظيم، النور الحق المبين، تعددت أسماؤه وتنوعت صفاته، فتجاوزت المائه في عددها، لتدل على: صفات الجلال والكمال، اللائق بكلام الله الكبير المتعال .

- أنزل الله تعالى القرآن ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾، فالقرآن هدى: هدى في ذاته وآياته .. هدى في إرشاداته ودلالاته، هدى في آثاره وغاياته .. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٥٠] .

- واختار الله لنزوله الأول بلد الله المحرم، حيث البيت العتيق، وجعل الله كعبته المشرفة هدى للعالمين ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦] .

- واصطفى الله تعالى لتبليغ كتابه رسول الهدى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأخبرنا عنه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فاجتمعت في مكة المعظمة محاور الهداية الثلاثة: الكتاب والبيت والرسول .. .

- ومن وحي هذه المعاني اختار كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى أن يخدم الغاية العظمى التي من أجلها أُنزل القرآن ومن أجلها بُعث الرسول ومن أجلها عُظِّم المكان .

- وعلى هذا الأساس حدّد الكرسي توجهه ليتخصص في خدمة: (هدايات القرآن) فصاغ رؤيته ورسالته، ورسم أهدافه وخططه، وفق منهجية علمية اعتمدت التأصيل الشرعي مرتكزًا للبحث والدراسة، ومرجعًا لحوكمة المخرجات والمنتجات، لاسيما وأنه يؤسس لفنّ من فنون العلوم القرآنية التي تحتاجها الأمة لتعرف مراد الله منها ومقاصد وجودها، وسبل النهوض بأفرادها ومجتمعاتها، ووسائل النجاة والفوز والفلاح، حيث ارتبط ذلك كله بهدايات القرآن الكريم: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٥-١٦] .

- وتحقيقًا لهذا الهدف أعد الكرسي هذا الكتاب: (الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية) ليكون منهاجًا للأبحاث ومرجعًا معتمدًا للدراسات ودستورًا يوجِّه الباحثين وفق نور القرآن المبين .

واختار الكرسي لحمل هذه الرسالة وأداء هذه الأمانة كوكبة من علماء وأساتذة الجامعة المشهود لهم بالجد والصدق والحرص وعلو الهمة فيما نحسبهم، حيث تكون الفريق البحثي لهذه الدراسة من كل من:

١- أ.د/ طه عابدين طه حمد (رئيس الفريق) .

٢- د/ ياسين بن حافظ قاري (عضو الفريق) .

٣- د/ فخر الدين الزبير (عضو الفريق) .

وقد بذل الفريق جهدًا طيبًا مشكورًا، وقدموا عملًا مميزًا مشهودًا، أثنى عليه من أطلع وقرأ وحكَّم وقوَّم أبحاث الدراسة ولله الحمد والمنة .

وبعد: فعِلْم (هدايات القرآن) بابه واسع ومجال مفتوح للبحث والعطاء، والدراسة والنماء، ولعلّ مشروع الكرسي القادم - بإذن الله وتوفيقه -: (الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية) هو حلقة في سلسلة خدمة الهدايات القرآنية واستنباطها من القرآن وفق منهج القرآن .. والحمد لله أولًا وآخرًا ..

المشرف على كرسي الملك عبدالله

بن عبدالعزيز للقرآن الكريم

بجامعة أم القرى

أ.د/ يحيى بن محمد زمزمي

كلمة الفريق البحثي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل القرآن هدى ونورًا، والصلاة والسلام على الذي أنزل على قلبه الهدى فكان هاديًا به وسراجًا منيرًا، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الصادقين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فتحقيق الهداية بالقرآن الكريم هو المقصد الذي من أجله أنزل الله القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقد جاءت مؤلفات التفسير القديمة والحديثة، والمختصرة والمبسوطة للكشف والبيان لمعاني القرآن الكريم، ولم تكن الهدايات التي هي ثمرة ما يترتب على البيان من فوائد ودلالات وإرشادات مقصدا رئيسًا لكثير من المفسرين، ولعل الأمة، في فترات توافر العلم لم تكن في حاجة لذلك؛ لسهولة إدراكهم لها .

فلما رأينا في عصرنا الحاضر وجود الحاجة الماسة للناس في بيان ما يترتب على كشف وبيان معاني القرآن الكريم من هدايات، قمنا بهذه الدراسة التأصيليّة

للهدايات القرآنية لجمع شتات ما كتبه العلماء السابقين؛ لنستنير به في إبراز معالم هذا الموضوع، من حيث مفهومه، وأهميته، وخصائصه، وأنواعه، ومجالاته، ومنهج السلف في التعامل معه، وطرق العلماء في الوصول إليه، والأصول والقواعد والضوابط التي يقوم عليه، وغيرها .

وحتى يأخذ هذا المشروع قدره المأمول من الدقّة في التأصيل والتحقيق فقد مرّت هذه الدراسة بمراحل متعددة لتستوي على سوقها، ويمكن بيانها في الخطوات التالية:

* كتابة خطة للمشروع، ثم تحكيمها من قبل عدد من المختصين .

* ثم كتبت بعض المباحث التأصيلية، وحكمت من قبل الفريق الإداري بالكرسي الذي يضمّ نخبة من المختصين في الدراسات القرآنية .

* ثم عرضت أهم مباحث الدراسات على أساتذة كلية الدعوة وأصول الدّين عامة، وأساتذة قسم الكتاب والسنة خاصة، الذي يضمّ أكثر من عشرين أستاذًا مختصًا، ومثلهم مشاركًا، وضعفهما مساعدًا من مختلف دول العالم الإسلامي، وذلك في الملتقى القرآني الأوّل في ندوة خاصة .

* ثم عرضت بعض المباحث التأصيلية الرئيسة على مجموعة من المختصين في الدراسات القرآنيّة، وذلك في الملتقى القرآني الثاني .

* ثم أرسلت المباحث التأصيليّة إلى أكثر من عشرين مختصًّا في مختلف جامعات المملكة من أجل فحصها وكتابة التقارير حولها .

* ثم دُعوا جميعًا - بعد إرسالهم التقارير - إلى جلسة حواريّة مطوّلة مع الفريق البحثي؛ وذلك في الملتقى القرآني الثالث؛ لمناقشة كل الآراء والمقترحات والملحوظات، وكان فريق البحث في كل مرحلة يحاول الاستفادة من كل ملحوظة سجلت وذكرت .

* ثم بعد ذلك اختار الكرسي خمسة من كبار المختصين في الدراسات القرآنية من مختلف دول العالم ؛ لفحص كامل الدراسة في صورتها النهائيّة، وقد اطلعوا عليها، وسجّلوا ملحوظات هامة حولها ترفع من قيمتها، كانت محل اهتمام من الفريق البحثي والإداري .

هذا وقد عبر المحكّمون عن سرورهم بهذه الدراسة بعبارات متنوعة، ومما نصّوا عليه في تقاريرهم :

أنّه: « مشروع انتظره العلماء والباحثون والمتدبّرون والعاملون بكتاب الله، وحاجة العالم إليه ماسة، سواء المسلم وغير المسلم » .

أنّه: « يحقّق المقصد الأوّل من مقاصد القرآن الكريم، ويفتح مجالًا واسعًا للباحثين والمختصين في الدراسات القرآنية » .

أنّ: « هذه الدراسة تعتبر مرجعًا للعلماء في هذا الباب؛ لأنها جمعت ما يتعلق بالهدايات، وتناولته من مختلف جوانبه » .

أنّها: « دراسة جديدة وفريدة في بابها، وقد أضافت علمًا من علوم القرآن الكريم، ولا نعلم لها شبيهًا في المكتبة القرآنية » .

أنّ: « النتائج التي سجّلتها الدراسة رائعة وذات قيمة عالية في بابها، ونتجت عن بحوث رصينة وعميقة » .

وقد بذل الفريق البحثي جهده في جمع مادة هذا الموضوع من مختلف المصادر والمراجع القديمة والحديثة، وتحليلها واستثمارها في بناء الموضوع، كما بذل جهدًا كبيرًا للاستفادة من كل ملحوظة قدمت من قبل العلماء والمختصين في مختلف مراحل المراجعة والتحكيم، ومع كل ذلك لا ندعي كمالًا لمشروع يمثّل الأمة في جانب من أعظم جوانبها، ولكن حسبنا أنّنا وضعنا اللبنة الأولى في هذا الموضوع الكبير، والمشروع العظيم، وسعينا بكلِّ وسعنا لدراسته، وسلكنا السبل الممكنة لجودة تأصيله .

وقد كان لرعاية كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم وعلومه بجامعة أم القرى لهذا المشروع دوره الريادي في إنجاح هذه الدراسة، بخاصة وهي تتوافق تمامًا مع رسالة الكرسي التي هي بعنوان: « إسعاد الإنسان بهدي القرآن » .

وفي ختام هذا المشروع فإنّنا نحمد المولى سبحانه وتعالى ونشكره على ما هدانا إليه، ووفقنا لإتمامه .

ثم نشكر إدارة جامعة أم القرى الرّاعية والدّاعمة للكراسي البحثيّة عمومًا وكرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم وعلومه خصوصًا، ثمّ الشكر موصول لإدارة كلية الدعوة وأصول الدين، الحاضنة للكرسي، ثمّ نخصّ

بالشكر النخبة المتميزة في إدارة الكرسي، وعلى رأسها أستاذ الكرسي معالي الأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن بن عبدالعزيز السديس، والمشرف على الكرسي، فضيلة الأستاذ الدكتور/ يحيى بن محمد حسن زمزمي؛ لدورهم الفاعل في إكمال هذه الدراسة، وبناء مشروع الهدايات، حيث كانت لهم متابعات دقيقة، ومقترحات نيّرة، وبذل كل ممكن في سبيل تذليل الصعاب، والوصول لجودة المخرج العلمي، بخاصة أنّ هذه الدراسة جعلها الكرسي مقدمّة تأصيليّة لمشروعه الكبير: « الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية » الذي يسعى لتحقيقه في القريب العاجل بإذن الله .

سائلين الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبّله، وينفع به الجميع في الدنيا والآخرة، وما كان منه من حقّ وهدى فهو بفضل الله ورحمته، وما كان فيه من تقصير ونقص وخلل فهو من أنفسنا والشيطان، ونحن راجعون عنه، ومستغفرون منه، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات .

الفريق البحثي للدراسة

الـمقـــدمـة

وتشتمل على:

* أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه .
* أهداف الدراسة .
* منهج الدراسة .
* منهجيّة الفريق البحثي وضوابط الكتابة .
* الدراسات السابقة .
* خطة الدراسة .

المقـــدمة

الحمد لله الذي أنزل علينا كتابًا يهدي إلى الحق والرشد والصراط المستقيم، يهدي للتي هي أقوم، يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، والصلاةُ والسلام على المبلغ للهدى، والمبيّن له، الذي شرّفه بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، وعلى آلهِ الطاهرين، وصحبهِ الصادقين، ومن سارَ على نهجِهم واهتدى بهديِهم إلى يومِ الدين، وبعد:

فالقرآن الكريم هو النور المبدد لظلمات الحياة، والهدى العاصم من كل ضلال، والروح الذي تحيى به النفوس الحياة الطيبة، والشفاء الكامل لكل ما تعانيه الأمة من أمراض، ولما علم العلماء فضل هذا الكتاب المبين أوقفوا حياتهم في تعلمه، والبحث في معانيه وهديه، حتى كثرت المؤلفات، وتنوعت وتعددت بين من ألف في بيان مفرداته، ومن كتب في معاني جمله وآياته، ومن دون في تقرير أحكامه، ومن بحث في أوجه إعجازه .

ولّما كان المقصد الأول من نزول القرآن هداية العالمين لما يصلحهم في الدارين، وكانت الجهود السابقة خادمة للوصول لهديه: رأينا إنجاز موسوعة

عالميّة في الهدايات القرآنية، تجمع خلاصة ما كتبه العلماء في مختلف المدارس التفسيرية في الهدايات؛ مما هو في حاجة لجمع متفرقه، مع إضافة جوانب أخرى ما زالت الأمة في حاجة لأنوار الوحي فيها، وفق الأصول والضوابط التي استقرت عند العلماء، وبمنهجية علمية دقيقة ومحكمة وميسرة، مع السعي لربط الواقع بهدي القرآن الكريم بهدف تقويم هذا الواقع وإصلاحه، وقبل الشروع في ذلك المشروع العظيم رأى مجلس إدارة كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن وعلومه أن يُقدّم لذلك بدراسة تأصيلية، تحرّر من خلالها المصطلحات، وتبرز من خلالها أهمية الموضوع، وتوضع فيها الأصول والقواعد والضوابط، ويستقرأ فيها طرق العلماء في الوصول للهداية، وغير ذلك من نقاط مهمة، ومن هنا جاء عنوان هذه الدراسة تحت مسمى: « الهدايات القرآنية؛ دراسة تأصيلية ».

أولًا: أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه:

تظهر أهمية هذه الدراسة من عدة جوانب نلخصها في النقاط الآتية:

١/ أنّها تمثل مقدمة مهمة لفهم وتطبيق مشروع الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية، حيث تحرّر المفهوم، وتضع منهجية مثلى لتناول الهدايات، والخطوات التي يُلتزم بها من بداية المشروع إلى نهايته، وأهمّ الأصول والقواعد والضوابط التي يلتزم بها .

٢/ أنّها تفتح الطريق أمام الدارسين والباحثين من أبناء المسلمين في مجال الهدايات القرآنية؛ لتكوين جيل متخصص على نحو فعّال في هذا الميدان .

٣/ أنّها تخدم جانبًا مهمًّا من أهمّ موضوعات الدراسات القرآنية وأولاها بالدّراسة؛ لأنّ الهداية هي المقصد الأول من مقاصد القرآن الكريم وهو تحقيق الهداية للعالمين، ولم تسبق له خدمة علميّة وفق ما جاء في هذه الدراسة، فهي تعد أوّل وأوسع دراسة علميّة تؤصّل لموضوع الهدايات القرآنية .

٤/ أنّها تحقّق إضافة أبعاد وآفاق ومضامين جديدة في مكتبة التفسير والدراسات القرآنية تؤدي للتعمق في معاني القرآن الكريم .

٥/ أنّها تظهر ما في القرآن من شمول وإحكام فوق ما تتصوره العقول البشرية، ولا يمكن تحقق ذلك إلا من خلال تطبيق دراسة علمية مؤصلة .

٦/ أنّها تعتبر خطوة علميّة تأصيليّة للنظر في مشكلات الأمة وتلمس الحلول الناجعة في ضوء الهدايات القرآنية بما يتناسب مع عصرنا ومستجداته .

٧/ أنّها تعالج جوانب علمية مهمة في تناول موضوع الهدايات القرآنية كفيلة إذا طبقت من قبل الباحثين بإعادة الأمة إلى دينها الحق الذي يوحدها ويجمع شملها .

ثانيًا: أهداف الدراسة:

جاءت هذه الدراسة مقدمة لموسوعة عالمية في الهدايات القرآنية، قصدنا بها تحقيق أهداف مهمة من أبرزها:

١/ التأصيل لمفهوم الهدايات القرآنية، وبيان أهميتها، وخصائصها، وأنواعها ومجالاتها .

٢/ بيان أساليب القرآن الكريم في عرض الهدايات ووسائله ومميزاتها .

٣/ بيان هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية .

٤/ معرفة طرق العلماء في الوصول لهدايات القرآن .

٥/ الوقوف على المنهج الأمثل للتعامل مع الهدايات القرآنية .

٦/ معرفة سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة .

٧/ الوقوف على الموانع والعقبات الصادة عن الانتفاع بالهدايات القرآنية .

ثالثًا: منهج الدراسة:

اعتمد في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وهو المنهج المناسب لمثل هذا النوع من الدراسة .

رابعًا: منهجيّة الفريق البحثي وضوابط الكتابة:

لّما كانت مناهج الباحثين مختلفة، وطرقهم في الكتابة متنوعة، رأينا توحيد المنهجيّة العلميّة للدراسة، وطريقة الكتابة فيه على النحو الآتي:

أ- منهجية الدراسة:

١/ أن تستوفي كل نقطة بصورة شاملة شافية، ويستوعب فيها جميع الدراسات السابقة .

٢/ أن تتم الدراسة في ضوء القرآن الكريم، وتدعم كل نقطة بأدلّة من السنة النبويّة، وكذلك من أقوال العلماء الموثوقين من أهل الاختصاص .

٣/ أن يلتزم بالخطّة الموضوعة للمشروع، والمحاور والنقاط المحددة، وفي حالة التعديل في بعض النقاط لابد من عرضها على الفريق الباحث، وأخذ موافقته .

٤/ أن يلتزم في المسائل العقدية بمنهج السلف الصالح .

٥/ أن تعالج كل نقطة في ضوء محورها مع استصحاب المحاور الأخرى، وعنوان المشروع وأهدافه، مع تجنب التداخل والتكرار بين الباحثين والنقاط .

ب – ضوابط الكتابة:

١/ وضع الآيات بين قوسين، ثم ذكر اسم السورة ورقم الآية بعدها.

٢/ تخريج جميع الأحاديث بذكر الكتاب والباب ورقم الحديث، وإذا كان في الصحيحين يكتفى بهما، وإذا كان في غيرهما يخرج ويوضح حكمه، ويلتزم بالأحاديث الصحيحة والحسنة، ويكتفى بحكم علماء الحديث دون التوسع في دراسة الأسانيد .

٣/ توثيق الأقوال في أسفل الصفحة بذكر الكتاب ثم المؤلف ثم الجزء والصفحة، وتترك بقية معلومات التوثيق إلى فهرس المراجع، حتى اسم الكتاب لا يكتب كاملًا بل يذكر منه ما اشتهر به مثل: أضواء البيان، تاج العروس، التحرير والتنوير .

٤/ إذا كان اسم الكتاب معروفًا، ولم يشترك كتاب آخر معه في الاسم يكتفى بذكر اسم الكتاب دون مصنفه مثل: لسان العرب، معجم مقاييس اللغة.

٥/ لا يذكر في الحاشية محقق الكتاب ولا الطبعة ويكتفى بذكر ذلك في الفهرس .

٦/ الاكتفاء في ترجمة العلم بذكر اسمه .

٧/ الالتزام الكامل بالفواصل، وسائر علامات الترقيم .

٨/ اتسام أسلوب الكتابة والتعبير عن القضايا العلمية بالوضوح والموضوعيّة .

خامسًا: الدراسات السابقة:

لا نعلم أنّ أحدًا من العلماء أصّل للهدايات القرآنية، فهذه الدراسة تسدّ نقصًا في المكتبة القرآنيّة بصورة خاصة والإسلامية بصورة عامة .

سادسًا: خطّة الدراسة:

جاءت هذه الدراسة في مقدّمة، وخمسة فصول، وخاتمة على النحو الآتي:

الفصل الأول: مفهوم الهدايات القرآنية ومنزلتها وخصائصها .

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الهدايات القرآنيّة .

المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنيّة .

المبحث الثالث: خصائص الهدايات القرآنيّة .

الفصل الثاني: الهدايات القرآنية أنواعها، ومجالاتها، وحال الناس معها .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: أنواع الهدايات القرآنيّة .

المبحث الثاني: مجالات الهدايات القرآنيّة .

المبحث الثالث: حال الناس مع الهدايات القرآنيّة .

الفصل الثالث: أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات، ووسائله في تحقيقها، ومميزاتهما .

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات .

المبحث الثاني: وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات .

المبحث الثالث: مميّزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات .

الفصل الرابع: المنهج الأمثل في التعامل مع الهدايات القرآنية .

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنيّة .

المبحث الثاني: طرق العلماء في الوصول إلى لهدايات القرآنيّة .

المبحث الثالث: أصول وقواعد وضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنيّة .

الفصل الخامس: تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة سبله، وموانعه، وأثره .

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة .

المبحث الثاني: موانع تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة .

المبحث الثالث: أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة .

الخاتمة:

وشملت أهم النتائج والتوصيات .

الفصل الأول

الهدايات القرآنيّة

مفهومها، وأهميّتها، وخصائصها

ويشتمل على المباحث التالية:

* مفهوم الهدايات القرآنيّة
* خصائص الهدايات القرآنيّة
* أهميّة الهدايات القرآنية

المبحث الأول

مفهوم الهدايات القرآنية

إعداد

أ. د . طه عابدين طه حمد

مفهوم الهدايات القرآنية

مدخل:

إنّ تحديد مفهوم بعض الألفاظ القرآنية يحتاج إلى جهد علمي كبير؛ خاصة في دراسة علميّة تتطلب الدقّة والاستيعاب والشمول، لكلمة لها معان متنوعة في معاجم اللغة، ومعان أخرى إضافية في ورودها القرآني، مع رصد أوجه العلاقة والاختلاف بين ما يتوصل له من مفهوم، وبين المصطلحات المقاربة؛ وذلك لدقة الدلالة القرآنيّة، وشمولها، وتنوع معانيها من موضع لآخر، تنوعًا فريدًا بليغًا، تحار فيه عقول أساطين البلغاء؛ لما تضمنّه كتاب الله تعالى من ألفاظ ومعان حوت كلّ دلائل الإعجاز؛ خاصة إذا كانت اللفظة لها حضورها، واشتقاقاتها الواسعة في القرآن الكريم، مثل: لفظ (الهدى) و(الاهتداء)، الذي ورد بصورة واسعة؛ ولذا تناولته بالدراسة كل كتب الغريب، وكتب الوجوه والنظائر، وكتب التفسير، وعلوم القرآن وغيرها .

ومما يصعب الوصول إلى مفهوم محدّد كذلك، أنّ ذلك التناول جاء متباينًا من جهة، وغير محرّر لحدّه ومفهومه من جهة أخرى؛ مما يتطلّب مراجعات جديدة لأصل الكلمة في اللغة ومعانيها، ويستوعب كذلك معانيها التي وردت

بها في القرآن؛ لأنّ القرآن يعطي الكلمات معاني أوسع وأعمق مما في معاجم اللغة بكثير، مع مقارنة ذلك بما كتبه العلماء في مواضع الاتفاق والاختلاف .

ومما يزيد من صعوبة الموضوع إذا كان المقصد من الدراسة التوجه بها نحو مفهوم محدد في علوم القرآن الكريم، ووجود تعبيرات مختلفة ومتنوعة ومتعددة في كلام العلماء .

ولما كان المقصد من تحرير هذا المفهوم، التأسيس لدراسة تأصيليّة متكاملة في موضوع الهدايات، تستجمع من خلالها معانيها ودلالتها في الكتاب والسنة في مفهوم علمي واحد، فمن هنا وجدت معاناة شديدة بين موضوع تشعبت مباحثه من جهة، ودراسة لا تتحمل في طبيعتها البسط والإطالة من جهة أخرى، حتى خشيت أن لا أقدّم في هذه الدراسة ما يفيد في تحرير الموضوع، فجعلني ذلك بين إقبال وإدبار؛ ولكنّي لما اعتصمت بحبل الله وقوّته، ثم استشرت عددًا من المتميّزين من أهل الاختصاص، لاحت أمامي قوارب النجاة، وقربت إليّ بُعد المنزلة، فقوي عزمي، وتماسك بناني مع قلمي، وقوي الرجاء في تقديم ما ينفع، فقسّمت هذا المبحث إلى ستة مطالب، جاءت على النحو الآتي:

المطلب الأول: تعريف الهدايات في اللغة .

المطلب الثاني: معاني الهدى في القرآن الكريم .

المطلب الثالث: الفرق بين الهدى والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن .

المطلب الرابع: تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح .

المطلب الخامس: الفرق بين مفهوم الهدايات والمصطلحات المقاربة .

المطلب السادس: تعبيرات علماء التفسير لمفهوم الهدايات .

فباسم الله أبتدئ، وعليه أتوكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

المطلب الأول: تعريف الهدايات في اللغة:

الهدايات جمع هداية، وهي من الهُدَى، بضم الهاء وفتح الدال، وهي من هَدَى، يهْدي، هَدْيًا، وهُدَى وهِدَايَةً وهِدْيَةً[١].

قال ابن فارس رحمه الله: " الهاء والدال والحرف المعتلّ: أصلانِ، أحدهما: التقدُّمُ للإرشاد، والآخر: بَعثة لَطَفٍ[٢]، فالأوَّل قولهُم: هدَيتُه الطَّريق هِدايةً، أي: تقدّمتُه لأرشدَه، وكلُّ متقدِّمٍ لذلك هادٍ، والأصل الآخر الهَدِيّة: ما أهدَيْتَ من لَطَف إلى ذي مَودَّة، يقال: أهدَيْتُ أُهدِي إهداءً، والمِهْدَى: الطَّبقُ تُهدَى عليه "[٣].

وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: " الهِدَايَةُ: دلالةٌ بِلُطف، ومنه الهَدِيَّة، وخُصَّ ما كان دلالةً بَهَدَيْتُ، وما كان إعطاءً بأَهْدَيْتُ، نحو أَهْدَيْتُ الهديَّةَ، وهَدَيْتُ إلى البَيْت، فإن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ

---

(١) ينظر: تاج العروس، الزَّبيدي ، مادة هدى (ص: ٨٦٦١) .

(٢) اللطف بالتحريك: التحفة والهدية . وكلمة "بعثة" مهملة النقط في الأصل وهي المرة من البعث، ينظر: مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس القزويني (٦/ ٣١)، وهذا الشرح ذكره محقق الكتاب الدكتور عبد السلام هارون . قال صاحب الصحاح: " وألطفه بكذا أي بره به " . الصحاح تاج اللغة، الجوهري، مادة هدى (٤/ ١٤٢٧) .

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة هدى (٦/ ٤٢ ، ٤٣) .

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] "[١].

والهُدَى: بضَمّ الهاءِ وفَتْحِ الدّال بمعنى: الرَّشَاد، والدّلالة[٢] بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، ويُذَكَّرُ ويؤنث، يقال: هَدَاهُ الله للدين يهدِيهِ هُدًى، وهديته الطريق هداية، وهَداهُ هُدى وهَدْيًا وهِدَايَةً وهِدْيَةً بكسرهما: أرْشَدَهُ ودَلّه إلى طريق خير، أو سبيل سعادة في الدنيا والآخرة، فَهَدَى واهْتَدَى وتَهَدَّى، وهَداهُ اللهُ الطَّريقَ وله وإليه، أي: للطَّرِيقِ، وإلى الطَّرِيقِ[٣].

والهُدَى ضِدُّ الضَّلالِ، وَالضَّلالَةُ ضِدُّ الهداية، قال ابن سيده: " الهُدى ضدّ الضلال، وهو الرَّشادُ، والدلالة أُنثى، وقد حكي فيها التذكير "[٤].

" وَالعرب تُطْلِقُ الْهُدَى حَقِيقَةً فِي الظَّاهر الْمَحسُوس، فتقول: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ، وَهَدَيْتُهُ الطريق والبيت هِدايَةً، أي عرَّفته، ويقال هديته إلى الطريق وللطريق على معنى أَرشَدْته إليها، ويقال هَدَيْتُ له الطريقَ على معنى بَيَّنْتُ له الطريق، فهو حقيقة فِي الطَّريق المحسوس، ومجاز في الطَّريق المعنويِّ، وضدُّهُ الضَّلال، وهو

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥١٦).

(٢) قال ابن عاشور: " والهداية الدلالة بتلطّف؛ ولذلك خصّت بالدلالة لما فيه خير المدلول؛ لأنّ التلطّف يناسب من أريد به الخير ". التحرير والتنوير (١/ ١٨٧).

(٣) تاج العروس، مادة هدى (ص: ٨٦٦٢).

(٤) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٢/ ٢١٧)، ولسان العرب، ابن منظور، مادة هدى (١٥/ ٣٥٣).

الخروج عن الطَّريق، ومنه البعير الضَّالُّ، وَالشَّاة الضَّالَّة، ورجل ضلَّ عن الطَّريق إِذا خرج عنه؛ لأَنَّه التبس عَلَيْه الْأَمر، ولم يكن له هاد يهديه، وهو الدَّليل "[1].

وقد جاء الهُدَى بمعنى: " البَيان، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ [السجدة:٢٦].

قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله: أو لم يُبَيِّنْ لهم "[2]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل: ١٢] أي: إنّ علينا أن نبيّن طريق الهُدَى من طريق الضَّلال، والهدى: النهار، ومنه قول ابن مقبل:

حتى استَبَنْتُ الهُدَى والبِيدُ هاجِمَةٌ يَخْشَعْنَ في الآلِ غُلْفًا أو يُصَلِّينَا[3]

والهُدَى أيضًا: الهادي في قوله عزّ وجلّ: ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]، أي: هادِيًا، والطريقُ يسمَّى هُدًى، وذهب على هِدْيَتِه، أَي: على قَصْده في الكلام وغيره، وخذ في هِدْيَتِك، أَي: فيما كنت فيه من الحديث والعَمَل، ولا تَعْدِل عنه،

---

(١) الاعتصام للشاطبي (١/ ٢٣٤)، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة هدى (٢/ ٢١٧)، والصحاح تاج اللغة، للجوهري (٨/ ٤٧٣)، وتفسير المنار (٧/ ٤٩٦)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٢٤٧)، والمحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٢١٧).

(٣) تاج العروس (ص: ٨٦٦٢).

نظَرَ فلان هِدْيةَ أَمرِه، أَي: جِهةَ أَمرِه، وضلَّ هِدْيَتَه، وهُدْيَتَه، أَي: لوَجْهِه الذي كان يُرِيدُه[١].

والهَدْيُ والهَدْيَةُ ويُكْسَرُ: الطَّرِيقةُ والسِيرةُ، يقال: فلان يهدي هدي فلان، أي: يفعل مثل فعله، ويسير سيرته، وفي الحديث: " واهْدُوا بِهَدْي عَمَّارٍ "[٢] أَي: سِيرُوا بسِيرَتِه وتَهَيَّأُوا بهَيْئَتِه، وما أَحْسَنَ هِدْيَتَهُ، وهَدْيَه أَي: سِيرَته وسَمْتَه وسكونه، وفلان حسَنُ الهَدْي والهِدْيةِ أَي: الطريقة والسِّيرة، والجمع هَدْيٌ مثل: تَمْرة وتَمْرٍ، وفلان حَسَنُ الهَدْي، وهو حُسْنُ المذهب في أُموره كلها، وفي حديث ابن مسعود ﷺ: " وأَحسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمدٍ ﷺ "[٣]، أَي: أَحسَنَ الطريقِ والهِداية، وقد جاء في الحديث كذلك: " الهَدْيُ الصالح، والسَّمْتُ الصالِحُ، جزء من خمسة وعشرين جُزءًا من النبوَّة "[٤].

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة، الهروي (٢/ ٣٥٧)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٢١٧)، وتاج العروس (ص: ٨٦٦٥)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (٤٧٨)، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر وكنيته أبو اليقظان، برقم: (٣٧٩٩) والحاكم في المستدرك، برقم: (٤٤٥٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححّه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (١٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: الهدي الصالح، برقم: (٦٠٩٨)، ومسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم: (٢٠٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم: (٧٩١)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الوقار، برقم: (٤٧٧٦)، وأحمد في المسند، برقم: (٢٦٩٨)، قال الألباني في الأدب المفرد: حسن.

قال ابن الأَثير رحمه الله: " الهَدْيُ السِّيرةُ والهَيْئة والطريقة "[(١)].

والهادِي: المُتَقدِّمُ من كل شيء، وبه سُمِي (العُنُق) هاديًا؛ لتقدّمه على سائر البدن، والهادِيةُ من كل شيء أَوَّلُه، وما تَقَدَّمَ منه، والهوادِي: الجمعُ، والهادي الدليل؛ لأنّه يتقدم القوم ويتبعونه، أو لكونه يهديهم الطريق، وكل متقدّم فهو هادٍ، ولذلك سمّيت العصا الهادي والهادية؛ لأنّ الرجل يُمْسِكها فهي تَهْديه أي: تتقدَّمه، وقد يكون من الهداية؛ لأَنّها تَدُلُّه على الطريق، والمَهْدِيُّ الذي قد هَداه الله إِلى الحق، وقد اسْتُعْمِل في الأَسماء حتى صار كالأَسماء الغالبة، وبه سُمّي المَهْدِيُّ الذي بَشَّر به النبيُّ ﷺ أنّه يجيء في آخر الزمان[(٢)].

والهَدِيَّةُ ما أَتْحَفْتَ به، يقال: أَهْدَيْتُ له وإِليه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾[النمل:٣٥]، والتَّهادِي أَن يُهْدي بعضُهم إِلى بعض[(٣)].

فمن خلال ما تقدم يتبيّن أنّ الهداية في اللغة تأتي بمعنى: الإرشاد، أو الدلالة بلطف، أو التقدم، أو البيان، أو التعريف بالشيء، أو القصدِ والوجه، وجميع هذه المعاني ترجع إلى ما ذكره ابن فارس بمعنى الإرشاد، حيث اعتبر معنى التقدّم للإرشاد أصلًا أولًا، تتفرّع منه بقيّة المعاني.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥٣)، وينظر: فقه الأسماء الحسني، لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (ص: ١١٥).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة (٢/ ٢٤٧)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣)، القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ص: ١٧٣٣)، وتاج العروس (ص: ٨٦٦٢).

(٣) ينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

وقال ابن عَطِيَّة رحمه الله: " الهِدايةُ في اللُّغة: الإِرشاد؛ لكنَّها تتصرّف على وُجوه يُعبّر عنها المفسّرون بغير لَفْظ الإِرشاد، وكلُّها إِذا تُؤُمِّلت رجعت إلى الإرشاد "(١).

وقال الفيروزي آبادي رحمه الله: " وهو صحيح، ولم يذكر أَهل اللغة فيها إِلاَّ أَنَّها بمعنى الإِرشاد "(٢).

وقد جاءت بعض مشتقّات الهدى في معان مختلفة عن الإرشاد، وهي: (هَدْي، هَدِية)، وهو المعنى الثاني الذي أشار إليه ابن فارس .

قال الجرجاني رحمه الله: " الهداية الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب "(٣).

وقال المناوي رحمه الله: " الهداية دلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وقيل: سلوك طريق يوصل إلى المطلوب "(٤).

والهدى: " يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، ويتعدى إلى المفعول الثاني وهو المهدى إليه بـ إلى وباللام والاستعمالان واردانِ، تقول هديته إلَى كذا على معنى أوصلته إلى معرفته، وهديته لكذا على معنى أرشدته لأجل كذا، قال تعالى: ﴿ قُلْ

---

(١) المحرّر الوجيز (١/ ٦٥) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٥/ ٣١٢) .

(٣) التعريفات للجرجاني (ص: ٣١٩)، وينظر: التحرير والتنوير (١/ ١٨٨) .

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٧٣٩) .

﴿ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام:١٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقد يتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]"[(١)] .

قال ابن الهمام رحمه الله: " (هدَاه إلى الطريق): إذا أعلمه أنّ الطريق في ناحية كذا ، و(هداه للطريق): إذا ذهب به إلى رأس الطريق ، و(هداه الطريق): إذا أدخله فيه، وسار معه، حتى بلغا المقصد، ثم إن فعل الهداية متى عدّي بإلي، تضمّن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، فأتي بحرف الغاية، ومتى عُدِّي باللام، تضمّن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتي باللام الداخلة على الاختصاص والتعيين، وإذا تعدى بنفسه تضمّن المعنى الجامع لذلك كله "[(٢)] .

وقيل: تعديه بنفسه هي: " لغة أهل الحجاز، وأما غيرهم فلا يعديه بنفسه، وقد جعلوا تعديته بنفسه من التوسع المعبر عنه بالحذف والإيصال "[(٣)] .

---

(١) ينظر: بصائر ذوى التمييز (ص:١٦٣٠) الكليات للكفوي (٢/ ٥٩)، والتحرير والتنوير (١/ ١٨٧) .

(٢) الكليات للكفوي (٢/ ٥٩) .

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٨٧)، وينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٣) .

المطلب الثاني : معاني الهدى في القرآن الكريم :

جاءت كلمة " الهدى" في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، تزيد عن ثلاثمائة موضعًا[١]، بعدة معانٍ، مما جعل علماء الوجوه والنظائر يخصونها بالدراسة، كما فعل مقاتل بن سليمان، وابن الجوزي، والفيروز آبادي في « بصائر ذوي التمييز »، والدامغاني – رحمهم الله –، وغيرهم، وافتتح بها الزركشي في « البرهان » في النوع الرابع، والسيوطي في الإتقان في النوع التاسع والثلاثين عند حديثهما عن الوجوه والنظائر .

وهذه الوجوه التي ذكرها العلماء تحتاج إلى دراسة خاصة فيما يقبل منها ويرد؛ لأنّ منهم من ذكر معاني محتملة لكنها بعيدة[٢]، وبعضها غير راجح[٣]،

---

(١) ورد مادة (هـ د ي) في القرآن من خلال أحد عشر مشتقًا تتوزع في اثنين وعشرين وثلاثمائة (٣٢٢) موضعٍ، موزّع على ستين سورة، جمعها بالحصر والدراسة الدكتور حبيب مغراوي في كتابه « مفهوم الهدى في القرآن الكريم دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي » (ص: ٧٨) وما بعدها .

(٢) مثال ذلك تفسير الهدى بمعنى الموت على الإسلام، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] وهو بعيد، قال البيضاوي: " ثم استقام على الهدى المذكور " . أنوار التنزيل (٤/ ٦٤)، ولا يكون الهدى بمعنى الموت إلا إذا قصد لازم المعنى وهو: " ثم دام على الهداية حتى الموت " .

(٣) مثال ذلك تفسير الهدى بمعنى التقديم ، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[الصافات:٢٣]؛ لأنّ قول الجمهور أنّ المراد به التهكم، ومن فسره، فسّره بالإرشاد والدلالة .

وبعضها فيه نظر[١]، وبعض المعاني لم ترد عندهم[٢]، وبعضها الحاكم فيه هو السياق فلا يحتاج إلى ذكر هنا[٣] .

وقال الزركشي رحمه الله بعد أن عدد سبعة عشر نوعًا: " وهذا كثير الأنواع "[٤].

وقد قصرت هذا البحث على أهمّ المعاني التي تخدم مفهوم الدراسة، وهي:

١/ الإلهام: يأتي الهدى بمعنى الإلهام الفطري، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٣]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠] .

---

(١) مثال ذلك تفسير الهدى بمعنى التوبة ، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وهي من مادة (هَوَد) التي بمعنى الرجوع، وهي تختلف عن مادة هدى، ينظر كتاب « الهداية في القرآن الكريم »، للدكتور العباس بن حسين الحازمي (ص: ٤٥) .

(٢) مثال ذلك: تفسير الهدى بمعنى الوصول إلى الجنة في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف:٤٣] كما فسّره بذلك عدد من المفسرين منهم ابن جرير الطبري (١٢/ ٤٣٩)، والقرطبي (٧/ ٢٠٨)، والبيضاوي (٢/ ٢٢٣)، وابن كثير (٥/ ١٦٩) وغيرهم .

(٣) مثال ذلك: تفسير الهدى بمعنى القرآن، والإسلام، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلّم، والدّين كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣]، والتوحيد، والإيمان . قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فالمراد الإيمان والتوحيد دون الشرائع فإنّها مختلفة، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] .

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ١٣٤) .

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: " قال المفسرون: معناه ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها "[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله: " أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره ، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال "[(٢)] .

وقال السعدي رحمه الله: " ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ كلّ مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن به على ذلك "[(٣)] .

ويأتي فيه الفعل مسندًا لاسم الجلالة، مقرونًا إمّا بفعل الخلق، وإمّا بفعل التقدير ، كما في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى: ١-٣]، والفعل لا يأتي إلا ماضيًا، دلالة على سبق وقوعه[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (١/ ١١) . وينظر: جامع البيان للطبري (١٨/ ٣١٧)، معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٢٧٧)، والمحرر الوجيز (١/ ٦٥)، بحر العلوم (٢/ ٤٠١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/ ٢٠٤)، واللباب في علوم الكتاب (١/ ٢٠٤) .

(٢) ينظر: التفسير القيم لابن القيم (١/ ١٣١)، والوجوه والنظائر للدامغاني (١/ ٣٠٨)، والتحرير والتنوير (١/ ١٨٩) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٥٠٦) .

(٤) ينظر: مفهوم الهدى في القرآن الكريم دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي (ص: ١٠١) .

٢/ الإرشاد والدلالة: يأتي الهدى بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه، قال تعالى لرسوله الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[الشورى:٥٢]، بمعنى تدل وترشد، وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩] بمعنى يدل ويرشد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد: ٧] أي: مرشد، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[القصص: ٢٢] يعني: أن يدلني، وكقوله تعالى: ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾[طه:١٠]، يعني: من يرشدني إلى الطريق[١]، وكقوله تعالى:﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨] ترشدون، وقرينة هذا المعنى أنّه يمكن أن يسند فعل الهداية لغير الله تعالى .

٣/ البيان: يأتي الهدى بمعنى البيان، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمْۖ ﴾[البقرة:٥] أي: على بيان من ربهم . وقال تعالى:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾[الليل: ١٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " يعني البيان . قال الزجاج: علينا أَنْ نُبَيِّنَ طريقَ الهُدَى من طَرِيق الضَّلالة . وهو قول قتادة، قال: على الله بيان حلاله وحرامه "[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت: ١٧] .

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر (١/ ٣٠٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١١) . وينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٨٦)، والوجيز للواحدي (١١/ ٨٦)، وزاد المسير، لابن الجوزي (٩/ ١٥١)، فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٤٥٣).

قال ابن جرير رحمه الله: " يقول تعالى ذكره: فبينا لهم سبيل الحق وطريق الرشد . كما حدثني عليّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾: أي بيَّنا لهم "[١].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾[الأعراف:١٠٠]، قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله: " أَوَلم يُبيِّنْ لهم "[٢].

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان: ٣]، قال الشنقيطي رحمه الله: " الهداية هنا بمعنى البيان "[٣] .

وقوله تعالى :﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠]، يعني: بيّنا له الطريقين[٤] .

٤/ **الدليل والبيّنة:** يأتي الهدى بمعنى الدليل والبيّنة، قال تعالى: ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه:١٠]، " أي: من يهديني إلى الطريق ويدلّني عليها وكان قد ضلّ عن الطريق "[٥].

---

(١) جامع البيان (٢١ / ٤٤٨) .

(٢) الصحاح في اللغة (٢/ ٢٤٧) .

(٣) أضواء البيان (٨/ ٣٨٩) .

(٤) ينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٣)، والأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان (ص: ٨٩)، والوجوه والنظائر للدامغاني (١/ ٣٠٣)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٤) .

(٥) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي (٥/ ٢١٦)، وينظر: أضواء البيان (٣/ ٤٩١) .

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾[الحج: ٨][١].

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله في المراد بالهدى: " الاستدلال والنظر لأنّه يهدي إلى المعرفة "[٢].

وقال ابن كثير رحمه الله: " أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى "[٣].

٥/ **المعرفة**: يأتي الهدى بمعنى المعرفة، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴾[النساء: ٩٨]، أي: لا يعرفون سبيلا، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾[النحل: ١٦]، يعني: يعرفون السبيل، وكقوله تعالى: ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾[النمل:٤١] أي: من الذين يعرفون أو لا يعرفون، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[الزخرف:١٠] يعني: تعرفون الطرق[٤].

---

(١) ينظر: مفردات القرآن للفراهي (ص: ٣٢٨).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٥٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٩).

(٤) ينظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني (١/ ٣٠٥)، وينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢٠)، وبحر العلوم (٢/ ٤٥٩).

٦/ **الاستبصار**: يأتي الهدى بمعنى الاستبصار، قال تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦][1] .

وقد يكون بمعنى المعرفة، كما قال ابن عاشور رحمه الله: " أن الاهتداء المنفي هو الاهتداء بالمعنى الأصلي في اللغة، وهو معرفة الطريق الموصل للمقصود "[2].

٧/ **التعليم**: يأتي الهدى بمعنى التعليم، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[النساء:٢٦][3]، وقد يراد بالآية البيان والإرشاد.

٨/ **الصواب**: يأتي الهدى بمعنى الصواب، والاستقامة، والسداد، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [العلق: ١١][4] .

٩/ **التوفيق**: يأتي الهدى بمعنى التوفيق، وانشراح الصّدر للخير، وما يقرّ في القلب من الإيمان، والعمل بالعلم، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عزّ وجل، ولهذا نفاه عن غيره، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ

---

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢١) .

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٠١) .

(٣) ينظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢٢) .

(٤) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٥٢٤)، ونزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢٥)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٩).

عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[الأنعام:١٢٥] .

١٠/ السُّنَّة: يأتي الهدى بمعنى السُّنَّة، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٢]، يقول: مقتدون مستنون بسنتهم . وكقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] يقول: بسنتهم في التوحيد اقتده[(١)] .

١١/ الطريق الواضح: يأتي الهدى بمعنى الطريق الواضح الموصل، قال تعالى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج: ٦٧][(٢)] .

قال ابن كثير رحمه الله: " أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود "[(٣)] .

١٢/ الثبات والزيادة: يأتي الهدى بمعنى الثبات على الشيء، والزيادة فيه[(٤)]، ومنه طلب الهداية للمهتدي في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] فالمقصود الثبات والزيادة منها، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر، للدمغاني (١/ ٣٠٨) .

(٢) ينظر: مفردات القرآن للفراهي (ص: ٣٢٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٥١) . ينظر: جامع البيان (١٨/ ٦٨٠)، وأنوار التنزيل (٦/ ١٠٧)، وإرشاد العقل السليم (٦/ ١١٩)، أضواء البيان (٥/ ٣٠٢) .

(٤) ينظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢٦)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨) .

هُدًى ﴾[مريم:٧٦]، " قيل: بالناسخ والمنسوخ، وقيل: بأَن يَجْعَلَ جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم هُدًى كما أَضَلَّ الفاسِق بفسقه ووضع الهُدَى مَوْضِعَ الاهْتداء، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، قال الزجاج رحمه الله: " تابَ مِنْ ذنبه، وآمن برَبِّهِ، وعمل بطاعته، ﴿ ثم اهْتدى ﴾ أَي: ثم أَقامَ على إِيمانه"[(١)]، " (وهَدَى واهْتَدَى بمعنى)، وقد يدلّ سؤال الهداية على سؤال لزومها، فيكون التقدير اهدنا لزوم الصراط، قاله ابن الأنباري "[(٢)] .

١٣/ الدعوة: يأتي الهدى بمعنى الدعوة، قال تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، والمعنى في الآيات الدعاء[(٣)].

قال ابن عطية رحمه الله: " قد جاء الهدى بمعنى الدعاء من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد :٧] أي داع "[(٤)] .

وقال السمعاني رحمه الله: " الهداية في القرآن على معان فتكون الهداية بمعنى الإلهام، وتكون بمعنى الإرشاد، وتكون بمعنى البيان، وتكون بمعنى الدعاء، وأمّا الدعاء مثل قوله تعالى :﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي: داع "[(٥)] .

---

(١) معاني القرآن (٣/ ٣٠٢) .

(٢) زاد المسير (١/ ١٥) .

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر (١/ ٣٠٨)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٥)، والدرّ المصون في علم الكتاب المكنون (ص: ٤٠) .

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٦٥). وينظر: البحر المحيط (١/ ١١)، وتأويل مشكل القرآن (ص: ٢٤٨) .

(٥) تفسير السمعاني (٧/ ٨) .

١٤/ الإصلاح: يأتي الهدى بمعنى الإصلاح، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[يوسف : ٥٢][(١)] .

ومن خلال الاستقراء والتتبع نجد أن كلمة (الهدى) جاءت في القرآن الكريم بمعانٍ تتوافق مع اللغة وتزيد عليها، تتوافق معها في الدلالة والإرشاد إلى المطلوب والتي منها: البيان، والمعرفة، والتعليم، والاستبصار، والدعوة، والسنة، وهذه كلها من العبد، وهي وسائل للإرشاد العام، وأضاف القرآن الكريم على معنى الهداية في اللغة: الإلهام، والتوفيق، والثبات والزيادة، وهذه كلها من الله تعالى، وهي الدلالة الموصلة للمطلوب .

وقد بيّن القرآن الكريم أنّ مصدر الهدى من الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٣] .

وبيّن أنّه هو الذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم علمًا وعملًا، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج:٥٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس : ٣٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف:١٨٦] .

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٦)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨) .

وبيّن القرآن الكريم أنّ الهداية التي بمعنى الدلالة والإرشاد للهدى مع أنّها من الله تعالى قد تكون بغيره، بكتابه، أو بواسطة رسله، أو غيرهما، قال تعالى عن هداية كتابه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، وقال تعالى عن هداية رسله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى : ٥٢].

وقد جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ: " أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ»[1]، وهي متعلقة ببيان الهدى وتفاصيله، والإرشاد إليه .

وبيّن في كتابه أنّ الدالّ على الهدى والمرشد إليه يسمى هاديًا، قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾[الأعراف: ١٨٦]، والعامل بالهدى المسترشد به يسمى مهتديًا، قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾[البقرة:١٦].

وقد أوجب الله على عباده في كتابه الاهتداء بنور وحيه، ولم يجبرهم عليه، بل ترك لهم حرية اختيار الهدى، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[يونس: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[الزمر: ٤١].

---

(١) في كتاب: الجمعة، باب: تَخْفِيفِ الصَّلاَةِ وَالْخُطْبَةِ برقم: (٢٠٤٢) .

وجعل الجزاء مرتبطًا باتباع الهدى، قال تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] .

المطلب الثالث: الفرق بين الهدى والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن:

أولًا: العلاقة بين الهدى والهداية والفرق بينهما:

جاءت لفظة الهدى في القرآن الكريم بمعنى الهداية في آيتين هما:

قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦]، فالفعل يهديهم هداية وهدى .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧] فالفعل هنا هديناهم الذي مصدره هداية وهدى، وعبّر هنا عن الهداية في الآية بالهدى .

وكما ورد لفظ الهدى بمعنى الهداية في القرآن الكريم، وردت كذلك في السنة النبوية، في قوله ﷺ: " يا علي سل الله الهدى والسداد ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وبالسداد تسديدك السهم "(١) .

ومن هنا قال العلماء: الهدى والهداية في اللغة: شيء واحد .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم: (٦٦٤)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب الزينة، باب النهي عن الخاتم في السبابة برقم: (٩٤٦٥)، والحاكم في المستدرك، برقم: (٧٧٠٠)، وقال: صحيح الإسناد، وحسّنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع برقم: (٧٩٥٣) .

قال الراغب رحمه الله في « المفردات »: " والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد"[١]، وهما مصدران .

قال الأزهري رحمه الله في « تهذيب اللغة »: " يقال: هداه يهديه هدى وهداية "[٢]، وقال الأصمعي رحمه الله: " هذا يهديه في الدين هدى، وهداه يهديه هداية إذا دلّه على الطريق "[٣] .

وقد اخترنا لفظة الهدايات هنا في مسمى الدراسة والمشروع لعدة أسباب نلخصها في الآتي:

١/ أنّهما في اللغة بمعنى واحد، كما نصّ على ذلك الراغب الأصفهاني والأزهري والأصمعي - رحمهم الله -، ولم نجد من خالفهم، بل نقل العلماء كلامهم مؤيدين له .

٢/ لأنّ القرآن الكريم عبّر بلفظة الهدى عن معان كثيرة منها الهداية وجعل للهدى مصطلحًا محددًا مطردًا يشمل معرفة الحق والتوفيق للعمل به، ونحن قصدنا في مشروعنا هذا معنىً محددًا من الهدى، وهو ما يتعلق بالجانب العلمي الذي هو الدلالة والإرشاد دون بقية معاني الهدى، حسب المصطلح القرآني الذي هو نوع من أنواعه، وجزء من مصطلحه ومفهومه، وهو الذي استخدمه القرآن الكريم في الحديث عن قوم ثمود، لما أراد من معنى الهدى هداية الإرشاد،

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥١٩) .

(٢) تهذيب اللغة (٦/ ٣٨٠) .

(٣) نفس المصدر .

في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].

٣/ إنّ لفظ الهدايات هو المستخدم عند عامة علماء التفسير واللغة[١]، فهم حين يتكلمون عن أنواع الهدايات وأقسامها يعبرون عنها بلفظ الهدايات؛ بل هذه اللفظة استخدمها العلماءُ - رحمهم الله - قديمًا في أسماءِ مؤلفاتهم مثل: « الهدايةُ إلى بلوغِ النهايةِ في علمِ معاني القرآنِ الكريم وتفسيره، وأحكامِهِ، وجملٍ من فنون علومه» لمكي بن أبي طالب القيسي رحمه الله، و« الهداية في شرح بداية المبتدي »، لعلي بن أبي بكر المرغيناني رحمه الله، وكتاب « بداية الهداية »، لأبي حامد الغزالي رحمه الله .

٤/ أنّ هذه اللفظة هي المناسبة لمشروع قائم على صناعة بشرية، قصد من لفظ (الهدى) ما يتعلق بالجهد البشري في الدلالة والإرشاد لما جاء من الهدى، وهي تفيد كذلك معنى التكثير، وبذل الجهد، للتوصل لما في القرآن الكريم من فوائد وإرشادات .

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٥٣٩)، والمحرر الوجيز (٥/ ٤٤٠)، ومفاتيح الغيب، للرازي (١/ ١٥٧)، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٥٩)، وتفسير ابن تيمية (٥/ ٨٥)، والتفسير القيم (١/ ١٣١)، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ١٨)، واللباب في علوم الكتاب (٣/ ٤٢٦)، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٢٦٣)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/ ٧١٣)، وتفسير الألوسي (٦/ ٤٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٢٦٣)، والوسيط لسيد طنطاوي (ص:٢٦٣٣)، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٣/ ٤٤٩)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن (١/ ٤)، وغيرها .

ثانيًا: الفرق بين الهدى والاهتداء:

هنالك فرق واختلاف في الاستعمال القرآني بين الهُدى الذي هو من الفعل (هَدَى)، والاهتداء الذي هو من الفعل (اهتدى) فاختصّ الأول بالله تعالى، والثاني بالإنسان، فالهدى يأتي لما تولاه الله تعالى وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان[1]، والاهتداء يأتي غالبًا: لما تحرّاه الإنسان وطلبه على طريق الاختيار، إمّا في الأمور الدنيوية، وإما في الأمور الأخروية؛ قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: " قد خص الله ﷻ لفظة الهدى بها تولاه وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان نحو: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة :٥]، ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام:٧١]، ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾، ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[النحل: ٣٧]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾[البقرة:١٦] .

والاهتداء يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان على طريق الاختيار؛ إمّا في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، وهو ثمرة الهداية، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا ﴾[الأنعام:٩٧]، وقال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[النساء:٩٨]، ويقال ذلك لطلب الهداية،

---

(١) قال الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار (٧ ٤٩٣): " بعد التتبع لَا يَصِحُّ مُطَّرِدًا " . لكنّه لم يمثل له، وقد قمت بتتبع ورود الكلمة في القرآن حيث ذكرت في اثنين وعشرين موضعًا، كلها مطردة، لما تولاه الله وأعطاه .

نحو: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:٥٣]، وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٠]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة:١٣٧][1] .

---

(١) المفردات (ص: ٥١٩) .

المطلب الرابع: تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح:

يريد الباحث من خلال تعريف الهدايات القرآنية تحديد مصطلح الهدايات فيما يتعلق بالعبد من بيان وإرشاد، وهو تعريف خاص باعتباره علمًا مرشدًا لما هدى إليه القرآن الكريم من خلال منطوقه ومفهومه، وليس من خلال ما ورد في القرآن الكريم من معنى الهدى الذي يشمل هداية الإلهام الفطري، وهداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق والتأييد، والهداية التي تتعلق بالآخرة، ولكننا قصدنا بالهدايات القرآنية[1] فقط بيان ما جاء في القرآن الكريم من إرشادات تهدي من فهمها وعمل بها لما يحقق له سعادة الدارين، ومن هنا عرفنا الهدايات القرآنية هنا بأنّها:

" الدلالة المبينة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل[2] لكل خير[3]، وتمنع من كلِّ شر " .

---

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: " الهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي: الدلالة على ما يرضي الله من فعل الخير ويقابلها الضلالة وهي التغرير " . التحرير والتنوير (١/ ١٨٨) .

(٢) اخترنا كلمة توصل؛ لأنّ مجرد بيان الهدى هو هداية، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت: ١٧]؛ ولهم الخيار بعد ذلك دون إكراه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] .

(٣) احتار الباحث في الاختيار بين ما جاء في هذا التعريف، وبين الزيادة عليه بالقول: " توصل إلى الصراط المستقيم، وتعصم من الطرق المعوجة "؛ لأني كنت بين آيات تبين أنّ القرآن جاء ليهدي للتي هي أقوم، وبين آيات تبين أنّه جاء ليهدي إلى الصراط المستقيم، إلا أنني اخترت هذا التعريف؛ لكونه شارحا لمفهوم الصراط المستقيم .

فـ" **الدلالة** ": " ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى "[(١)]، فهي تبين الوسائل والطرق والكيفيات .

و" **المبينة** ": من البيان الذي هو: " ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدلالة وغيرِها، وبانَ الشيءُ بَياناً اتَّضَح "[(٢)]؛ لأنّ الهدف من الدلالة إظهار وإيضاح الهداية للعمل، ولتمييزها عن طرق الضلال؛ وهذا هو المتفق مع مهمة الرسل وأتباعهم، التي هي بيان هدايات القرآن الكريم للناس، وهو الذي يكون في مقدورهم، وما يجب عليهم، وبعد التبيين تكون المؤاخذة لمن تخلف عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٥]، خلافًا لهداية التوفيق والسداد، وجعل الهدى في القلب، وهذه من الله تعالى وحده، علمًا بأنّ السبيل إلى الثانية يكون بمعرفة الأولى، ولا فائدة للهداية الأولى بدون الثانية، والدالّ على الهداية يقصد تحقق كلا الأمرين للمهدي، وهداية الإلهام فطرية ليس للعبد تدخل فيها .

" **لإرشادات** ": وهي الغاية التي يُتوصل إليها بهذا العلم؛ ولأن الهدايات القرآنية في مصطلح الدراسة هي مجرد الإرشاد إلى الخير، سواء حصل اتباع الخير أم لم يحصل فهي هداية .

---

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص: ١٧١) .

(٢) لسان العرب (١٣/ ٦٢) .

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: " ولما كانت الهداية والتَّعليم يقتضيان شيئين: تعريفًا من المـُعَرِّف، وتَعَرُّفاً من المـُعَرَّف، وبهما يتمّ الهدايةُ والتَّعلُّم؛ فإنه متى حصل البذل من الهادي والمعلِّم ولم يحصل القبول صَحَّ أن يقال: لم يَهْدِ ولم يُعَلِّم اعتبارًا بعدَم القَبُول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وصحّ أَنْ يُقال: هَدَى وعَلَّم اعتبارًا بَبذْلِه، فإذا كان كذلك صحّ أن يُقالَ: إِنَّ الله لم يَهْدِ الكافرين والفاسقين من حيثُ إِنَّه لم يَحْصُل القَبولُ الَّذى هو تَمامُ الهِداية والتَّعلِيم، وصحّ أَنْ يُقال: قد هَداهم وعَلَّمَهُم من حيث إِنَّه حَصَل البَذْلُ الذى هو مَبْدأُ الهِداية "[١].

" **القرآن الكريم** ": يشمل ما دل عليه بمنطوقه ومفهومه من خلال آياته، وموضوعاته، وسوره، ومن هنا كانت الهدايات بعضها دلّ عليه ظاهر النص، وبعضها استنبطها العلماء بعد تدبر وإعمال فكر فيه .

" **التي توصل**": لأنّ هداية الإرشاد في أصلها جاءت لتدل وتوصل الإنسان إلى مطلوبه، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم، المتمثل في معرفة الحق والعمل به، فهي موصلة إليه: إرشادًا، ولا يمكن الوصول إلى الهدى بغيرها .

قال أبو البقاء رحمه الله: " الهداية هي عند أهل الحق الدلالة على طريق من شأنه الإيصال سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أو لم يحصل"[٢] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥٤٠) .

(٢) الكليات لأبي البقاء الحسيني (٢/ ٥٧) .

" **لكل خير** ": لأنّ القرآن الكريم جاء ليهدي بهديه للتي هي أقوم، فيما يحقق سعادة الدنيا والآخرة، فلا يهدي إلا إلى الخير والمعروف .

" **وتمنع من كل شر** ": لأنّ القرآن الكريم كما أنّه يهدي للتي هي أقوم، فهو أيضا يمنع بهدايته من سلوك السبل المعوجة التي توصل إلى الضلال والشر والشقاء، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه:١٢٣]، فقد أمرنا الله تعالى باتباع الصراط المستقيم غير صراط المغضوب عليهم والضالين، التي هي السبل التي حذّرنا الله منها، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وقد تكون الهداية في كلمة قرآنية واحدة، وقد تكون في آية قرآنية، وقد تجتمع جملة هدايات في الآية الواحدة، أو في آيات الموضوع الواحد في السورة، وقد تكون الهدايات مستنبطة من مجموع آيات السورة، أو من الموضوع، أو اللفظ القرآني الواحد، ولا تخلو آية قرآنية ولو كانت من كلمة واحدة من هداية ظاهرة أو مستنبطة، بل قد تجد فيها عشرات الهدايات؛ لأنّ الآية مع ما فيها من هدايات هي في الوقت نفسه تدل على وجوده جل وعلا؛ لأنّ من لوازم القول أن يكون له قائل، وتدل على علمه وحكمته ورحمته، لما حوته من هَدْي محكم، يسدد لكل خير وصلاح .

المطلب الخامس: الفرق بين مفهوم الهدايات والمصطلحات المقاربة:

استعمل العلماء - رحمهم الله - مصطلحات معينة في الدلالة على فهم معاني القرآن الكريم، واستنباط حكمه وأسراره، وإدراك مقاصده وغاياته، والدلالة على هداياته، فمن ذلك: " التفسير، والتأويل، والاستنباط، والهدايات "، ويعبر العلماء عن ذلك بقولهم: « تفسير الآية كذا ، واختلفوا في تأويلها على كذا، ويستنبط من الآية كذا، والهدايات عبّروا عنها بألفاظ متنوعة سوف يأتي الحديث عنها بإذن الله في المطلب القادم "، فلكي نستطيع تجلية مفهوم الهدايات لابد من التمييز بينها وبين التفسير، وبينها وبين الاستنباط، لما بينهما من علاقة وتداخل، أما التأويل فهو هنا يحمل نفس معنى التفسير، ولذا أعرضت عنه .

١/ العلاقة بين التفسير والهدايات والفرق بينهما:

حتى نستطيع أن نعرف العلاقة بين التفسير والهدايات وما بينهما من فرق نبدأ بتعريف التفسير ثم نوضح ما بينهما من العلاقة والفرق:

أولًا: تعريف التفسير:

أ/ التفسير في اللغة: من (الفَسْر) بمعنى البيان والكشف والتوضيح، وفَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكسر، ويَفْسُرُه بالضم فَسْراً وضَّحَه، وشرحه، وبيّنه، ومنه لفظ مفسَّر، وفَسَّرَ آيات القرآن شرحها، فالفاء والسين والراء تدل على بيان شيء وإيضاحه[1]، والتَّفسِيرُ مثله؛ والفَسْرُ: كشف الـمُغَطّى، والتَّفْسير كَشف الـمُراد

(١) ينظر: المعجم الوسيط، مادة (فسر) (١/ ٦٨٨)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، والتوقيف على مهمات التعريف (ص: ١٩٢) .

عن اللفظ الـمُشْكل، واسْتَفْسَرْتُه كذا أي سألته أن يُفَسِّره لـي، وكلّ شيء يُعْرفُ به تفسير الشيء ومعناه فهو تَفْسِرَتُه، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٣]، وكلّ شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته[١] .

وقد اشتهرت لفظة التفسير مقرونة بالقرآن الكريم، حتى أصبحت هذه اللفظة إذا أطلقت فقيل التفسير أريد به العلم الموضح لمعاني القرآن الكريم، وقد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل تفسير، ولهذا يقال: " تفسير الرُؤيا وتأويلها، قال تعالى: ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[الفرقان:٣٣] "[٢] .

ب/ التفسير في الاصطلاح: تعدّدت أقوال العلماء وتباينت في تعريف التفسير اصطلاحًا، ومنهم من كتب في التفسير دون أن يعرفه، وهذا ما فعله غالب المفسرين؛ ولكن بعد الاستقراء والتتبع يمكن تقسيم التعريفات الاصطلاحية التي ذكرها العلماء إلى قسمين:

القسم الأول: من قصروا علم التفسير على توضيح المعاني، ومعرفة مراد الله تعالى من خلال كلامه .

والقسم الثاني: من توسعوا في التعريف حتى أدخلوا الاستنباط، والهدايات والإعجاز، بل زاد بعضهم حتى ضوابط التفسير، ومهمة المفسر كذلك .

---

(١) ينظر: لسان العرب ، مادة (فسر) (٥/ ٥٥٥)، مختار الصحاح ، مادة (فسر) (١/ ٢١١)، وتهذيب اللغة للأزهري ، مادة (فسر) (١٢/ ٤٠٧) .

(٢) المفردات للراغب (ص:٣٨٢) .

فممن قصر تعريف علم التفسير على بيان وتوضيح معاني القرآن الكريم من العلماء:

١- ابن جُزَيٍّ الكلبي رحمه الله (ت:٧٤١هـ) حيث قال: " معنى التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصِّه، أو إشارته، أو نحوهما "[(١)].

٢- وعرفه الجرجاني رحمه الله (ت: ٨١٦هـ) في « التعريفات » بقوله : " توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة "[(٢)].

٣- وعرفه الكَافِيجِيُّ رحمه الله (ت:٨٧٩هـ) بقوله: " وأما التفسير في العرف فهو كشف معاني القرآن وبيان المراد "[(٣)]، وكشف المعاني لا شك أنه يشتمل اللغوية والشرعية، والإفرادية والتركيبية .

٤- وابن عاشور رحمه الله عرّفه بقوله : " التفسير في الاصطلاح: هو: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسّع "[(٤)].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٦) .

(٢) التعريفات (ص : ٦٧) .

(٣) ينظر: التيسير في قواعد التفسير (ص:١٢٤، ١٢٥) .

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٣) .

٥- وعرّفه الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله (ت: ١٤٢١هـ) بقوله: " بيان معاني القرآن "[(١)].

وهنالك من توسعوا حتى أدخلوا في التفسير علم القراءات، والإعجاز، والاستنباط، والهدايات وغيرها:

١- فعرَّفَهُ أبو حيان الأندلسي رحمه الله (ت: ٧٤٥)، بقوله هو: " علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيّةِ النطقِ بألفاظِ القرآنِ، ومدلولاتِها، وأحكامِها الإفراديَّةِ والتركيبيَّةِ، ومعانيها التي تُحمَلُ عليها حالَ التركيبِ، وتتماتُ ذلك "[(٢)]، فهو أدخل علم القراءات بقوله: " يُبحثُ فيه عن كيفيَّةِ النُّطقِ بألفاظِ القرآنِ "، وهذا لم يقل به غيره، فهي وإن كان لها تعلق بالتفسير من بعض الوجوه، لكنّه هو علم يهتم بنطق ألفاظ القرآن الكريم، وأدخل العلوم الأخرى التي ينبغي أن يلم بها المفسر في قوله: " وتتمات ذلك "، حيث قال: " وقولنا : (وتتمات لذلك)، هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك " .

٢- وعرَّفه الزَّرْكَشِيُّ رحمه الله (ت: ٧٩٤) في البرهان بقوله: " علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه "[(٣)]، فهو أدخل علم الاستنباط، وعلم الفقه الذي له توسع في الأحكام، وأدخل علوما أخرى للمفسر في تعريف آخر له، بقوله: " هو عِلْمُ

---

(١) أصول في التفسير (ص: ٢٨).

(٢) البحر المحيط (١/ ١٢١) .

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣) .

نُزولِ الآيةِ وسورتِها وأقاصيصِها والإشاراتِ النَّازلةِ فيها، ثُمَّ ترتيبُ مكِّيِّها ومدنيِّها، ومحكمِها ومتشابِهِها، وناسخِها ومنسوخِها، وخاصِّها وعامِّها، ومطلقِها ومقيدِها، ومجملِها ومفسرِها " .

٣- وقال ابنُ عَرَفَة المالكي رحمه الله (ت: ٨٠٣): " هو العلمُ بمدلولِ القرآنِ وخاصِّيَةِ كيفيةِ دلالتِه، وأسبابِ النُّزولِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ "[١]، وقال: في شرحه للتعريف: " فقولنا: خاصيةِ كيفيَّةِ دلالته: هي إعجازُه، ومعانيه البيانيَّةُ، وما فيه من علمِ البديعِ الذي يذكره الزَّمَخْشَرِيُّ، ومن نحا نحوه "، فهو أدخل علم الإعجاز في تعريف التفسير .

٤-والزرقاني رحمه الله عرّفه في كتابه « المناهل » بقوله: " علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية "[٢]، فهو أدخل علم الهدايات .

والذي يرجح الباحث، أنّ علم التفسير هو: علم يُبيِّن معاني القرآن الكريم، والذي يرجّح ذلك الآتي:

١/ هو المتوافق مع تعريف التفسير في اللغة، حيث جاء معنى التفسير في اللغة مختصرًا على البيانِ والكشفِ والإيضاح للشيء .

٢/ هو الذي اتّفق عليه كل من عرّف التفسير، أما الزيادات الأخرى لم يتفق عليها .

---

(١) تفسير ابن عرفة (١/ ٥٩) .

(٢) ينظر: مناهل العرفان (٢/ ٤) .

٣/ هو الذي سار عليه السلف الصالح - رحمهم الله - في طريقة تفسيرهم لكتاب الله تعالى، حيث لم يتجاوزوا بيان المعنى الذي يتعلق بالألفاظ القرآنيّة، أو خلاصة المعنى التركيبي من الجملة القرآنية .

٤/ هو الذي مارسه العلماء من خلال كتبهم وتفاسيرهم، فتجد المفسر يهتمّ بتوضيح معاني المفردات، كما في كتب المفردات والغريب، ويذكر من الأحاديث، وأسباب النزول، وأوجه القراءات، وغيرها، مما يخدم بيان المعنى، حتى ما جاء من أوجه إعراب، أو جوانب بلاغية، أو إسرائيليات، وغيرها، مما ذكرت لخدمة هذا الجانب، وحتى الذين خرجوا من بيان المعنى، إلى التفريع في مسائل عقدية، أو فقهية، كان ذلك ملحظًا علميًا سجل على تفاسيرهم .

٥/ أنّ الذي جاء في كتب التفسير من هدايات منثورة، لم تكن مقصودة عندهم في كتبهم التي خلت من حديث مباشر عنها، ولم تبرز معالمه، كما كان بارزًا عندهم علم التفسير بأدواته المتنوعة .

ثانيًا: العلاقة بين التفسير والهدايات:

هنالك علاقة وثيقة بين التفسير، والهدايات القرآنيّة؛ لأنّ المفسر عندما يستخرج الهدايات يحتاج - أولًا - إلى معرفة معاني الآية، وما يرتبط بذلك من أسباب النزول، وأوجه القراءات، والناسخ والمنسوخ، وغيرها .

كما أنَّ علم الهدايات نشأ في رحم علم التفسير من خلال ما يذكره بعض العلماء من فوائد، ودلالات، وإرشادات للآية أو الآيات، بعد بيان معنى الآية،

لكنّ علماء التفسير لم يتوسعوا في تدوين الهدايات، ولم يقصدوه بالتأليف، بل كان مقصدهم هو التفسير الذي كثيرًا ما يقف في بيان المعاني.

ومن هنا كان علم الهدايات يأتي بعد علم التفسير، وهو معتمد عليه، وملتصق به، لأنّ علم التفسير يقف عند بيان المعنى غالبًا، وعلم الهدايات هو خلاصة ما جاء في معاني الآية من هداية وإرشاد ودلالة على تلك المعاني، فالتفسير بيان للمعنى، والهدايات دلالات وإرشادات مستفادة من ذلك المعنى الموضح، فعلم التفسير هو الأصل لعلم الهدايات، وهو الثمرة والخلاصة التي تترتب على فهم المعنى، فالعلاقة بينهما علاقة الوسيلة بالمقصد.

ثالثًا: الفرق بين التفسير والهدايات:

مع ما بين التفسير والهدايات من علاقة؛ إلا أنّ بينهما تباينًا من وجوه عدة، فمن ذلك:

* أنّ التفسير يهتمّ بتوضيح وبيان المعاني في الغالب، كما هو منهج جميع المفسرين، بينما علم الهدايات يهتم بما تهدي وترشد وتدل عليه تلك المعاني، فالتفسير بيان، والهدايات دلالات وإرشادات، يخلص إليها بعد معرفة معاني الآية.

* أنّ علم التفسير معتمده الأول في بيان القرآن الكريم تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنّة، ثم بما أُثِر عن الصحابة والتابعين، ثم اللغة، ثم الرأي والاجتهاد، بينما المعتمد عليه الأول في الوصول للهدايات القرآنيّة القريحة الذهنية، والرأي والاجتهاد والتدبر الذي يترتّب على فهم المعنى.

* أنّ علم التفسير تظهر فيه قدرة المفسّر وتميزه بمدى التزامه بأحسن طرق التفسير من تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ومن خلال قوته كذلك في الترجيح والاختيار، ونحو ذلك، بينما علم الهدايات تظهر قدرة المفسّر وتميزه، بقدر ما يوظف معاني الآية، أو السورة، أو الموضوع، في دلالات وإرشادات ظاهرة وخفية من وراء المعنى المبين .

* أنّ علم التفسير مقدمة لعلم الهدايات، من خلال شرح المفردات، وبيان أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغيرها، وعلم الهدايات هو: خلاصة ما يريد أن يصل إليه العلماء - رحمهم الله-، من خلال كل الجهود المبذولة في فهم وخدمة القرآن الكريم، فالتفسير وسيلة والهدايات ثمرة وغاية .

* أنّ علم التفسير ظهرت معالمه، وبانت أصوله، وقعدت قواعده، ووضعت ضوابطه بصورة كبيرة، بينما علم الهدايات لم يجد حظه من العناية والتأصيل بما وجده علم التفسير .

* أنّ علم التفسير قد تكون كتابة المعاني وتوضيحها، فيها البسط والتطويل، ودخول مفردات كثيرة، أما علم الهدايات فأسلوب الكتابة فيه يميل إلى الاختصار، والتلخيص، والتركيز، غالبًا .

٢/ العلاقة بين الاستنباطات والهدايات والفرق بينهما:

حتى نستطيع أن نعرف العلاقة بين الاستنباطات والهدايات وما بينهما من فرق، نبدأ بتعريف الاستنباط، ثم نوضح العلاقة بينهما والفرق:

أولًا: تعريف الاستنباط:

أ/ **الاستنباط في اللغة** : " النون والباء والطاء كلمةٌ تدلُّ على استخراج شيء . واستنبَطْتُ الماءَ: استخرجتُه "[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾[النساء: ٨٣] أي: يستخرجونه، واسْتَنْبَطَ الفَقيهُ: اسْتَخْرَجَ الفِقْهَ الباطِنَ بفَهْمِه واجْتهادِه[٢] .

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: " وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط "[٣] .

وقال ابن القيم رحمه الله: " فإنّ الاستنباط هو استخراج الشيء الثابت الخفي الذي لا يعثر عليه كل أحد "[٤] . وقال أيضا رحمه الله: " إنّ الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه "[٥] .

ب/ **الاستنباط في الاصطلاح:** هو استخراج معنى خفي لا يظهر لغير المفسر من الآية أو الآيات بطريق صحيح، أو هو استخراج المعاني الخفية من الآيات والسور، فالاستنباط في استعمال المفسرين هو: " استخراج ما وراء ظواهر معاني

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (نبط) (٥/ ٣٨١) .

(٢) القاموس المحيط، مادة (نبط) (ص:٨٩٠) .

(٣) جامع البيان (٨/ ٥٧١) .

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٣) .

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٨) .

الألفاظ من الآيات القرآنية "(١)، وهذا ما بيّنه ابن القيم رحمه الله من خلال شرحه للاستنباط حيث قال هو: " قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإنّ ذلك ليس طريقة الاستنباط، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط، وإنما تنال به العلل، والمعاني، والأشباه والنظائر، ومقاصد المتكلم، ومعلوم أنّ هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ، وعمومه، أو خصوصه، فإنّ هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب، وإنما هذا فهم لوازم المعنى، ونظائره، ومراد المتكلم بكلامه، ومعرفة حدود كلامه، بحيث لا يدخل فيها غير المراد، ولا يخرج منها شيء من المراد "(٢).

ثانيًا: العلاقة بين الاستنباطات والهدايات والفرق بينهما:

المتأمل في دلالات الآيات القرآنية، وكلام العلماء، يجد أنّ هنالك علاقة وثيقة بين الهدايات والاستنباط، فالاستنباط وسيلة من وسائل الوصول للمعنى الكامل، والهدايات الدقيقة في الآية، فلا يمكن استكمال ما في الآية من هدايات بدون الاستنباط، إلا أنّنا نجد الهدايات القرآنية منها ما يحتاج إلى استنباط ودقة نظر وتأمل، ومنها ما لا يحتاج لذلك، ومن هنا يظهر لنا أنّ بين الاستنباطات والهدايات عمومًا وخصوصًا، فالهدايات تتّجه نحو توظيف المعاني الظاهرة

---

(١) ينظر مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الرابع- السنة الثانية - ذو الحجة ١٤٢٨هـ، الموضوع الأول: معالم الاستنباط في التفسير للأستاذ نايف بن سعيد الزهراني (ص: ٢٠).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٨).

والخفية في الدلالات والإرشادات، خاصة وأنّ منها ما لا يخفى على من له معرفة باللسان العربي، وله قدرة على الذوق والفهم، بينما اتجاه الاستنباط هو نحو المعاني الخفية والدقيقة، من وراء الكلمات، وتحتاج إلى مقومات ونظر.

والاستنباط من العلوم المكملة لبيان الهدايات؛ لأنّنا متعبدون بما دلّ عليه القرآن بمنطوقه ومفهومه، وفق الضوابط التي وضعها العلماء، فعلم الهدايات يهتم بالهدايات الظاهرة والخفية ذات الآثار الإيمانية العملية، والاستنباط يهتم بالهدايات والمعاني والنكت الخفية بصورة أوسع، وهما من حيث الممارسة والكتابة متداخلان؛ لأنّهما من علوم التفسير، الذي موضوعه: " ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيها، وما يستنبط منها "[(١)]، فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل.

المطلب السادس: تعبيرات علماء التفسير لمفهوم الهدايات:

علماء التفسير يعبرون عن الهدايات بإطلاقات متنوعة، وبعد البحث والتتبع وجدتها في الغالب تدور في سبعة ألفاظ، تتفق تمامًا مع معنى الهداية في اللغة أو تقرب منها، وما ورد في القرآن الكريم، فإليك بيانها، مع نماذج من تعبيرات العلماء لكل واحدة من تلك الإطلاقات:

أولًا: الدلالة: يقولون تدل هذه الآية على كذا، ودلّت هذه الآية على كذا، قال ابن العربي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢).

﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤]: " هَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ أَوَّلِ الْوَقْتِ فِي الصَّلَاةِ خَاصَّةً، وَعَلَى فَضْلِ الْمُبَادَرَةِ إِلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْهَا عَامَّةً "(١) .

وقال القرطبي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩]: " دلّت هذه الآية على أنّ أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك "(٢) .

وقال الشوكاني رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]: " إنّ هذه الآية دلّت على أنّ من كان في البيت الحرام مأخوذ بمجرّد الإرادة للظلم، فهي مخصّصة لما ورد من أنّ الله غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها، إلا أن يقال: إنّ الإرادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس "(٣) .

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]: " فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث "(٤) .

---

(١) أحكام القرآن (٥/ ١٢٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٦٤) .

(٣) فتح القدير (٥/ ١٠٨) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٧٨) .

وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩]: " وقد دلّت الآية على أنّ الشُّورى مأمور بها الرسُول ﷺ فيما عبّر عنه بـ (الأمر) وهو مُهمّات الأمّة ومصالحها في الحرب وغيره "[(١)].

وقد عبّر عدد من المفسرين - رحمهم الله - بهذا، منهم: أبو الحسن الماوردي في « النكت والعيون » (ت:٤٥٠هـ)، وأبو القاسم الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) في « الكشاف »، وفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ) في « مفاتيح الغيب »، والبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) في « أنوار التنزيل وأسرار التأويل »، وأبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) في « البحر المحيط »، وابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) في « التفسير القيم » وفي عدد من المواضع في كتبه، وابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) في « تفسير القرآن العظيم »، والألوسي (ت:١٢٧٠هـ) في « روح المعاني »، وجمال الدين القاسمي في « محاسن التأويل » (ت:١٣٣٢هـ)، والشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ) في « أضواء البيان »، وغيرهم[(٢)].

ثانيًا: الإرشاد: يقولون ترشد هذه الآية إلى كذا، وأرشدت هذه الآية إلى كذا.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٤٧).

(٢) لم أوثّق هذه المواضع هنا لكثرتها في كتبهم، ولأنّ طبيعة الدراسة لا تتحمل البسط، ولأني اكتفيت بتوثيق النماذج المذكورة لكل مثال.

أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة:٨٥]: " والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذمّ اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة "(١) .

وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴾ [الأحزاب : ٦١]: " وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها؛ لأنّ إصلاح الفاسد يكسب الأمة فردًا صالحًا أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها "(٢)، فهم ذلك من تقديم الأخذ على التقتيل.

وقال مصطفى المراغي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]: " والآية ترشد إلى أنّ الإيمان الخالص لا يكفي وحده للنجاة، بل لابدّ أن يقرن بإحسان العمل "(٣) .

وقال محمد رشيد رضا رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩]: " والآية

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٩٥) .

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١١٠) .

(٣) تفسير المراغي (١/ ١٩٥) .

ترشد إلى أنّ المرأة تابعة للرجل في السكنى، والمعيشة، باقتضاء الفطرة، وهو الحق الواقع الذي يعد ما خالفه شذوذا "[١].

وقال الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧]: " والآيات المذكورة أرشدت الناس ونبّهتهم على الاقتصاد في الصرف "[٢].

وقد عبّر عدد من المفسرين- رحمهم الله- بهذا التعبير، منهم: ابن العربي (ت:٥٤٣هـ) في « أحكام القرآن »، وبرهان الدين البقاعي (ت:٨٨٥هـ) في « نظم الدرر »، والألوسي في « روح المعاني »، والقاسمي في « محاسن التأويل »، وغيرهم .

ثالثًا: الفائدة[٣]: يقولون تفيد هذه الآية كذا، وأفادت هذه الآية كذا، مثال ذلك: قول الجصاص رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٢٦]: " ومما تفيد هذه الآية من الأحكام، ما استدلّ به منها محمد بن الحسن، على امتناع جواز الكفارة قبل الحنث "[٤].

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٠٦) .

(٢) أضواء البيان (٦/ ٧٧) .

(٣) قال الليث: " الفائدةُ: ما أفاد الله العبد من خير يستفيده ويستحدثه، وجمعها الفوائد "، انظر: تهذيب اللغة للأزهري مادة (فيد) (٤/ ٤٨٤) .

(٤) أحكام القرآن (٢/ ٥٤، ٥٥) .

وقال ابن العربي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٤١]: " أفادت هذه الآية وجوب الزكاة فيما سمى الله سبحانه، وأفادت بيان ما يجب فيه من مخرجات الأرض التي أجملها في قوله: ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ "(١) .

وقول ابن الجوزي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]: " أفادت هذه الآية أن على القاذف إذا لم يقم البيّنة الحد، ورد الشهادة، وثبوت الفسق "(٢) .

وقول الرازي في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[البقرة: ١٧٨]: " فثبت أنّ هذه الآية تفيد وجوب التسوية من كل الوجوه "(٣) .

وقول البقاعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٤٦٥) .
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٦/ ١٠) .
(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٦١) .

﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠]: " فقد أفادت هذه الآية أنّ من كان في قلبه غلّ على أحد من الصحابة رضي الله عنهم فليس ممن عنى الله بهذه الآية "(١).

وقد عبّر عدد من المفسرين - رحمهم الله- بهذا، منهم: ابن عطية، وابن العربي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو البركات النسفي (ت:٧١٠هـ) في « مدارك التنزيل وحقائق التأويل »، وأبو حيان الأندلسي، والسمين الحلبي (ت:٧٥٦هـ) في « الدرّ المصون »، وابن عادل الحنبلي (ت:٨٨٠هـ) في كتابه « اللباب في علوم الكتاب »، والألوسي، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، وهو يعبّر في تفسيره عن الهدايات بالفوائد، والجزائري في « أيسر التفاسير » وغيرهم .

رابعًا: البيان: يقولون تبيّن هذه الآية كذا، وبيّنت هذه الآية كذا، مثال ذلك: قول الجصاص رحمه الله في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة:١٢٠]: " قد بيّنت هذه الآية وجوب الخروج على أهل المدينة مع رسول الله في غزواته إلا المعذورين، ومن أذن له رسول الله ﷺ في القعود؛ ولذلك ذمّ المنافقين الذين كانوا يستأذنون رسول الله ﷺ في القعود في الآيات المتقدمة "(٢).

وقول أبي حيان الأندلسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ

(١) نظم الدرر (٧/ ٥٢٨).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٧١).

﴿ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾[البقرة: ٢٣٧]: " بيّنت هذه الآية أنّ المفروض لها تأخذ نصف ما فرض، ولم تتعرض الآية لإسقاط متعتها بل لها المتعة ونصف المفروض "(١) .

وقول محمد رشيد رضا رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢]: " بيّنت هذه الآية مسلكهم في الغواية والإغواء في سياق النهي عنه "(٢) .

وقول ابن عاشور رحمه الله في قوله: ﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[العلق: ٧]: " فقد بيّنت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبّهت على الحذر من تغلغلها في النفس "(٣) .

وقول الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾[المؤمنون: ٥ - ٦]: " فقد بيّنت هذه الآية أن حفظ الفرج من الزنى، واللواط لازم، وأنّه لا يلزم حفظه عن الزوجة والموطوءة بالملك "(٤) .

وقد عبّر عدد من المفسرين - رحمهم الله - بهذا، منهم: البقاعي، والشنقيطي، ومحمد السيد طنطاوي (ت:١٤٣١هـ) في تفسيره « الوسيط »، وغيرهم .

---

(١) البحر المحيط (٢/ ١٧١) .

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٤١) .

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٤٤٥) .

(٤) أضواء البيان (٥/ ٥٠٦) .

خامسًا: الإشارة: يقولون تشير هذه الآية إلى كذا، واشارت هذه الآية لكذا، مثال ذلك: قول أبي حيان رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]: " وهذه الآية تشير إلى أنّ القضاء في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ ﴾ إنّما هو قضاء صلاة الخوف "(١).

وقول محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨]: " تشير الآية إلى أنّ الناس على مذاهب عديدة وأديان متنوعة، وأنّ على العاقل أن يستبق إلى ما كان خيرها وأرقاها، وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة أنّ دين الإسلام أرقى الأديان كلّها لما حوى من حاجيات الكمال البشري، ووفى بشؤون الاجتماع، وأسباب العمران، وذرائع الرقيّ وطرق السعادتين "(٢).

وقول الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١]: " وهذه الآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم، ومعه لوط - عليهما السلام - من أرض العراق إلى الشام؛ فرارًا بدينهما "(٣).

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣/ ٣٥٧) .

(٢) محاسن التأويل (١/ ٣٩٣) .

(٣) أضواء البيان (٤/ ٢٣٩) .

وقول ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥]: " وهذه الآية تشير إلى أنّ النبوءة غير مكتسبة "(١) .

وقول أبي بكر الجزائري حفظه الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾[فاطر: ١٠]: " إنّ الآية تشير إلى أنّ كل من يمكر مكر السوء فإنّ عاقبة مكره تعود عليه وبالًا وخسرانًا "(٢) .

وقد عبّر عدد من المفسرين بهذا، منهم: أبو القاسم عبد الكريم القشيري (ت:٤٦٥هـ) في « لطائف الإشارات »، وابن عطية في « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز »، والثعالبي (ت:٨٧٥ هـ) في « الجواهر الحسان في تفسير القرآن »، وابن عادل الحنبلي، والألوسي، والسعدي، وابن عثيمين، وغيرهم .

سادسًا: الفهم: يقولون يفهم من هذه الآية كذا، وهذه الآية فيها كذا، مثال ذلك: قول الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾[البقرة:١٧٣]: " فيفهم من الآية أن الباغي والعادي كلاهما متجانف لإثم، وهذا غاية ما يفهم منها "(٣) .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١١١) .

(٢) أيسر التفاسير (٤/ ٣٤٢) .

(٣) أضواء البيان (٣/ ٩٦) .

وقول السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]: " يفهم منها أنّ ما لم يتنازعوا فيه بل اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين بردّه إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقًا للكتاب والسنة فلا يكون مخالفا "(١) .

وقول الجصاص رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠]: " الآية فيها نصّ على إباحة عقد النكاح بلفظ الهبة للنبي ﷺ "(٢) .

وقول ابن العربي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]: " الْآيَةُ فِيهَا ثَلاثُ مَسَائِلَ "(٣) .

وقول القرطبي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠]: " وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم وهذا الباب عظيم وخطره جسيم ينبغي الوقوف عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم "(٤) .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٢٠٢) .

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٢٣٧) .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٦٥) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٧٥) .

وقد عبّر عدد من المفسرين - رحمهم الله - بهذا، منهم: ابن عطية في « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز »، وابن القيم فيما جمع له من « التفسير القيم »، والزركشي في « البرهان »، والبقاعي في « نظم الدرر »، والألوسي في « روح المعاني »، والنيسابوري في « الكشف والبيان »، وابن عاشور في « التحرير والتنوير »، وغيرهم .

سابعًا: الأخذ: يقولون يؤخذ من هذه الآية كذا، وأخذ من هذه الآية كذا، مثال ذلك: قول ابن العربي فيما نقله عن الشافعي- رحمهما الله- في قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]: " يؤخذ من هذه الآية أنّ السراح من صريح ألفاظ الطلاق الذي لا يفتقر إلى نية "(١) .

وقول ابن عرفة رحمه الله: " ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ ﴾[البقرة: ٧٤]، يؤخذ من الآية أنّ الأفضلية ثبتت للجنس بثبوتها لبعض أفراده؛ لأنّ الحجارة الموصوفة بذلك هي بعض من كل، وقد ثبت التفضيل للجميع بقوله: ﴿ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ ﴾، ولم يقل فهي كالحجارة الموصوفة بكذا، والحجارة عام إما بالألف واللام ، (أو) بالسياق، فقد فضل عليهم جميع الحجارة "(٢) .

وقول السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠]: " يؤخذ من مفهومه، أنّ ما عداهن من الأقارب، غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٣٨١) .

(٢) تفسير ابن عرفة (١/ ٣٣٢) .

الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا، والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح "[1].

وقول الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]: " يؤخذ من هذه الآية الكريمة أنّ علامة المحبة الصادقة لله ورسوله ﷺ هي اتباعه ﷺ، فالذي يخالفه ويدعي أنّه يحبه، فهو كاذب مفتر؛ إذ لو كان محبًّا له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة أنّ المحبة تستجلب الطاعة "[2].

وقول ابن عاشور رحمه الله: " يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧]، أنّ فناء العالم يكون بالزلازل "[3].

هذه هي الألفاظ البارزة التي عبّر بها المفسرون - رحمهم الله - عن مفهوم الهدايات المستفادة من الآيات حسب ما ظهر لنا من خلال البحث والتتبع ، وهنالك ألفاظ أخرى عبر بها بعض المفسرين بصورة قليلة، وهي: " الإيماء، التنبيه، الايحاء، والتضمين، والمقصد، والثمرة، وغيرها " .

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٦٩) .

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٨) .

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٣) .

المبحث الثاني

أهمّيّة الهدايات القرآنية

إعداد

أ. د . طه عابدين طه حمد

أهمية الهدايات القرآنية

مدخل:

الهدايات القرآنيّة أمرها عظيم، وشأنها كبير؛ لأنَّ موضوعها ومصدرها الذكر الحكيم، كلام رب العالمين، الذي هو خير الحديث، وأصدقه، وأعدله، وأنفعه، وأبركه.

فوصفها كريم، لأنّها نور وهدى، وبركة وذكرى، وشفاء ورحمة، فهي جمعت كل الصفات التي تحمد، وتنزهت عن كل شائبة نقص وعوج.

وهدفها جليل، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإرشادهم إلى ما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّها تدلهم على كلِّ هدى وخير، وعلم وحكمة جاءت في كتاب الله، من أمور المعاش والمعاد بصورة مستمرة.

والحاجة إليها كبيرة، لا سيما في عصر تعقدت مشكلاته الاجتماعية والنفسية، والسياسية، والاقتصادية وغيرها، مما يتطلّب البحث في هدايات الآيات، واستخراج واستنباط معالجات شافية لما تحتاج الأمة إليه؛ لأن الله جعل في كتابه كل ما هو صالح لكل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

وأثرها بليغ؛ لأنّها تبلغ كل كمال وسعادة، وتصون عن كل فساد وانحراف، وكيف لا تكون كذلك؟!! وهي مُنَزَّلةٌ من عند الله العليم الحكيم، قال تعالى: ﴿

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[السجدة:٢] فإنّ الأوائل سعدوا بالقرآن الكريم؛ لما أقبلوا عليه يأخذون هديه، ويستنيرون بنوره، فتوحدت كلمتهم، وقويت شوكتهم، وعز سلطانهم، وعلا مجدهم، فالقرآن الكريم في كل زمان يمثل سرّ قوة الأمة، فهو برهان صدق الرسالة، وقائد مسيرتها للتي هي أقوم بين الأمم، ومن هنا كانت هداياته واضحة الهدف، عظيمة النفع والأثر، مصانة عن العبث، محققة للكمال البشري، لا يستغنى عنها العقلاء، ولا يشبع من دراستها العلماء، فالله جعل في أرضه غذاء الأجساد، وجعل في هدايات كتابه غذاء للأرواح، وهداية للعقول، وكما لا نجد خللًا فيما أخرجه لعباده من الطيبات، لا نجد كذلك عوجًا فيما أنزله لعباده من البينات والهدى والذكر الحكيم، وهو الذي خلق، ويعلم ما يصلح الخلق؛ ولذا أثنى الله تعالى على المهتدين بهدايات القرآن الكريم، فوصفهم بالهداية والعقل، قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ١٧ – ١٨] .

ومن هنا سوف نتكلم عن أهميّة الهدايات القرآنية من جهة موضوعها، ووصفها، وهدفها، وشدة الحاجة إليها، وأثرها، من خلال المطالب الخمسة الآتية بإذن الله تعالى، نسأل الله العون والتوفيق والسداد، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية:

مما يدلّ على أهمّيّة الهدايات القرآنية أنّ موضوعها هو كتاب الله تعالى « كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر »[(١)]، والقرآن العظيم، والنور المبين، والذكر الحكيم، والكتاب العزيز؛ الذي جمع الله فيه كل علم نافع، وحكمة صالحة، وهداية راشدة، ودلالة موصلة لكل خير، وجعله رحمة من كل شقاء، وشفاء من كل داء، فهو كتاب الإنسانية التي أرادت أن تحيا على منهج الله تعالى، تصون به عقيدتها، وتصلح به عبادتها، وتستقيم عليه حياتها في جميع الجوانب؛ لأنّ الله تعالى بيّن فيه كل ما كانت الأمة في حاجة إليه؛ لصلاح أمرها، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩] " بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنّة كافياً في هدي الأمّة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كلّ وقت بما يحتاجه المسلمون "[(٢)]، وهو الحق المبين، الذي ليس بعده لضال عذر، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس:١٠٨]، وهو الصراط المستقيم الذي ندعو الله أن يبصرنا به في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ

---

(١) الموافقات في أصول الفقه، للشاطبي (٤/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٠٣).

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]، وهو الهدى القويم، الذي به قوام الأمور واستقامتها، وهو النور العظيم الكاشف لكل ظلمات الحياة والقلوب، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥-١٦]، وهو بصائر للمستبصرين، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[الأنعام: ١٠٤]، وهو حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣]، وهو الروح الذي تحيا به الأمة حياة السعادة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢] .

قال ابن القيم رحمه الله: " فسماه روحًا لما يحصل به من الحياة، وجعله نورًا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وُجِدَت هذه الحياة بهذا الروح وُجِدَت الاضاءة والاستنارة، وحيث وُجِدَت الاستنارة والاضاءة وُجِدَت الحياة، فمن لم يقبل هذه الروح فهو ميت مظلم "(١)، وهو الموصل لكل هدى، ومحقق لكل خير ورحمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء:١٧٤- ١٧٥]، فهو الذي

---

(١) التفسير القيم (٢/ ١٢٣) .

يهديهم إلى طريق الجنة، ويبعدهم عن طرق النار، وهو الذي حثهم على كل ما ينفعهم، وحذر فيه من كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم، ومن هنا صار رحمة ونعمة عظمى من الله البر الرحيم بعباده.

ويدل على فضل الهدايات القرآنية، أنّ كل ما ثبت للقرآن من فضائل ومنزلة فهي ثابتة لهداياته المستخرجة بصورة صحيحة، حيث جعل الله فيها الكفاية للهدى والحق والكمال، وكل ما كان الناس في حاجة إليه؛ لصلاح دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١].

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: " هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء، فقال العقل: " ليته لم يأمر به "، ولا نهى عن شيء فقال العقل: " ليته لم ينه عنه "، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته، وهداياته، وأحكامه لكل حال، وكل زمان، بحيث لا تصلح الأمور إلا به، فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى اللهّ من لم يكفه القرآن، ولا شفى اللهّ من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه رحمة له وخير، فلذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾؛ وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير،

والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية "(١).

والأمة مع هداياته لا تحتاج إلى غيرها، وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وهيمنته تدل على علو مرتبته، وكمال هديه، وفضله، وجمعه لجميع ما في غيره من الكتب الإلهية السابقة.

فالقرآن الكريم مصدر الهدايات القرآنية الذي: " لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة "(٢)، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٣٥).

(٢) الموافقات في أصول الفقه (٤/ ١٤٤).

المطلب الثاني: صفات الهدايات القرآنية:

الهدايات القرآنية وصفت بصفات عظيمة، تدل كل صفة على أهميتها ومنزلتها وعلو شأنها، من ذلك:

أولًا: هدايات مستقيمة: فالله تعالى وصف القرآن الكريم بالاستقامة التي لا عوج فيها ، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٦]، فهداياته كذلك التي استخرجها العلماء وفق أسس صحيحة كلها مستقيمة، بل في كمال الاستقامة، لا خلل فيها، ولا تناقض، ولا عيب، ولا نقص؛ لأنّها مستنبطة من كتاب " لا اعوجاج فيه البتة، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه؛ لأن قوله: ﴿ عِوَجَا ﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي جميع أنواع العوج "[١] .

ثانيًا: هدايات قيّمة: وهي هداية وصفت كذلك بأنها قيمة، قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : ٢ -٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا ﴾ [الكهف:١ -٢]، فهي هدايات قيمة، لا يوجد أقيم منها في الوجود؛ لما يحقق مصالح العباد العاجلة والآجلة، لا

(١) أضواء البيان (١٩/ ٥) .

ريب في قيمتها، وصلاحها، وفائدتها، وعظيم نفعها، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢]، ولا ريب أنّ ما جاء فيها هو الحق الذي لا يلبسه باطل، والعدل الذي لا يخالطه جور، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[هود: ١٧]، ولا حجّة لمرتاب في ريبه ، وهي هدايات قيمة كذلك؛ لأنها تنبض بالحكمة التي لا يعتريها خلل؛ لأنها مستنبطة من كتاب حكيم، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (يس: ١ - ٢)، وقال تعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[يونس: ١]، وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾[لقمان: ٢ - ٣]، فهو لحكمته يهدي لكل كمال، ويوصل لكل صلاح من خلال هداياته .

قال السعدي رحمه الله: " فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان "(١) .

ثالثًا: هدايات كريمة: وهي هدايات وصفت كذلك بأنّها كريمة أي: عظيمة الفوائد، جمة المنافع، كثيرة الخير، كبيرة الأثر، ليس لها مثيل ونظير؛ لأنّها مستنبطة من كلام رب العالمين، الموصوف بأنه كريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٠] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٦٢) .

قال ابن العربي رحمه الله: " الوصف الكرِيم في الكتابِ غاية الوصف، وأهل الزَّمان يصفون الكتاب بِالخطير، وبالأَثير، وبِالمبرور؛ فإن كان لملك قالوا: العزيز؛ وأَسقطُوا الكريم غَفْلَةً، وَهُوَ أَفضلها خصلة "(١).

وقال أبو حيان رحمه الله: " وكريم : وصف مدح ينفي عنه مالا يليق به "(٢).

وقال ابن الجوزي رحمه الله : " والكريم اسم جامع لما يحمد؛ وذلك أنّ فيه البيان والهدى والحكمة، وهو معظم عند الله ﷻ "(٣).

وقال البيضاوي رحمه الله: " كريم: كثير النفع؛ لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسن مرضي في جنسه "(٤) .

وقال القرطبي رحمه الله: " هو كريم على المؤمنين، لأنه كلام ربهم، وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه، وقيل: ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي: غير مخلوق، وقيل: ﴿ كَرِيمٌ ﴾ لما فيه من كريم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنّه يكرم حافظه، ويعظم قارئه "(٥) .

---

(١) أحكام القرآن (٦/ ٢١٦) .

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢١٣) .

(٣) زاد المسير (٨/ ١٥١) .

(٤) أنوار التنزيل (٥/ ٢٩٢) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٢٤) .

وقال السعدي رحمه الله: " ﴿ كريم ﴾ أي: كثير الخير، غزير العلم ، فكل خير وعلم فإنما يستفاد من كتاب الله، ويستنبط منه "(١) .

رابعًا: هدايات مباركة: فهداياته التي هي هداياته فعلًا هي هدايات مباركة، عطاؤها لا ينفد، ونورها لا يخبأ، وخيرها لا يحد؛ لأنّها من كتاب مبارك في علومه، ومعانيه، وأثره، وفي كل ما يتصل به، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص:٢٩] .

قال ابن عاشور رحمه الله: " ووصف القرآن بالمبارك، يعمّ نواحي الخير كلها؛ لأنّ البركة زيادة الخير؛ فالقرآن كلّه خير، من جهة بلاغة ألفاظه، وحسنها، وسرعة حفظه، وسهولة تلاوته، وهو أيضًا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام، والحكمة، والشريعة، واللطائف البلاغية، وهو في ذلك كله آية على صدق الذي جاء به؛ لأنّ البشر عجزوا عن الإتيان بمثله، وتحدّاهم النبي ﷺ بذلك فما استطاعوا، وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان، وانتفع به مَن آمنوا به، وفريق ممن حرموا الإيمان، فكان وصفه بأنه مبارك وافيًا على وصف كتاب موسى عليه السلام بأنّه فرقان وضياء"(٢) .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٣٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٠، ٩١) .

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾: " فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجلَّ كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله "(١).

خامسًا: هدايات مذكرة: وهي هدايات ذكر للمتذكرين والذاكرين؛ لأنّها تذكر العباد بخالقهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص، وماله عليهم من حق العبادة، وتذكرهم بنعمه عليهم، وواجب شكره، وتذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه، لا يستغنون عنه نَفَسًا واحدًا، وتذكرهم بأسه، وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله، وتذكرهم بثوابه وعقابه، وتذكرهم ما فيه صلاح اعتقادهم، وطاعة ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه، وتذكرهم بأوامر ربهم ونواهيه، وحدوده، وشرائعه، وأحكامه القدرية والشرعية، وتذكرهم بالمبدأ والمعاد، وتذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه، وتذكرهم بنفوسهم، وأحوالها، وآفاتها، وما تكمل به، وتذكرهم بعدوهم، وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم، وبالجملة فهي تذكر العباد بمصالحهم وما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم وما به تكون

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٧١٢) .

سعادة الدارين[(١)]؛ لأنّها نابعة من الذكر الحكيم، وهي تذكر ما جاء فيه، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩-٧٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٧].

سادسًا: هدايات ميسرة: وهي هدايات مع استقامتها، وحكمتها، وبركتها، وبالغ أثرها، ميسرة، سهلة الفهم، شديدة التعلق بالقلب، قوية التأثير على النفس؛ لأنّها مأخوذة من كتاب وصف باليسر في كل ما يتعلق به، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]، وهذه الآية كررها الله تعالى في سورة واحدة أربع مرات.

قال الرازي رحمه الله: " سهلناه؛ للاتعاظ، حيث أتينا فيه بكل حكمة .. وجعلناه بحيث يعلق بالقلوب، ويستلذ سماعه، ومن لا يفهم يتفهمه، ولا يسأم من سمعه وفهمه، ولا يقول: قد علمت فلا أسمعه؛ بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلمًا "[(٢)].

وإلى غير ذلك من الصفات الكثيرة، التي يمكن أن توصف بها الهدايات القرآنية، ومن ذلك: أنها فصل ليس فيها هزل، وهي نور، وفرقان، وروح،

---

(١) ينظر: بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٥٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٩١٢)، والتحرير والتنوير (١٥/ ١٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٣٠٠).

وشفاء، ورحمة، وبصائر، وبيان، وعلم، وصدق، وحق، وعدل، وبشرى، وهي خير الهدى .

المطلب الثالث: غايات الهدايات القرآنية وأهدافها:

مما يدلّ على أهميّة الهدايات القرآنية ومنزلتها أنّ أهداف استخراجها وذكرها عظيمة، وغاياتها شريفة، من ذلك:

أولًا: إخراج الناس من الظلمات إلى النور:

من أهداف الهدايات القرآنية العظيمة إخراج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الكفر والشرك والجهل والضلال والمعصية إلى نور الإيمان والعلم والهدى والطاعة، ومن ظلمات الخرافة والتيه، والغواية، والظلم، والتفرق والعداء، والضنك إلى نور اليقين، والحق، والرشد، والعدل، والمحبة ، والأمن، والسعادة الفردية والجماعية؛ لأن ذلك واحدًا من أعظم أهداف نزول هذا الكتاب المجيد، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[إبراهيم:١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦].

قال ابن جرير رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾: " لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفر إلى نور الايمان وضيائه، وتبصر به أهل الجهل والعمى سبل الرشاد والهدى "(١) .

وقال الماوردي رحمه الله: " فيه أربعة أوجه: أحدها: من الشك إلى اليقين، الثاني: من البدعة إلى السنّة، الثالث: من الضلالة إلى الهدى، الرابع: من الكفر إلى الإيمان "(٢) .

وقال الشوكاني رحمه الله: " ومعنى ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة، إلى نور الإيمان والعلم والهداية، جعل الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور، على طريق الاستعارة، واللام في ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ للغرض والغاية، والتعريف في ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ للجنس، والمعنى: أنه ﷺ يخرج بالكتاب، المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع، مما كانوا فيه من الظلمات، إلى ما صاروا إليه من النور، وقيل: إنّ الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنة، وقيل: من الشك إلى اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور "(٣) .

وقال ابن عاشور رحمه الله: " وإسناد الإخراج إلى النبي ﷺ؛ لأنه يبلغ هذا الكتاب، المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان، وإظهار فساد الشرك

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٦٧) .

(٢) النكت والعيون (٣/ ١٢٠) .

(٣) فتح القدير (٤/ ١٧٧) .

والكفر، وهو مع التبليغ يبين للناس، ويقرب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنذر والبشارة، وإذ قد أسند الإخراج إليه في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه؛ عُلِم أنّ إخراجه إياهم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزل، أي: بما يشتمل عليه من معاني الهداية، وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات؛ دلّ على أن الهداية هي مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله، ومن ضلّ فبإيثار الضال هوى نفسه على دلائل الإرشاد، وأمرُ الله لا يكون إلا لحِكم ومصالح بعضها أكبر من بعض "[1].

ثانيًا: هداية العباد للتي هي أقوم:

من أهداف الهدايات القرآنية التي نص الله عليها في كتابه، هداية العباد للتي هي أقوم، في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، وسائر الأمور، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩]، فطريقته في الهداية هي خير الطرق وأرشدها، وأحكامه وآدابه هي أقوم الأحكام والآداب وأعدلها، وأصلحها للعباد والبلاد.

قال الشنقيطي رحمه الله: " ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جلَّ وعلا، ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي: الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب .. وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٠).

القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكما ؛ لأتينا على جميع القرآن العظي ؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة "[1].

ولذا قال تعالى حكاية عن الجن لما سمعته: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الأحقاف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١ – ٢]، فغايته الهدى لكل خير، والعاصمة من كل ضلالة، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، وقد قال النبي ﷺ: " كِتَابُ اللهَّ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ "[2].

ثالثًا: تحقيق الشفاء لأمراض الفرد والجماعة:

من أهداف الهدايات القرآنية تحقيق الشفاء الكامل لأمراض الأمة وعللها، خاصة أمراض الكفر، والنفاق، والريب، والجهل، والضلال، والمعصية، وكل خلل ونقص يلحق بالفرد والجماعة من العقائد الفاسدة، والأفكار المنحرفة، والأعمال الضارة، والأخلاق الذميمة، وما في النفوس من هوى، وشح، وحسد، وغل، وغيرها، بل هو شفاء حتى للأبدان من أسقامها الحسية ببركته،

---

(١) أضواء البيان (١٨/ ٢٧) .

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: مِنْ فَضَائِلِ عَلِيّ رضي الله عنه، برقم: (٦٣٨٠) .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢] .

قال الرازي رحمه الله: " ولفظة (من) ها هنا ليست للتبعيض، بل هي للجنس، كقوله: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾[الحج: ٣٠]، والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء، فجميع القرآن شفاء للمؤمنين، واعلم أنّ القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمانية، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر؛ وذلك لأنّ الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة .

أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادًا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني .

وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض، فثبت أنّ القرآن شفاء من جميع الأمراض

الروحانية، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرًا من الأمراض "[١] .

وقال ابن عاشور رحمه الله: " والشفاء حقيقته زوال الداء، ويستعمل مجازًا في زوال ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع من العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة، والأخلاق الذميمة تشبيهًا له ببرء السقم .. والمعنى: أنّ القرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين؛ لأن كل آية من القرآن من أمره ونهيه، ومواعظه، وقصصه، وأمثاله، ووعده ووعيده، كل آية من ذلك مشتملة على هَديٍ وصلاحِ حالٍ للمؤمنين المتبعينَه "[٢] .

وقال ابن القيم رحمه الله: " فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم، ولا أنفع ، ولا أعظم ، ولا أنجع ، في إزالة الداء ، من القرآن "[٣] .

ففي القرآن الكريم شفاء لكل ما تعانيه الأمة من أمراضها وآلامها، ففي القرآن " شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب بالله، فيسكن، ويطمئن، ويستشعر الحماية والأمن؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة؛ والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين، وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس، والطمع والحسد، ونزغات الشيطان .. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١١٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٦٥) .

(٣) التفسير القيم (٢/ ٣١) .

إلى التحطم، والبلى والانهيار، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين، وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير، فهو يعصم العقل من الشطط، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط، يجعل نشاطه منتجًا ومأمونًا، ويعصمه من الشطط والزلل، وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط، فيحفظه سليما معافى، ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين، وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها، فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي، وعدالته الشاملة، في سلامة وأمن وطمأنينة، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين "[١] .

فالقرآن الكريم أنزله الله تبارك وتعالى؛ لأهداف عظيمة، وغايات نبيلة، تمثلت في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن طرق الانحراف والشقاء، إلى سبيل الهدى والسعادة والرحمة، وجاء القرآن الكريم ليكون بلسمًا شافيًا للأُمة، في كل أمراضها وعللها، ولما يحقق خيرها، ووحدتها، وعزتها، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]، ومن هنا فقد جمعت هداياته كل خير، ونهت عن كل شر، ودلت إلى كل نفع، ومن وفق إليها فقد اختصه الله برحمته، وهداه إلى طريق جنته، وأبعد عنه الضلالة، والشقاء، وكتب له حياة السعداء .

---

(١) في ظلال القران (٧/ ٧٣) .

رابعًا: سدّ حاجات الأمة إلى الهدايات القرآنية:

الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها في حاجة شديدة إلى الهدايات القرآنية، فإن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلًا أو آجلًا مفتقر إلى الهدايات القرآنية، ومستند عليها، فهي هدايات لا يستغني عنها مهتد لمعاشه ومعاده، لازمة للمؤمن في حياته لزوم الهواء والماء، فهي التي تضع العباد في طريق الخير، وتكملهم في كل وقت وحين، إلى ما يحقق سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله فيه " كل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله "[(١)]، فهي التي تخرج من الظلمات إلى النور، وهي التي تبين الحلال والحرام، وهي التي تهدي إلى طريق الجنة، وتبعد عن طريق النار، وهي التي تحذر عن كل ما يضر، وتحض على كل ما ينفع، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٤ – ١٧٥]، وهي التي تهدي إلى الحق عند الاختلاف، قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:٢١٣]، وهي التي تعصم الأمة عند

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١٢) .

الفتن، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٥]، وهي التي توحد كلمتهم، وتنزع العداء من بينهم، وتجعلهم في اتفاق، ووئام، وتعاون، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

وهي التي توضح العقيدة السليمة التي توافق الفطرة والعقل السليم، وهي التي تبين التشريعات التي تحقق العدل والامن والاستقرار، وهي التي تهدي للآداب التي تُرقي الأمم والشعوب، وهي التي تقود الحياة كلها للتي هي أقوم من كل المترديات التي تخسف بالأمم والشعوب، وهي العلم الشافي من كل جهل وجاهلية، وهي الحق العاصم من كل هوى وفتنة للنفوس، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧]، وهي الشفاء من كل علة ومرض للفرد والجماعة، وهي النور الذي " أنزله الله إلى أرضه؛ ليستضاء به، فيعلم في ضوئه الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، والرشد من الغي "(١)، وفق شمولية في المنهج، وواقعية في التناول، وعمق في المعالجة، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] .

---

(١) أضواء البيان (٥٠ / ٣٤) .

فإذا علمت أنّ هذه الهدايات هدى لكل مهتد في الأرض، وشفاء لكل علة تلحق بالخلق، ونور للبصائر بعد عماها، يستضاء به في كل ظلمة، فكيف ترضى لنفسك البعد عن الهدى والشفاء والتبصرة، وسبيل السعادة التي لا تنال إلا بالاهتداء بهديه، والتزام بما جاء به، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو أمن الأرواح بعد خوفها، قال تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

فالحاجة إلى الهدايات القرآنية لازمة لكل صلاح وإصلاح يقع في الأرض في العقيدة والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وسائر جوانب الحياة، فهي سبب الأمن، ومسلك الهدى، ونور القلب عند العمى، وأنسه عند الوحشة .

المطلب الرابع: عظيم أثر الهدايات القرآنية:

ومما يدل على أهمية الهدايات القرآنية عظيم أثرها، وعراقة نفعها، وينقسم هذا الأثر إلى قسمين، أثر على الفرد، وأثر على الجماعة، وإليك الحديث عن كل قسم هنا باختصار، وسوف يأتي التفصيل بصورة أوسع في المطلب الأخير من هذا البحث:

أ/ أثر الهدايات القرآنية على الفرد:

الهدايات القرآنية هي التي تسدد أقوال من اتبعوها، وتقوِّم عملهم، وتهدي عقولهم، وترتب حياتهم بما يحقق أمنهم وسعادتهم، كما وعد الله تعالى في قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "تَضَمَّنَ الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة"[(١)].

وقال أبو حيان رحمه الله: " فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه "[(٢)]، وقال تعالى في تحقيق الأمن والسلامة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٣٨٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٠٩).

فالهدايات القرآنية هي التي صححت عقائد أفراد الأمة من الشرك إلى التوحيد، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، وهي التي غيرت نفوسهم، وأصلحت أحوالهم، من الجهل إلى العلم، ومن الباطل إلى الحق، ومن الظلام إلى النور، ومن الذل إلى العز، ومن الموت إلى الحياة، ومن التيه إلى الهدى، ومن الغفلة إلى التذكر، ومن الضيق إلى السعة، ومن الخوف إلى الأمن، وهي التي حملتهم إلى العبادات الحقة، وأكسبتهم الآداب، والمكارم الفاضلة، وزكت نفوسهم، وطهرتها من الدنس والرذائل، وجعلتهم رحمة للعالمين، فنقلتهم من الكذب إلى الصدق، ومن الظلم إلى العدل، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكِبْرِ إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن العقوق إلى البر، وحملتهم إلى كل خير وكمال، وتحمل أفراد الإنسانية في كل وقت لكل خير وكمال؛ لأنها خير الهدى .

قال ابن تيمية رحمه الله: " وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق "[(١)] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٧٥) .

ب/ أثر الهدايات القرآنية على الجماعة:

الهدايات القرآنية هي التي حولت الجزيرة العربية من عبادة الأصنام إلى عبادة الرحمن، ومن وأد البنات إلى رحمة الأنام، ومن التفرق والشتات إلى الوحدة والوئام، ومن الضعف والضياع والهوان إلى القوة والعزة والرفعة بين العباد، كما قال تعالى ممتنًا عليهم: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٣] .

وكما جاء عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلّم قَالَتْ: وهي تروي ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما سأله النجاشي بقوله: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِى فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلاَ فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ ؟، فَقَالَ لَهُ جعفر: " أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَه، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ، مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ

فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ الله، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ الله مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١]، قَالَتْ: فَبَكَى وَالله النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ، حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلاَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالله وَالَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَوَاللهَّ لاَ أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلاَ أُكَادُ"(١) .

فقد أثر هذا الكتاب على مسيرة الإنسانية في ماضيها وحاضرها بصورة عزَّ له مثيل ونظير .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند بإسناد حسن، برقم: (١٧٤٠)، والطبراني في المعجم الكبير برقم: (٧٨٧١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٤): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع .

قال الباقلاني رحمه الله في أثر القرآن في العباد والبلاد: " ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض أنواره، وجلل الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقبل في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق، ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علو جلالته، أو يتفكر في حكمته؛ لكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى:٥٢)"[1]، وهي نظمت حياتهم على التشريعات الدقيقة الشاملة العادلة، ووحدتهم وألفت بينهم بعد ما كان بينهم من تباغض وتهاجر وتقاطع فاصبحوا بنعمته إخوانًا، وبفضله نصرًا وأعوانًا.

فالهدايات القرآنية روح تحيي، ونور تهدي، وحكم تسدد، جمعت كل صنوف العلم والحكمة للفرد والجماعة، وهدت لأعظم ما في الوجود من مثل وأخلاق ترقي الإنسانية، وتحقق لها الشفاء الكامل من عللها، مما كان لها أبلغ الأثر في تهذيب النفوس وإصلاحها، لذا قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت:٥١].

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٩٨).

وإذا كانت الهدايات القرآنية هي التي أحدثت ذلك الأثر العظيم في تاريخ الأمة، فهي قادرة على إحداثه في أي وقت، لو صدقت النيات والعزائم للرجوع إليها، وسيجدون كل ما يبحثون عنه في كل مشكلاتهم، وأسباب قوتهم وعزتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٦]، فهو نور وهدى، وروح وشفاء، في كل زمان ومكان ؛ لأن الله جعله خالدًا؛ ليبقى أثره خالدًا .

المبحث الثالث

خصائص الهدايات القرآنية

إعداد

أ. د . طه عابدين طه حمد

خصائص الهدايات القرآنية

مدخل:

الهدايات القرآنية لها خصائص كثيرة تميزت واختصّت بها، من الصعب حصرها؛ لأنها نابعة من خصائص القرآن الذي أخذت منه، الذي تميز وتعدد في خصائصه وفضائله، وهذه الخصائص هي التي تجعل لهذه الهدايات القرآنية قيمتها الفريدة، ومكانتها العالية، وكانت سببًا في أن جعلت العلماء يفنون أعمارهم في تعلمها، واستنباطها، والعمل بها، والسعي لتعليمها للناس، ومهما تكلمنا عنها فلن نوفيها حقها؛ وذلك لصعوبة استيفاء كل خاصية منها؛ ولكن من أبرز خصائصها: أنّها ربّانية المصدر والغاية، وأنها تمثّل المقصد الأول للقرآن الكريم، وأنها عامة وشاملة، وأنها كاملة وتامة، وأنها غاية في الوضوح واليسر، وأنها خالدة ومتجددة، وأنها في أعلى درجات المثالية والواقعية، وسوف نكتفي هنا بالحديث عن كل خصِّيصة بما يبرزها لا بما يحتويها .

المطلب الأول: الهدايات ربّانية المصدر والغاية:

من خصائص الهدايات القرآنية أنّها ربّانية المصدر والغاية، قال تعالى في ربانية مصدرها: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء:١٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأنعام :١٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣]، قال البيضاوي رحمه الله: " الرسول أو الكتاب "(١).

فهي ليست حكمًا وإرشادات بشرية؛ بل هي هدايات ربّانية، منشؤها ومصدرها رب العالمين؛ لأنّها مستخرجة من كتاب الله الذي أنزله ليكون هدى ورحمة، ونورًا، وبشرى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف :٥٢]، وقال تعالى: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل:١ – ٢]، وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾[لقمان:١– ٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ٨٨] .

---

(١) أنوار التنزيل (٣/ ٤٥١) .

وربّانيةُ مَصْدَرِها يجعلنا نعتقد بأنها عند التوصل إليها، وفق المنهج السليم، حق لا باطل فيها، وصدق لا كذب فيها، وعدل لا جور فيها، وهي أوفق معنى للفطرة، وأقبل خطاب للعقل، وأشرح هدي في الصدر، فما يستنبط من هدايات القرآن مثلاً في أخباره لا يتعارض مع التاريخ الماضي، أو حقائق الواقع، أو مع ما يكتشفه العلم في المستقبل؛ بل اكتشافها هي بينات أخرى على ربانيتها، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣] .

قال ابن القيم رحمه الله: " فإنّه سبحانه أخبر، وخبره الصدق، وقوله الحق، أنه لا بد أن يُرِي العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أنّ الوحي الذي بلغته رسله حقٌّ "(١) .

وقال الشنقيطي رحمه الله: " فبيّن أنّه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد ﷺ حق "(٢) .

فنحن نؤمن بلا ريب أنّ كل ما أخبر الله به في كتابه عن أخبار الأمم، ومجاهل الكون في السماء والأرض والجبال والبحار وغيرها، أو مجاهل النفس البشرية، مما يتعلق بخلقها، أنّه صدق وحق، ليس للعلم إلا أن يبينها ويصدقها، وحاشاه

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٦٦) .

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٧٦) .

أن يكذبها ويردها، أو يقول بنقيضها، لأنّ الذي قالها وأنزلها هو خالق كل شيء، وعليم بكل شيء، وشهيد على كل شيء .

كما أنّ ربّانية مصدر الهدايات تجعل ما يؤخذ منها في العقيدة، والعبادة والأخلاق، وغيرها، هو الحق الذي يجب أن يعتقده المسلم، ويسير عليه، ويستدل بها على صحة منهجه، وهي التي تجعل إقبال المسلم لتعلمها والعمل بها، وجهته التي يتوجه إليها في سائر حياته؛ ليأخذ منها معالم طريقه، وخطى هديه، حتى لا يضل ولا يشقى، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] .

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: " والمعنى أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتّبع كتاب الله، وامتثل أوامره، وانتهى عن نواهيه، نجا من الضلال ومن عقابه "(١) .

وقال أبو عبد الله الرازي رحمه الله: " وهذه الآية تدل على أنّ المراد بالهدى الذي ذكره الله تعالى اتباع الأدلة، واتباعها لا يتكامل إلاّ بأن يستدل بها، وبأن يعمل بها، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى "(٢) .

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٠٩) .

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٢٠٧) .

فاتباع الأدلة هو أصل في الوصول للهدى، ومن جعل غيرها من الآراء والمذاهب وما قالته الفرق أصلًا يكون قد ضل ضلالًا مبينًا، وارتكب إثمًا عظيمًا.

والهدايات القرآنية كما هي ربّانية المصدر، كذلك هي ربّانية الغاية والوجهة، فكل هداية منها تربط العبد بربه، وتسدد خطاه على دربه، وتربط حياته بآخرته، وتجعل كل حركاته وسكناته متصلة بخالقه، كما قال تعالى مخاطبًا نبيّه بهذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦١ – ١٦٣].

قال ابن عطية رحمه الله: " الآية أمر من الله أن يعلن بأن مقصده في صلاته، وطاعته، من ذبيحة، وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته، إنما هو لله، وإرادة وجهه، وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة، ما يلزم المؤمنين التأسي به، حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله "[(١)].

وأنّ ما جاء في القرآن من هدايات تتعلق بالتشريعات والمعاملات الدنيوية هي لتخلص الإنسان من رواسب الهلع، والطمع، والظلم، والقتور، ونحوها، من أمراض تصيب كل نفس، لم تزكَّ بنور الوحي؛ ليكون ربانيًا في حياته،

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٣٣).

وليتطهر للقاء ربه، وليتحرّر من كل هوى وشهوة سببها حب الدنيا والركون إليها.

وهذه الربّانية في الهدايات القرآنية جعل فيها من التفرد والخصوصية ما لا تتوافر في غيرها، فربّانية المصدر جعل لها من الثقة بها، والاطمئنان إليها، وتعلّق القلب بها، واندفاعية العمل بما جاء فيها، مع اعتقاد كمال نفعها، وعظم أثرها ما لا يوجد في غيرها؛ لأنّ الذي أنزلها منزّه عن كل عيب ونقص، متّصف بكل كمال، عليم بما يصلح عباده في كل حال وزمان ومكان، قد أودع في كتابه كل ما تحتاجه النفس البشرية لسموّها ورفعتها، ليس فيها خلل يقوَّم، ولا نقص يكمَّل، كما أنّه ليس فيها أوهام أو خيالات، أو كذب أو ترهات؛ بل كل حرف وكلمة جاءت لتهدي وتنير درب العباد؛ لأنّها صبغة الله التي جاءت ليصطبغ بها العباد، ويعلموا من خلالها أين هم من الحق والصواب، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٧ – ١٣٨].

كما أن ربّانية وجهتها وغايتها جعلتها تسمو بالإنسانية بما لا يمكن أن تصل إليه بمداركها وطاقتها، فهي هدايات جاءت لتضيف للإنسان فوق مداركه، وتهديه بما لا يمكن أن يصل إليه بعقله المحدود، مهما كانت درجته ورتبته، قال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

﴿ صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[الشورى:٥٢-٥٣]، مما يجعل الذين يستنيرون بها أسعد الناس حظًّا في الدنيا والآخرة، ومن هنا اشتغل بها، وتكلّم فيها خيار الخلق من النبي ﷺ، وأصحابه الكرام، وفضلاء التابعين، وخيرة العلماء سهروا ليلهم من أجل معرفتها، وأفنوا أعمارهم في استخراجها؛ لأنّهم عرفوا قيمتها، من خلال يقينهم بمصدرها، والغاية العظمى التي من أجلها أنزلها البر الرحيم، والأثر العظيم المترتب على اتباعها، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه:٤٧]، وقال تعالى مبينًا عظمة الانتفاع بها: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[البقرة : ٢٦٩]، فالحكمة التي يترتب عليها هذا الخير الكثير، هو فهم القرآن ومعرفة هداياته، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم: " يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه ، وأمثاله "[١]، وعن قتادة: " الحكمة: الفقه في القرآن "[٢] .

---

(١) جامع البيان (٢/ ١٥٨٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣١)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٤٨) إلى ابن المنذر .

(٢) نفس المصدر، وعزاه السيوطي في الدرّ المنثور (١/ ٢٣٤٨) إلى عبد بن حميد .

المطلب الثاني: الهدايات هي المقصد الأول للقرآن الكريم:

من أبرز خصائص الهدايات القرآنيّة أنّها تمثل المقصد الأول من نزول القرآن الكريم؛ لأنّ الغاية منه هو الهداية للتي هي أقوم في سائر مناحي الحياة؛ ثم إنّ المقصدَ الأساس الذي صيغت ألفاظُ القرآن الكريم لأجلِهِ هو هداية الثقلين للإيمانِ الصحيح، والعملِ الصالح المستقيم؛ للوصولِ لحياةٍ طيبةٍ، ونفسٍ مطمئنة، وسعادة كاملة في الدارين، وهذا ما فهمته الجن بعد تدبرها وفهمها للقرآن، قال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ [الجن: ١ – ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣٠]؛ وذلك لأنّ القرآن نزل ليهدي للتي هي أقوم، في العقائد، والعبادات، والأخلاق وسائر الأمور، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، فمن تعلّم هدايته، وتمسّك بها هدي إلى الصراط المستقيم، وكان من المفلحين، قال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[المائدة:١٥–١٦] .

ولا يمكن الاهتداء بالقرآن إلا بعد معرفة ما فيه من هدايات في مقاصده العامة، وهداياته التفصيلية تكون بالوقوف مع كل آية وسورة، وكل موضوع ومصطلح قرآني، واستخراج ما فيه من أحكام، وحكم، وأسرار، وإرشادات،

ودلالات ثم العمل بها، ولا يكون ذلك إلا بعد إطالة النظر في آياته وسوره، ومعانيها القريبة والبعيدة، وما دلت عليه من خلال مفهومها ومنطوقها .

قال ابن تيمية رحمه الله: " والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين، -والله سبحانه أعلم- "(١) .

وقال القرطبي رحمه الله وهو يتحدّث عما ينبغي أن يتصف به حامل القرآن: " ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما قرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا "(٢) .

وقال ابنُ القيم رحمه الله: " فلا شيء أنفع للقلب من قراءةِ القرآنِ بالتدبرِ والتفكر؛ فإنه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرين وأحوالِ العاملين ومقاماتِ العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائرَ الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومة؛ والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءةِ القرآن بالتدبرِ لاشتغلوا بها عن

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٥) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١) .

كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكرٍ حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءةُ آيةٍ بتفكرٍ وتفهمٍ خيرٌ من قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبرٍ وتفهم، وأنفعُ للقلبِ وأدعى إلى حصولِ الإيمان وتذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادةَ السلفِ يرددُ أحدُهم الآية إلى الصباحِ، وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قامَ بآيةٍ يرددها حتى الصباح وهي قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨][1]، فقراءةُ القرآنِ بالتفكرِ هي أصلُ صلاح القلب "[2] .

فمن أعظم خصائص الهدايات القرآنية؛ أنّها توصل إلى الفهم الصحيح لهذا الدين، الذي يورث العمل المستقيم، ومن هنا جعلَ الله فهم هدايات كتابه من صفاتِ عباده، والإعراضَ عن فهمهِ من صفاتِ أعدائه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان:٧٣] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل، برقم: (١٣٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٤٩٠٤)، والحاكم في المستدرك ، برقم: (٨٧٩)، وقال: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة .

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧) .

وقال تعالى عن اليهود: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[البقرة:٧٨]، يعني يقرأون الكتاب دون علم بها فيه، ، قال قتادة: " لا يعلمون الكتاب ولا يدرون ما فيه "(١) .

وقال الشنقيطي رحمه الله: " أي: لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ دون إدراك معانيها "(٢) .

وقال الشيخ العثيمين: " أي: إلا قراءة بدون فهم للمعنى؛ ومن لم يفهم المعنى فهو في حكم من لا يعرف القراءة؛ لأنّه لا يستفيد شيئاً بقراءته "(٣) .

وقال ابن تيمية رحمه الله: " فإن الله ذمّ الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصله هو من البدع الباطلة، وذمّ الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن، ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه "(٤) .

وشبههم الله بالحمار يحمل أسفارًا، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة:٥] .

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٦٠) .

(٢) أضواء البيان (٣/ ٥٤) .

(٣) تفسير القرآن للعثيمين (٣/ ١٨٧) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٧٧) .

قال القرطبي رحمه الله: " وفي هذا تنبيه من الله ﷻ لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء "[١].

وكان من صفات الكفار عدم فقه كتابه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[الإسراء: ٤٥ – ٤٦]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[النساء:٧٨].

فمن أعظم خصائص الهدايات القرآنية أنّها تحقق المقصد الذي أنزل القرآن الكريم من أجله، وهو من أجلِّ المقاصد؛ لأنّ القراءة دون فهم لا توصل للمطلوب، والعمل دون هدي القرآن الذي يكون من خلال فهمه ضلال مبين .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٦٤) .

المطلب الثالث: خاصيّة العموم في الهدايات القرآنية:

من خصائص الهدايات القرآنية اتسامها بالعموم في أصلها، فهي هدايات للناس جميعًا، ليتعلموها ويعملوا بها، وتشمل عموم الزمان منذ بعثة النبيﷺ إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم:٥٢]، فهي ليست كهدايات الكتب السابقة التي كانت هداياتها لفترة محددة، وزمن مخصوص، ينتهي أثرها ونورها وهديها بانتهائه، كما جاء عن جابر بن عَبْدِ الله رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "(١) .

وكما أنّ هداياتها شاملة لكل العصور الآتية، فهي قد تضمنت كل هدايات الكتب السابقة؛ لأنّ القرآن جاء مصدقًا لهدايات تلك الكتب مما كان فيها من الحق، ومهيمنًا عليها بزيادة الهدى، وإبطال ما دخلها من التحريف والباطل، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] .

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب الصَّلاة عَلَى النُّفَسَاءِ وَسُنَّتِهَا، برقم: (٣٣٥) .

قال ابن عاشور رحمه الله: " وقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنّسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيّد لبعض ما في الشّرائع مُقرّر له من كلّ حكم كانت مصلحته كلّيّة لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مُصَدّق، أي مُحقّق ومقرّر، وهو أيضًا مبطل لبعض ما في الشّرائع السالفة وناسخ لأحكام كثيرة من كلّ ما كانت مصالحه جزئيّة مؤقّتة مراعى فيها أحوال أقوام خاصّة "[١]، وقال أيضًا: " كونُه مصدقاً للكتب السالفة، أي: مبيّنًا للصادق منها ومميزًا له عما زيد فيها وأسيء من تأويلها "[٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: " وهكذا القرآن، فإنه قرّر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله، وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بيانًا وتفصيلًا، وبيّن الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم، ورسالة المرسلين، وقرّر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل كلهم، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبيّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها، وبيّن ما حرف منها وبدل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبيّن أيضًا ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها، وشاهد بكذب ما حُرِّفَ منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره

(١) التحرير والتنوير (٦ / ٢٢١) .

(٢) المصدر السابق (١١/ ١٦٩) .

الله، ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات "(١)؛ ولذا قال تعالى عن هيمنته: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١].

والهدايات القرآنيّة كما هي تشمل الزمان باختلاف قرونه وأجياله تشمل عموم المكان مع تنوعه واختلافه، ليست هدايات لأم القرى فحسب؛ بل هي هدايات لشتى بقاع الأرض في كل عصر ومصر، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام:٩٢]، وقد جاء عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: " ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني بـ (أم القرى): مكة، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾: من القرى إلى المشرق والمغرب "، وفي رواية: " ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾: الأرض كلها "(٢).

وقال ابن عطية رحمه الله: " ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾: يريد أهل سائر الأرض "(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٤).

(٢) جامع البيان (١١/ ٥٣١).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨٠).

وقال القرطبي رحمه الله : "﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: جميع الآفاق "[(١)]، وهذا هو قول الجمهور، وهو الموافق لما دلّ عليه القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]، فالقرآن هداياته لجميع الناس مع اختلاف زمانهم، وتعدد بلدانهم، وتباين عصورهم، وتنوع ثقافاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتنوع قضاياهم، فهي ليست لزمان دون آخر، ولا لجنس دون آخر، ولا لوطن دون آخر، ولا لطبقة دون أخرى، ولا لطائفة دون أخرى، ولا لجيل دون آخر .

والهدايات القرآنية مع عمومها اتسمت بالشمول لكل مراحل الإنسان، طفلًا، وكهلًا، وشيخًا؛ بل حيًّا وميتًّا، فهي كما أنها استوعبت الزمان والمكان، استوعبت قضايا الحياة، وكل حاجات النفس البشرية الظاهرة والباطنة، بالإضافة إلى حاجاتها لجوانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وجوانب الحكم، والسياسة، والاقتصاد، وغيرها؛ لأنّ القرآن جاء لينظم جميع شؤون الحياة، ويربط الدنيا كلها بالآخرة، بل أي اتجاه يتوجه إليه الإنسان، يجد هدايات القرآن تنتظره؛ لتوجهه للتي هي أقوم، وليس له إلّا أن يبحث عن الهداية ليعمل بها، ولا يجوز له التحاكم الجزئي لهدايات القرآن، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٨) .

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[البقرة: ٨٥] .

فهي هدايات تشمل الحياة كلها فتغطيها، وتعمّ الإنسانية برمتها فتظلها، وهي عامة لكل الناس في كل زمان ومكان، وشاملة لكل حاجات الإنسان، روحه وعقله، وشؤونه الخاصة والعامة، فهي تهديه في عقيدته، وفي عباداته، وفي أخلاقه ومعاملاته، كما أنها تهديه في سلمه وحربه، بل تهديه في كل قوله وفعله، وحركته وسكونه، وليله ونهاره، ومعاشه ومعاده، سواء أكان حاكمًا أم محكومًا، كبيرًا أم صغيرًا، ذكرًا كان أم انثى، وهي مع عمومها وشمولها، قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان، دون حرج .

المطلب الرابع: خاصية التمام والكمال في الهدايات القرآنية:

إنَّ هدايات القرآن الكريم قد بلغت الغاية في التمام والكمال، فهي تامة في بيانها، وحُجَجِها، ودلائلها، تامة في أحكامها، وأوامرها، وهديها، كاملة في كل غرض مطلوب، تفي بكل حاجات البشر في كل زمان ومكان، وفي أرقى عصورها، وفاء لا نظير له في أي كتاب آخر، في أمور الدين والدنيا، فما من أمر يحتاجه الناس في دينهم، عقيدة، وعبادة، وشريعة، وأخلاقًا، أو دنياهم، سياسة، واقتصادًا، واجتماعًا، وغيرها، من أمورهم الفردية أو الجماعية، إلّا في القرآن هديه وبيانه، سواء بالنص عليه، أو بالإشارة والإيماء إليه، بصورة كافية وافية .

ومن هنا كان من أبرز خصائص الهدايات القرآنية التمام والكمال الذي جعلها وافية بمطالب الإنسانية، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الأنعام :١١٥] .

قال الرازي رحمه الله: " اعلم أنّ هذه الآية تدل على أنّ كلمة الله تعالى موصوفة بصفات كثيرة، فالصفة الأولى: كونها تامة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وفي تفسير هذا التمام وجوه الأول: ما ذكرنا أنها كافية وافية، بكونها معجزة دالة على صدق محمد ﷺ، والثاني: أنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى قيام القيامة، عملًا وعلمًا "[(١)] .

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣١) .

وقال ابن عاشور رحمه الله: " ومعنى تمامها أنّ كلّ غرض جاء في القرآن فقد جاء وافيًا بما يتطلّبه القاصد منه "(١).

وقال السعدي رحمه الله: " فلكمالها استحال عليها التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة لعرض لها ذلك، أو شيء منه "(٢).

وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨]، قال القرطبي: " أي في القرآن: ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ، أو من الإجماع، أومن القياس الذى ثبت بنص الكتاب؛ قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩]، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٤٤]، وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[الحشر: ٧]، فأجمل في هذه الآية، وآية (النَّحْلِ)، ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنّه ما فرّط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلًا وإما تأصيلًا "(٣).

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة:٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٧٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٢٠).

قال ابن القيم رحمه الله: " وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام؛ إيذانا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم، بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار، وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به، المقيمون له، وأضاف النعمة اليه، إذ هو وليها ومسديها، والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقا، وهم قابلوها، وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خُصُّوا به دون الأمم "[1] .

وقال ابن عاشور رحمه الله: " قوله: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ المراد بها: إكمال الكليات، التي منها الأمر بالاستنباط والقياس، قال الشاطبي: لأنّه على اختصاره جامع، والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جامعًا لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية "[2] .

فهي هدايات تامة في غرضها، كاملة في عناصرها، شافية في معالجاتها، تخاطب العقل، فتقنعه بخطاب متكامل، وتهذب النفس، فتزكيها بهدايات شافية كافية، فتمامها وكمالها يفيد بلوغها وشمولها في كل جانب، أحسن ما يكون، في بلوغ ما يراد منها فيما يحقق السعادة والكمال .

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

وهي هدايات كاملة ليس فيها نقص يكمل، أو عوج يقوم، أو ظلم يعدل؛ بل هي هدايات تامة في بيان الأمور، كاملة في الهدي المطلوب؛ وذلك لأنّ الذي أنزلها له الكمال المطلق، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأقواله، وفيما يشرعه لعباده من أحكام، ويهديهم إليه من هدايات، وقد " جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب، وخاتمها، وأشملها، وأعظمها، وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا، وحاكما عليها كلها "(١) .

المطلب الخامس :خاصية الوضوح واليسر للهدايات القرآنية:

من خصائص الهدايات القرآنية أنّهَا واضحة الدلالة على مراد الله، ميسر على كل الناس فهمها؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم جاء في صورة غاية في البيان والوضوح، واضح في أحكامه وحكمه، بين في هديه، رائع في محجته، مشتمل على أبلغ الكلام في البيان، وأبين الأساليب في الإيضاح، وأيسر الطرق في البيان، وأقوى الحجج في الإقناع، يصور لك المعقول في صورة حسية تراها العيون، وينقل لك الغائب فيجعله بين يديك حاضرًا، بل يجسد لك المعاني من خلال ألفاظه حتى كأنك تراها، ليس فيها شبهة لمرتاب، وقد تكلّم الله عن بيان كتابه في عشرات الآيات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ إِنَّآ

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٨٨) .

﴿ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ [النور: ٣٤].

قال السعدي رحمه الله: " تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق قد بلغت مبلغًا عظيمًا، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر "(١).

وقال تعالى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ١-٢]، فهو كتاب بيِّن ومبين.

قال ابن عاشور رحمه الله: " والمبين: البالغ الغاية في البيان، أي الوضوح كأنه لقوة بيانه قد صار يبين غيره "(٢).

ومن بيانه العظيم قد فصّل الله فيه كل شيء تفصيلًا، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام :١١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(فصلت:١-٣)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات:٥٠].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٥).

قال أبو السعود رحمه الله: " فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في البيان "(١).

وقال الشيخ طنطاوي رحمه الله: " أي: إذا كانوا لم يؤمنوا بهذا القرآن المشتمل على أسمى أنواع الهدايات، وأحكمها، وأوضحها .. فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون؟ "(٢).

والقرآن الكريم مع أنه بلغ في البلاغة أعلاها، وفي السمو منتهاه، حتى عظم جنابه بها أعجز الخلق أن يأتوا بمثله، إلا أنّه في الوقت نفسه يُسِّرَ في هديه للخلق في البيان والوضوح، حتى شمل العامة والخاصة، بما لا يتوفر في غيره، فالعامة يجدون ما يهديهم، وتسكب في هداياته أعينهم، والخاصة ينظرون في هداياته، فيجدون ما يبهر عقولهم، وتقشعر منه جلودهم، كل يجد فيه عزه ومطلبه، ويدرك روعته وحلاوته وحسنه، ويرى فيه من حجته وبيانه ما يغنيه، فهو بكلام واحد، خاطب العلماء والعامة، كما أنه خاطب الملأ والاتباع، والصغير والكبير، وهذا واحد من خصائص القرآن دون سائر الكلام.

قال الشيخ الزرقاني رحمه الله: " إرضاؤه العامة والخاصة: ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامَّة، أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم، ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة، إذا قرؤوه، أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته ،

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٩).

(٢) تفسير الوسيط (ص: ٤٤١٣).

وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام، لا في إشراق ديباجته، ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء؛ لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة؛ لأنهم لا يفهمونه، وإن أرضى العامة؛ لجنوحه إلى التصريح، والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة؛ لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم، ومشاربهم، وعقولهم"[1].

وقد تكلّم الله تعالى عن يسر هذا الكتاب في عدد من الآيات، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[مريم: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨]، وكرّر ذلك أربع مرات في سورة القمر، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧] فهو كتاب ميسّر للتلاوة، والهداية، والعمل .

قال السعدي رحمه الله: " أي: ولقد يسّرنا وسهّلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظًا، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيرًا، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون، من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة،

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٥) .

والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعِينَ عليه .

قال بعض السلف- رحمهم الله- عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾"(١) .

فإذا كان القرآن واضح الدلالة، بيّن الحجة، مفصل الأحكام، ميسر الهدي، كان من الطبيعي أن يكون علم الهدايات متسمًا بهذه الخاصية، خاصية الوضوح واليسر، وعدم الخفاء، في التوجيه للمدلول من خلال الآيات والسور، ولهذا دائما ما يقدم العلماء الهدايات بصورة واضحة، مرتّبة، بيّنة، ميسّرة؛ لأنّها تمثل خلاصة ما توصلوا إليه من فهم القرآن، بصورة تقرّب هداياته لجميع الناس .

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٢٥) .

المطلب السادس: خاصيّة الخلود والتجدد في الهدايات القرآنية:

من خصائص الهدايات القرآنية التي يدركها كل مختص، أنها خالدة بخلود الكتاب المجيد، دائمة النفع؛ لأنّ الله أنزل كتابه، وحفظه من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، لتبقى هداياته، وحجته، مستمرة للعالمين على مرّ الزمان، ولم يتمّ مثل هذا الحفظ لكتاب غيره، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩] .

قال الشنقيطي رحمه الله: " بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنّه هو الذي نزل القرآن العظيم؛ وأنّه حافظ له من أن يزاد فيه أو ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدل "[١] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢] .

قال السعدي رحمه الله: " حفظ الله ألفاظه من التغيير فيها، والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقيّض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله، ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أنّ الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوًّا يجتاحهم "[٢] .

---

(١) أضواء البيان (٨/١٦) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٢٩) .

وهو كتاب مع خلوده في نفسه وهديه، متجدّد في عطائه، لا يبلى، ولا يضمر في معانيه، كل ما كرّرته الألسن، وفكّرت فيه العقول، وجدت فيه من المعاني والهدايات ما يسحر العقول، فهداياته دائمة النفع، لا يستغنى عنها بحال، بل الحاجة إليها مستمرة، وتزداد في كل حين، لا يمكن للزمان أن يتجاوزها أو يأتي بخير منها؛ لأنّه ما أمر بشيء يمكن الاستغناء عنه، ولا نهى عن شيء لا يحسن النهي عنه؛ ولذلك فهو كتاب خالد على مر الزمان، متجدد في عطائه مع تقلب الليالي والأيام، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد؛ فكلما أكثر الإنسان من قراءته، وأطال النظر في تدبره، خرج بهدايات جديدة في الموضوع الواحد، دعك عن غيره، بل كلما نظرت فيه الأجيال تجددت معانيه عند كل جيل جديد .

قال الزرقاني رحمه الله: " نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختيارًا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار؛ وذلك في الألفاظ التي نمرّ بها على القرون والأجيال، منذ نزل القرآن إلى اليوم، فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحًا في أنّه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر، فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعا لحاجات الجميع، وافيًا تجارب الجميع ملائمًا لأذواق الجميع، متفقًا

ومعارف الجميع، مما يدلّ دلالةً واضحةً على أنّه كلام الله وحده أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا "[1].

فهو كتاب عجز الخلق أن يأتوا بمثله لفظًا أو معنى أو هدى، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور: ٣٤].

ولهذا مهما كتب العلماء واستنبطوا، سيظلّ القرآن محل نظر العلماء لاستنباط الجديد، فهي هدايات أخذت من كتاب كريم، نص الله تعالى على كرمه وبركته، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٥]،وهذه البركة حيث جعله الله بلغة هي أفصح لغات البشر، لا تنتهي فيها المعاني، مما جعل القرآن في كل يوم يعطي " عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديدًا، وهذا دليل على أن قائله حكيم، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة، وهذا هو معنى ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾؛ فكلّ كتاب له زمن محدود، وعصر محدود، وأمة محدودة، أما القرآن فهو يواجه من يوم أنّ أنزله الله إلى أن تقوم الساعة، قضايا متجددة، يضع لها حلولًا، والمهم أنّ القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشريات، وحضارتها، وارتقاءاتها في

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٧٢).

العقول؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائمًا، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة "[١].

(١) تفسير الشعراوي (ص: ٩٣٣).

المطلب السابع: خاصية المثالية والواقعية في الهدايات القرآنية:

من سمات الهدايات القرآنية المثالية، والواقعية، فهي هدايات مثالية؛ لأنها تهدي لأمثل وأقوم طريقة في الحياة، لا يوجد أفضل ولا أهدى لمصالح العباد منها، فهي تهدي إلى الحق، وإلى التي هي أقوم، وإلى الرشد، وإلى الصراط المستقيم، وإلى سبل السلام، قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦]، فهي تهدي الإنسان الذي ينشد الكمال الإنساني الممكن، ويحقق سعادته في نفسه وحياته .

وهي واقعية متوافقة مع حاجة الإنسان الفردية، والجماعية، والنفسية والفكرية، والمادية، والروحية، وفي الجوانب الإيمانية، والأخلاقية، والتعبدية، والأسرية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وفي جميع الاتجاهات، فحيثما كانت أحوال الإنسان من زواج أو طلاق، في سفر أو حضر، في سلم أو حرب وغيرها كانت هدايات القرآن توجهه وتهديه للحق والصواب .

وهي واقعية في تعاملها مع النفس البشرية، في أغوارها، وأحوالها المختلفة، في هلوعها، وكنودها، وقتورها، وعجولها، وقنوطها، بما يتوافق مع فطرة

الإنسان وعقله ونفسه، فهي هدايات تحاج العقل فتقنعه، وتخالط النفس فتملأها طمأنينةً وسرورًا.

وهي واقعية حيث إنها تلامس الواقع بما تتناوله من موضوعات لعقائد فاسدة قائمة، وعبادات ضالة، وأخلاقيات منحرفة، وقضايا اجتماعية وسياسية متكررة، فجاءت الهدايات القرآنية متوافقة مع ما هو ماثل في الواقع، من انحرافات تحتاج إلى معالجة بصورة متكررة، ليست من باب الترف الفكري، أو المثاليات التي لا وجود لها في عالم الواقع .

وهي هدايات واقعية من حيث أنها تتوافق مع طاقة الإنسان ووسعه في ظروفه، وأحواله المختلفة، في سفره وإقامته، ومرضه وعافيته، وقوته وضعفه، وشبابه وهرمه، وفرحه وكرهه، وحبّه وبغضه، في حالة تمثله بالفضائل، أو تلبسه بالرذائل، قال تعالى: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾[الطلاق: ٧] .

وهي هدايات مثالية وواقعية في طريقة عرضها الموضوعي، فقد تجد في السورة الواحدة موضوعات متنوعة، وأحيانًا قد تراها متباعدة؛ لكن بعد التأمل والنظر تجدها مجتمعة، ومتناسقة، ومتكاملة، تعطي العقل حقه والنفس حقها، وتخرج من موضوع لآخر، ومن هداية لأُخرى بصورة فوق طاقات العقول تصورها، وهي مع تباعدها وتداخلها تشكل وحدة موضوعية مترابطة، بل بعد التأمل والنظر تجد جميع هدايات السورة تتجه نحو مقاصد كلية متوافقة، يتعلّق

آخرها بأولها، وأولها بآخرها، وتترامى بجملتها إلى غرض واحد[(١)]،" كل ذلك بغير تكلف، ولا استعانة بأمر خارج من المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة، ولطف التمهيد في مطلع كل غرض، ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلًا، والمختلف مؤتلفًا "[(٢)]، فالسورة مع طولها أو قصرها، هي: " سلسلة واحدة من الفكر، تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات "[(٣)] .

وفي هذا يقول البقاعي رحمه الله: " السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها ، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها "[(٤)] .

ولذا فهي هدايات مرتبة في تناولها الموضوعي بوحي من الله تعالى، ومن تأمل في هدايات القرآن، وتعمق في معانيه، علم أنه لا يوجد كلام في تناسقه،

---

(١) ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، للفراهي (ص: ٤٦) .

(٢) النبأ العظيم، محمد دراز (ص: ١٥٥) .

(٣) المصدر السابق (ص: ١٥٧) .

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ١٤٩) .

وتكامله، ككلام الله تعالى، وهي هدايات متدرجة في طرحها في الموضوعات، من حيث تقديم الأولويات، والبدء بالأهم، والمنطقية في الحجج، وصدق الحق، إذ يقول: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١] .

فالهدايات القرآنية مثالية القيم، واقعية المعالجة، تسعى لهداية الإنسان، وإصلاحه، ورفعه إلى الصورة المثالية، بمنهج فريد في قيمه، فريد في واقعيته، حيث يراعي طاقة الإنسان ووسعه من جهة، وحاجاته الواقعية من جهة أخرى، وظروفه المختلفة من جهة ثالثة، ومن هنا شرع الرخصة، وأباح المحرم للضرورة، فهي هدايات مبنية على المثالية فيما تدعو إليه، وهي واقعية حيث راعت طاقات البشر، واختلاف أحوالهم دون حرج، ومثالية من حيث ما يقدم ويؤخر، ويذكر ويحذف، ونحو ذلك من جوانب يطول ذكرها .

الفصل الثاني

الهدايات القرآنيّة

الهدايات القرآنية، أنواعها، ومجالاتها، وحال الناس معها

ويشتمل على المباحث التالية:

* أنواع الهدايات القرآنيّة
* مجالات الهدايات القرآنيّة
* حال الناس مع الهدايات القرآنية

المبحث الأول

أنواع الهدايات القرآنية

إعداد

أ. د . طه عابدين طه حمد

أنواع الهدايات القرآنية

مدخل:

قد تنوعت تقسيمات العلماء للهدايات القرآنية، بين من قسمها قسمين(١)، ومن قسمها ثلاثة(٢)، ومنهم من قسمها أربعة أقسام، وبعد الاستقراء والتتبع، يرى الباحث أنّ الأنسب تقسيمها لأربعة أقسام؛ وذلك لأنّ هذا الذي اختاره

(١) قال القرطبي: " الهدى هُديان: هدى دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم .. وتفرد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق " . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٦٠)، وقسّمها الشنقيطي إلى هداية عامة وخاصة فقال: " الهدى يستعمل في القرآن استعمالين أحدهما عام والثاني خاص، أما الهدى العام فمعناه إبانة طريق الحق وإيضاح المحجة سواء سلكها المبين له أم لا .. وأما الهدى الخاص فهو تفضل الله بالتوفيق على العبد " . ينظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص:٢)، وقسّمها الشيخ العثيمين إلى هداية دلالة وتوفيق، فقال: " والهداية نوعان: هداية دلالة: وهذه عامة لكل أحد؛ فكل أحد قد بين الله له شريعته سواء وفِّق لاتباعها، أم لا؛ والثاني: هداية توفيق بأنّ يوفق الله العبد لاتباع الهدى " تفسير القرآن للعثيمين (٤/ ٣٤٢) .

(٢) بتقسيم الهداية إلى: الهداية العامة، وهداية الإرشاد، وهداية التوفيق باعتبار تعلقها بالدنيا، وعليها مدار التكليف .

عدد من العلماء[1]، وهو مستوعب لما جاء في القرآن بصورة كلية واضحة، وهنالك أنواع أخرى ذكرها بعض العلماء؛ ولكن عند التأمل والنظر نجدها داخلة ضمن بعض هذه الأنواع الأربعة، ومتفرعة عنها كما سنبين ذلك، وهي على النحو الآتي:

---

(١) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٥٣٩)، وبدائع الفوائد لابن قيم الجوزي (٣/ ٥٢)، وبصائر ذوى التمييز (ص: ١٦٣١)، والكليات لأبي البقاء (٢/ ٦١)، وتاج العروس (ص: ٨٦٦٢).

النوع الأول: الهداية العامة:

يطلق عليها بعض العلماء هداية الفطرة، وهداية الإلهام، والهداية الغريزية، والهداية الكونية، والهداية العامة، وقد جاءت في آيتين من كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه : ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣] .

قال ابن عطية رحمه الله: " وقوله تعالى : ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ عام لوجوه الهدايات، فقال الفرّاء: معناه هدى وأضل واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى، وقال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع، قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية "(١) .

وقال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: " وهدى عام لجميع الهدايات .. وهذه الأقوال محمولة على التمثيل لا على التخصيص "(٢) .

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: " والصواب من القول في ذلك عندنا، أنّ الله عمّ بقوله: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ الخبر عن هدايته خلقه، ولم يخصص من ذلك معنى دون

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٠) . وينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٨٥) .

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٤٤) .

معنى، وقد هداهم لسبيل الخير والشرّ، وهدى الذكور لمأتى الإناث، فالخبر على عمومه، حتى يأتي خبر تقوم به الحجة، دالٌّ على خصوصه "[١] .

ولما كانت الهداية هنا عامة، وأنواعها كثيرة، أطال العلماء في شرح بعض أنواعها، من باب التمثيل لا الحصر، انقل إليكم بعض هذه الأقوال .

قال القرطبي رحمه الله: " ﴿ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ أي: قدّر ووفّق لكل شكل شكله، ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ أي: أرشد، قال مجاهد: قدّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة، وعنه قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها، وقيل: قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسًا، ولمراعيهم إن كانوا وحشًا، وروي عن ابن عباس والسُّدّي ومقاتل والكلبي في قوله: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ قالوا: عَرَّف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى؛ كما قال في سورة (طه): ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي الذكر للأنثى، وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له، وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها .. وهدايات الإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه، ولا يحصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، والهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع، وشوط بطين[٢]، لا يحيط به وصف واصف؛ فسبحان ربي الأعلى، وقال السُّدّي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٨٥٩٠) .

(٢) البَطِينُ: العظيم البَطْنِ، والبَطِينُ: البعيد، وهو المراد هنا، ينظر: الصحاح في اللغة مادة " بطن " (١/ ٤٦) .

هداه للخروج من الرحم، وقال الفرّاء: أي: قدّر، فهدى وأضلّ؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] "(١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣]: " يتضمن أنّه قَدَّر ما سيكون للمخلوقات، وهداها إليه، علم ما يحتاج إليه الناس والدواب من الرزق، فخلق ذلك الرزق وسواه، وخلق الحيوان وسواه وهداه إلى ذلك الرزق، وهدى غيره من الأحياء أن يسوق إليه ذلك الرزق، وخلق الأرض، وقَدَّر حاجتها إلى المطر، وقَدَّر السحاب وما يحمله من المطر، وخلق ملائكة هداهم ليسوقوا ذلك السحاب إلى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره، وقَدَّر ما نبت بها من الرزق، وقَدَّر حاجة العباد إلى ذلك الرزق، وهداهم إلى ذلك الرزق، وهدى من يسوق ذلك الرزق إليهم .."(٢) .

وقال ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠]: " أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته، إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٧٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٤٠) .

واللسان للكلام، والأذن للإسماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه، وطلبه مراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين، وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا، ومن الشجر، ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها، لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه، والائتمام به، أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت، العجيبة الصنعة، المحكمة البناء، ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم، شهد له بأنّه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم "[(١)] .

وهذا النوع من الهداية من نعم الله العظيمة الشاهدة بربوبيّته، المستوجبة لألوهيته، وهي موجودة في كل مخلوق بحسب حاجته الضرورية، وأكملها وجودًا في الإنسان المكرم بين خلقه، المميز بالعقل .

قال ابن عاشور رحمه الله: " وعطْفُ قوله: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ على ﴿قَدَّرَ﴾ عطفُ المسبَّب على السبب، أي: فهدى كلَّ مقدر إلى ما قدر له، فهداية الإنسان، وأنواع جنسه من الحيوان، الذي له الإدراك والإرادة، هي هداية الإلهام، إلى كيفية استعمال ما قدَّر فيه من المقادير والقوى، فيما يناسب استعماله فيه، فكلما حصل شيء من آثار ذلك التقدير حصل بأثره الاهتداء إلى تنفيذه، والمعنى: قَدّر الأشياءَ كلها، فهداها إلى أداء وظائفها، كما قدّرها لها، فالله لما قدّر للإنسان أن يكون قابلًا

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٥٢) .

للنطق، والعِلم، والصناعة بما وَهَبَه من العقل، وآلات الجسد، هداهُ لاستعمال فكره لما يُحصِّل له ما خُلق له، ولَّما قَدر البقرةَ للدَّر، ألهمها الرَعْي ورِئْمانَ[١] ولدها؛ لِتَدرَّ بذلك للحالب، ولّما قدر النحل لإنتاج العسَل، ألهمها أن ترعى النَّور والثمار، وألهمها بناء الجِبْح[٢]، وخلاياه المسدسة التي تضع فيها العسل، ومن أجلِّ مظاهر التقدير والهداية، تقدير قوى التناسل للحيوان؛ لبقاء النوع، فمفعول (هَدَى) محذوف؛ لإفادة العموم، وهو عام مخصوص بما فيه قابلية الهَدْي، فهو مخصوص بذوات الإِدراك والإِرادة، وهي أنواع الحيوان، فإن الأنواع التي خلقها الله، وقدَّر نظامها، ولم يقدِّر لها الإِدراك، مثل: تقدير الإِثمار للشجر، وإنتاج الزريعة لتجدد الإِنبات، فذلك غير مراد من قوله: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ لأنّها مخلوقة ومقدّرة ولكنها غير مهدية لعدم صلاحها للاهتداء "[٣] .

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]: " أي: أعطى كل مخلوق خلقته اللائقة به، المناسبة لحاله، ثم بعد هذا الخلق هدى كل مخلوق لما خلق له؛ وهذا يشمل أنواع الهدايات كلها: فالحيوانات غير الإنسان هدى كل صنف منه إلى ما يناسبهم مما لا تتم حياته الحيوانية إلا به، من جلب المنافع الخاصة، ودفع المضار عن نفسه؛ وأما الإنسان

---

(١) أي: ترأم وتعطف بأنفها على ولدها؛ لتدر اللبن . ينظر: شرح الرضي على الكافية (٤/ ٤٠٦) والاشتقاق لابن دريد (ص: ١٦٥) .

(٢) الجَبْحُ، والجُبْحُ، والجِبْحُ: مَوْضِعُ تَعْسِيلِ النَّحْلِ في الجَبَلِ . ينظر: لسان العرب (٣/ ١١) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٧) .

فهداه الله هذه الهداية، واختصه بهدايات أخر، استكمل بها دينه ودنياه إذا استعملها كلها، وأما إذا استعملها في غير ما خلقت له، فهذا قد استحب واختار العمى على الهدى، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، وبهذه الهداية الخاصة بالإنسان سخر له جميع ما وصلت إليه قدرته، من علوم الكون، وهذه الهداية تشمل الهداية المجملة والمفصلة، في علم الشرع وأعماله، وفي علوم الكون وأعماله، فعلمه العلوم الشرعية، وهداه إلى معرفتها، ثم إلى العمل بها، وعلمه علوم الكون، ثم يسر له سبلها فسلكها "(١) .

فمن سمّاها بالهداية الغريزية والفطرية، نظر إليها على أنها هداية غريزة، فطر الله تبارك وتعالى الخلق عليها؛ رحمة منه بخلقه، حتى تقوم حياتهم ومصالحهم، فهي تهديهم إلى ما ينفعهم، وتبعدهم عن ما يضرهم، بحُكم الإلهام، والغريزة، والفطرة .

قال البيضاوي رحمه الله: " ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أي قدّر أجناس الأشياء، وأنواعها، وأشخاصها، ومقاديرها، وصفاتها، وأفعالها، وآجالها، ﴿ فَهَدَىٰ﴾ فوجهه إلى أفعاله، طبعًا، واختيارًا، بخلق الميول والإلهامات، ونصب الدلائل، وإنزال الآيات"(٢) .

ومن سمّاها بالهداية العامة، نظر إليها من جهة ارتباطها بكل مخلوق، لكنّها تكاملت في الإنسان المميّز بالعقل والفطنة .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٠٧) .

(٢) أنوار التنزيل (٢/ ١١٤٨) .

قال القاسمي رحمه الله: " والهداية هي: الإرشاد إلى الخيرات، قولًا وفعلًا، وهي من الله تعالى على منازل، بعضها يترتب على بعض ، لا يصح حصول الثاني إلا بعد الأول، ولا الثالث إلا بعد الثاني، فأول المنازل: إعطاؤه العبد القوى التي بها يهتدي إلى مصالحه، إما تسخيرًا وإما طوعًا، كالمشاعر الخمسة، والقوة الفكرية، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات، وبعض خصّ به الْإِنْسَاْن، وعلى ذلك دلّ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه :٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٣]، وهذه الهداية إما تسخير، وإما تعليم، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة:٥]، وقال في الْإِنْسَاْن بما أعطاه من العقل، وعرفه من الرشد: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الْإِنْسَاْن:٣]، وقال: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[البلد:١٠]، وقال في ثمود: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت:١٧] "(١) .

فهذه الهداية الفطرية العامة التي رزقها الله لسائر خلقه على حسب حاجته لما يهتدي إليه في مصالحه ، وتكاملت في الإنسان بما رزقه الله ، وخصه بالعقل الذي يهديه لمصالحه الدنيوية والآخروية على أكمل وجه، هي أول مراحل الهداية، لأن من لم يرزق عقل التكليف ليس بمحاسب بتكاليف الشريعة .

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٢٢٦) .

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: " وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه: الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف، من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء، حسب احتماله "(١) .

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة:

يطلق عليها العلماء هداية التعليم، وهداية الدلالة، وهداية البيان، وهداية الإرشاد، وهداية الدعوة، وهي النوع الوحيد من أنواع الهدايات الذي له تعلق بالبشر، وهي تمثل مرحلة من مراحل الهداية المهمة، لكن لا يتحقق بها الهدى الكامل، قال تعالى لرسوله الأمين: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢] .

قال ابن القيم رحمه الله: " هداية البيان، والدلالة، والتعريف، لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدى معها "(٢)، ولهذا قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]، " أي: بيّنّا لهم طريق الحق، وأمرناهم بسلوكها، وطرق الشر، ونهيناهم عن سلوكها، على لسان نبينا صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم "(٣)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٨) .

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥٤) .

(٣) أضواء البيان (٧/ ١١٧) .

﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الإنسان:٣]، والمراد بالهداية هنا: البيان، والإرشاد للطريق المستقيم، من خلال إرسال رسله، وإنزال كتبه، وإقامة حججه، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

قال القرطبي رحمه الله: " قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي: بيّنّا له، وعرّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠]، وقال مجاهد: أي: بيّنَا له السبيل إلى الشقاء والسعادة "(١).

وقال ابن عاشور رحمه الله: " والهداية حقيقتها إبانة الطريق، وتطلق على مطلق الإرشاد لما فيه النفع سواء اهتدى المهْدي إلى ما هُدي إليه أم لم يهتد "(٢).

وهداية الدلالة والإرشاد لم تترك لاجتهاد العباد، بل أصلها من الله؛ لأنّها لا تكون إلا من خلال وحيه الذي أنزله، فالله هو الْهَادِي للحق بما أنزله، وشرعه في كتابه، ومما جاء مبينًا في سنة رسوله الكريم، فهو قد أرشد عباده من خلال وحيه إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وحذرهم عما يضرهم في الدنيا والآخرة؛ وما فرّط في كتابه فيما يهدي خلقه من شيء، فكل ما فيه من خير وصلاح، أرشدهم ودلهم عليه، وكل ما فيه شر وفساد، حذرهم منها، وبينه لهم في كتابه، وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تبين أن القرآن الكريم هدى للناس، وهو الهادي إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم، وإلى التي هي أقوم في سائر الأمور، قال تعالى:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٠).

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٥ – ١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]، وقال تعالى عن الجنّ في قولهم الراشد: ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٣٠]، ومن هنا كان أصل هداية الإرشاد من الله تعالى، بما أنزله في كتابه من الهدى، ومن ابتغى الهدى بغيره أضله الله، والهدى دون وحيه، سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، فالقرآن جاء ليهدي للتي هي أقوم، يهدي للنجاة، يهدي لسعادة الدارين .

والأنبياء، والعلماء، ومن يقومون بواجب الدعوة والبيان، يدلون إلى هديه من خلال شرحهم، وبلاغهم لما جاء في الكتاب، وما بيّنته السنة، فهم يهدون بالحقّ الذي أنزله، فهداية الإنسان لغيره منحصرة في البيان، والدلالة، والدعوة لما جاء عن الله ﷻ، دون سائر أنواع الهدايات، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨١]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد:٧] .

فهذه الآيات تقرّر أن الدعاة والمصلحين يقومون بواجب هداية البيان والإرشاد للناس عبر التاريخ، وفق ما أمر الله، وأنزله من الحق والهدى، فهم يدلون على الحق، ويذكرون بالخير، ويرشدون الناس لما هداهم إليه القرآن، وأن هذا هو حدود طاقتهم، وهو الواجب المكلفون به، الذي يسألون عنه، وأن عدم امتلاك العباد لهداية التوفيق، لا يجعلهم يتقاعسون عن واجب هداية البيان، وأن يتركوا تعليم الناس ودعوتهم؛ لأنّهم لا يملكون هدايتهم، فإنّ الله كلف عباده ما في وسعهم، فعليه أن يسعى في تحقيق ذلك، ولهذا كانت همة الأخيار متصلة في بيان الهداية للناس، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام حاكيا مقولته لوالده: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[مريم: ٤٣]، وقال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨ – ١٩]، وقال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨]، وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهم مأجورون عند ما يقومون بهذا النوع من الهداية، ولو لم يستجب المدعوون لهم، وهم آثمون معذَّبون إن تخلّوا عنها، بحجة أن المدعوين لم يستجيبوا لهم، وأن على المستمع أن يستجيب لما دلوهم عليه من هدي القرآن، وأرشدوهم إليه؛ ليكونوا من المهتدين، النّاجين الفائزين، وأن خير

هذه الاستجابة عائد عليهم قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[الزمر:٤١]، فالذي يجب على الإنسان من واجب الهداية لغيره، ينحصر في بلاغ هدايات القرآن للناس وبيانها؛ ليعرفوا الحق والهدى فيسلكوه، دون سائر أنواع الهدايات التي لا يملكونها، ولذا لم يكلفوا بها، وأن الواجب على من أرشدوه بالهدى، العمل بما دلوهم إليه، ووضحوه له .

ومن هنا فهم العلماء - رحمهم الله- أنّ كل هداية مُنِعَ منها الكافرون، والظالمون، والفاسقون، والخائنون، والمسرفون، وغيرهم، لا تشمل هذا النوع من الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[يوسف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[النحل: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النحل: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨]، فهي في غير هداية الدلالة والبيان، التي جعلها الله متاحة لكل خلقه، بل ما أنزل كتابه إلا من أجل تحقق هذا، قال تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

وكذلك كل هداية نفاها الله تعالى عن رسوله ﷺ وعن خلقه، وبين عجزهم عنها فهي غير متعلقة بهداية الدلالة والإرشاد .

قال الراغب رحمه الله: " وكل هداية ذكر الله ﷻ أنّه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة، وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة، التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة .. وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها، فهي ما عدا المختص من الدعاء، وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة"(١) .

وهذا النوع من الهداية، وهي هداية البيان، والدلالة، والإرشاد، هي العلم المقصود من خلال هذه الدراسة، وهو المكلف به الخلق من أنبياء ورسل، ومن يقومون بواجب البلاغ والبيان بعدهم، من إنس وجن .

قال القرطبي رحمه الله: " الهدى هُديان: هدى دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢]، فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة، والدعوة، والتنبيه، وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٨) .

لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[القصص: ٥٦]، فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب "(١) .

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام:

يطلق عليها العلماء هداية التوفيق، وهداية التأييد، وهي تكون بجعل الهدى في القلب، والتوفيق للعمل بالحق، والثبات عليه، والزيادة فيه، وهذا النوع من الهداية لا تدخل للعبد فيه إلا من جهة سلوك سبيلها من المجاهدة والدعاء والعلم، والله تعالى وحده هو الذي يختص به من يشاء من عباده توفيقًا في القلب، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى لرسوله الكريم: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وجاء عَنْ جَابِرٍ ب قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٦١) .

يَخْطُبُ النَّاسَ، يَحْمَدُ الله، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: "مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ"(١).

قال ابن القيم رحمه الله: "وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها"(٢).

وهداية التوفيق من الله، ولكن بأسباب يسلكها العبد، فهو الذي يمن بتوفيقه، وبإلهامه، وتسديده للعبد، بسبب من العبد، قال الله جل وعلا: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٤- ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، فإذا سلك العبد سبيل الهداية ورغب فيها، وعمل على تحصيلها، وفّقه الله تعالى إليها،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تَخْفِيف الصَّلاَةِ وَالْخُطْبَةِ، برقم: (٢٠٤٤).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥٤).

وإذا سلك طريق الغواية ففرط في العلم، وكره ما أنزله الله من الحق، وآثر الضلال على الهدى بعد معرفته، فإنه يوكل إلى نفسه، ويحرم التوفيق والسداد والإلهام .

وهداية التوفيق تكون بالتوفيق لأصول الهدى، ومعرفة الحق جملة، وقد تكون بالتوفيق لمزيد من الهدى الموعود به من اهتدى، كما قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، وتكون بالثبات على الحق، والعصمة من خطوات الشياطين، واتباع الشهوات، فالذي يسأله العبد في صلاته، وهو مؤمن مهتدٍ، في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، هو الزيادة والثبات .

قال البغوي رحمه الله: " قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ اهدنا أرشدنا، وقال علي وأبي بن كعب: ثبّتنا كما يقال للقائم قم حتى أعود إليك، أي: دم على ما أنت عليه، وهذا الدعاء من المؤمنين، مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت، وبمعنى طلب مزيد الهداية؛ لأنّ الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى على مذهب أهل السنة "(١) .

---

(١) معالم التنزيل (١/ ٦) .

وقال ابن عطية رحمه الله: " أي: دلّنا عليه واسلك بنا فيه وثبّتنا عليه"[(١)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وأما قوله : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الاهتداء "[(٢)] .

والعبد في سلوك الصراط المستقيم يعلم أنّ أفراده كثيرة، والأحوال التي تعتريه مختلفة، وهو قد يأخذ أشياء، وتفوته أخرى، وقد يعمل اليوم، ويعتريه الضعف غدًا، فسؤال العبد ربه جل وعلا أن يهديه الصراط المستقيم، يعني: أن يوفقه، ويسدده؛ لسلوك جميع أفراد الصراط المستقيم، وأن يوفقه في جميع الأحوال .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهداية، في جميع ما يأتيه ويذره من أمور، قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هدي إليها من وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها؛ ليزداد هدى، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو محتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها، فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية، إلى غير ذلك من أنواع الحاجات، إلى أنواع الهدايات، فرض عليه أن

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥٧) .

يسأل هذه الهداية في أفضل أحواله، وهي الصلاة، مرات متعددة، في اليوم والليلة"[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله: " قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فالهداية هي: البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف، ترتب عليه هداية التوفيق ، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه، وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى، بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا، وتثبيتنا عليه إلى الوفاة، ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة، فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإنّ المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده"[(٢)] .

وقال رحمه الله: " فإن قيل كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟ قلنا: لقد أجيب عنها بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، واعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب، إلا بعد سبعة أمور، هو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٥) .

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٤) .

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره، بكونه محبوبًا للرب تعالى، مرضيا له، فيؤثره، وكونه مغضوبًا له، مسخوطًا عليه، فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء، نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازمًا عليه، ومريدًا لترك جميع ما نهى الله، عازمًا على تركه، بعد خطوره بالبال مفصلًا، وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملًا، فإن نقص من إرادته لذلك شيء، نقص من الهدى التام، بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلًا وتركًا فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه، فهذه ثلاثة، هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة، هي من تمامها وكمالها.

أحدها: أمور هدي إليها جملة، ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلًا من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها، فهذه أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه.

الأمر السابع: يتعلق بالماضي، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها، وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنّما يقال:

كيف يسأل الهداية وهي موجودة له ؟ ثم يجاب عن ذلك: بأن المراد التثبيت، والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعليه فيه، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام، تعليمًا، وتوفيقًا، وخلقًا للإرادة فيه، وإقدارًا له، وخلقًا للفاعلية، وتثبيتًا له على ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية، أصلها وتفصيلها، علمًا وعملًا، والتثبيت عليها، والدوام إلى الممات، وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نَفَسٍ، في جميع ما يأتيه ويذره، أصلًا وتفصيلًا، وتثبيتًا، ومفتقرًا إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام، فليس له أنفع، ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا على دينه "[1].

فالهداية للإيمان، والزيادة من الهدى، والثبات عليه، لا يكون إلا بتوفيق وإعانة من الله تعالى للعبد، والعبد إذا وكل لنفسه ضل، وانحرف بعد ما هداه الله تعالى، لا سيما والشياطين له بالمرصاد، كما قال إبليس – عليه لعنة الله-: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾[الأعراف: ١٦ –١٧].

فالعبد بحاجة شديدة لتوفيق رباني ليصل إلى الهدى، ومحتاج إلى توفيق، وإعانة للثبات على طاعته، وترك معصيته، ويصرف قلبه عما يجلب سخطه وعدم

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٥).

رضاه، ومحتاج إلى إعانة؛ ترقيه وتزيده في مراتب ومنازل الهدى، ومن هنا قال شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود: ٨٨]، نسأل الله تعالى التوفيق للهدى، والثبات عليه، والزيادة في منازله ودرجاته .

النوع الرابع: الهداية في الآخرة:

النوع الأخير من أنواع الهدايات، والذي يطلق عليه العلماء الهداية الأخروية، والهداية إلى دار الخلد والنعيم، والهداية إلى الجنة والنار، وهو ثمرة ونتيجة تحقق الهداية، ومحصلتها في الدنيا، فتكون به هدايتهم إلى سلوك الطريق الذي يوصلهم إلى الجنة، وفي عدم تحققها يكون سلوك الطريق الذي يوصلهم إلى النار، وقد جاء بيان ذلك في عدد من الآيات .

فجاءت آيات تتحدث عن الهداية إلى الجنة بفضل منه جل وعلا ورحمة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[يونس: ٩] .

قال ابن كثير رحمه الله: " وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون (الباء) هاهنا سببية فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا، يهديهم الله يوم القيامة إلى الصراط، حتى يجوزوه ويخلصُوا إلى الجنة، ويحتمل أن

تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ قال: يكون لهم نورًا يمشون به"(١).

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾[محمد: ٤ - ٦]، والهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الجنّة .

قال ابن كثير رحمه الله: " وقوله: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي: أمرهم وحالهم، ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي: عرفهم بها، وهداهم إليها، قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا، وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا، وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة "(٢) .

وقد جاءت آيات تتحدث عن الهداية إلى النار، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٤]، وقوله تعالى:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٠)، وينظر: جامع البيان (١٥/ ٢٧)، والنكت والعيون (٢/ ٤٢٣)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣١٢)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٣٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٠) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[الصافات: ٢٢-٢٣]، والعلماء في توجيه معنى هذه الآيات انقسموا إلى اتجاهين:

القسم الأول: حملوها على معنى الدلالة والإرشاد على الطريق لمن لا يعرفه، وقالوا: إن الهدى كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير، يستعمل أيضًا في الدلالة على الشر؛ لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، وقسم الهداية في الآخرة إلى قسمين .

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: " ﴿ فَٱهْدُوهُمْ ﴾ أي: عرفوهم، وقودوهم إلى طريق النار؛ حتى يصطلوها "[١] .

والقسم الآخر: جعل الهداية في معنى الدلالة على الخير فقط، وأنّ هذا من إطلاق الهداية فيها على أسلوب التهكم بهم .

قال البيضاوي رحمه الله: " والهداية دلالة بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وارد على التهكّم "[٢] .

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣٤١)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٣٧٦)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦٤) .

(٢) أنوار التنزيل (١/ ١٢) .

وقال أبو السعود رحمه الله: " والهداية دلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية؛ ولذلك اختصت بالخير، وقوله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وارد على نهج التهكم "[1].

ولعل الرّاجح أنّ الهداية الدلالة والإرشاد إلى مرغوب فيه لمعرفته، ولهذا تقابل الهداية بالضلالة التي هي بمعنى الحيرة " وذكر ﴿ فَٱهْدُوهُمْ ﴾ هنا تهكم بالمشركين، كقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجلنا قراكم   قبيل الصبح مرادة طحونا

وهذا هو الذي اختاره عامة المفسرين[2]، وهو الذي يتوافق مع عامة ما ورد في استعمال الهداية في القرآن الكريم .

قال ابن عاشور رحمه الله: " والهدى إنّما يتعلّق بالأمور النّافعة: لأنّ حقيقته إصابة الطريق الموصّل للمكان المقصود .. وأمّا قوله: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٢٣] فهو تهكّم، والضّلال إنّما يكون في أحوال مضرّة؛ لأنّ حقيقته خطأ الطّريق المطلوب "[3] .

فهذه الأنواع الأربعة من الهدايات السابقة مرتبطة ببعضها أشد الارتباط، فهداية الفطرة، رزقها الله لسائر مخلوقاته، ولكن كان نصيب الإنسان منها الحظ الأوفر؛ لأنّ الله خصّه بالعقل الذي هو مناط التكليف، الذي بدونه لا يتأهل

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ١٧) .

(٢) فتح القدير (٤/ ٣٩١) .

(٣) التحرير والتنوير (٨ / ٥٧).

لهداية الإرشاد، وهداية التوفيق مترتبة على هداية الإرشاد التي هي سبب وسبيل إليها، ولا تحقق هداية الجنة، إلا بتحقق الهداية الثانية والثالثة.

قال الراغب رحمه الله: " وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابعة فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله، ثم ينعكس فقد تحصل الأولى، ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث "(١).

فخلاصة القول: إنّ الهدايات المذكورة في القرآن تنقسم إلى أربعة أنواع، وهي: ١/ الهداية العامة، ٢/ هداية البيان، ٣/ هداية التوفيق، ٤/ هداية الآخرة(٢).

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٩).

(٢) هنالك من قسمها إلى أربعة أنواع خلاف هذه التي ذكرناها، قال ابن عاشور: " والهداية أنواع، تندرج كثرتها تحت أربعة أجناس مترتبة: الأول: إعطاء القوى المحركة والمدركة، التي بها يكون الاهتداء إلى انتظام وجود ذات الإنسان، الثاني: نصب الأدلة الفارقة بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، وهي هداية العلوم النظرية، الثالث: الهداية إلى ما قد تقْصُر عنه الأدلة، أو يفضي إعمالها في مثله إلى مشقة، وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وموازين القسط، الرابع: أقصى أجناس الهداية، وهي كشف الحقائق العُليا، وإظهار أسرار المعاني التي حارت فيها ألباب العقلاء، إما بواسطة الوحي والإلهام الصحيح أو التجليات، وقد سمى الله تعالى هذا هدى حين أضافه للأنبياء فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ " (الأنعام: ٩٠). التحرير والتنوير (١/ ١٨٩).

ويمكن تقسيمها من جهة تعلقها إلى قسمين:

القسم الأول: هداية من العبد: وهي هداية الدلالة والإرشاد، وهذه جعلها الله متاحة لسائر خلقه، وقد جاء القرآن لبسطها للناس .

والقسم الثاني: هدايات من الله تعالى: وهذه على نوعين:

١/ هداية في الدنيا: وهي على نوعين كذلك:

أ/ هداية الفطرة، وهذه عامة لسائر خلقه كل بحسب حاجته .

ب/ وهداية التوفيق، وهذه خص بها خواص خلقه، ومن علم فيهم خيرًا .

٢) وهداية في الآخرة: وهي الهداية إلى الجنة، وهي نتيجة الهداية ومحصلتها .

وجميع الهدايات مصدرها من الله، وإنما اختصر جانب الإرشاد على الأنبياء والرسل والدعاة، من حيث البيان، وأنّ الداعية لا يملك أن يمنح الإيمان للمدعوّين ، أو أن يقذفه في قلوبهم؛ لأنّ هذا مما اختصَّ به الله سبحانه، فهو الذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، وفق سننه في الهداية والإضلال، فالقلوب بيده، يصرفها كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[يونس:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النحل : ٣٧] .

المبحث الثاني

مجالات الهدايات القرآنية

إعداد

د . فخر الدين الزبير

مجالات الهدايات القرآنية

تمهيد:

أنزل الله تعالى كتابه هداية للعالمين، وهو أعظم مقاصده، وأعلى مراميه وأجل فوائده، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[النحل: ٦٤]، فذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية ثلاث حكم لإنزال القرآن الكريم: وهي البيان والهدى والرحمة، وقطب هذه الثلاثة هو الهدى؛ فالبيان وسيلته، والرحمة ثمرته، فجميع مقاصد القرآن الكريم تصب في نهاية غايتها إلى هداية من الهدايات .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، فعدى الفعل (يهْدِي) بحرف اللام(للَّتِي)؛ ليدل على اختصاص هداية القرآن الكريم بهذه الصفة[١] .

فهو يهدي للتي هي أقوم الطرق، وهي أقربها إلى الحق؛ فإن الطريق المستقيم هو أقرب خط موصل بين نقطتين، وكلما تعوّج بَعُد[٢] .

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٨) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٢٣) .

قال الزجاج رحمه الله: " أي للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله ﷻ أي شهادة أن لَا إلهَ إلا الله والإيمان برِسلِهِ، والعملُ بطاعتِه، وهذه صفة الحال التي هي أقوم الحالات "(١).

وقال الشنقيطي رحمه الله: " وهذه الآية الكريمة أجمل الله ﷻ فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال؛ لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة "(٢).

ولذلك ذكر الله تعالى في الآيات التالية لآية الهداية أحوال المؤمنين والكافرين، وتسخير الكون للإنسان وقال بعدها: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَهُ تَفْصِيلًا ﴾[الإسراء: ١٢]، " فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان..، كل هذا فصل في القرآن تفصيلًا: كلّ فصّل على غاية البيان والإحكام.

وهذا دعاء وترغيب للخلق أنّ يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل ، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان "(٣).

---

(١) معاني القرآن (٣/ ٢٢٩) .

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٧) .

(٣) مجالس التذكير لابن باديس (ص: ٤٩) .

وفي هذا المبحث نتناول هذه المجالات للهداية، ونبدؤه بتمهيد حول مفهوم المجالات .

مفهوم المجالات:

أما المجال في اللغة: فأصله من الجول، وهو الدوران، يقال: جال، يجول، جولًا، وجولانًا، وأجلته أنا، هذا هو الأصل، ثم يشتق منه .

وجال في الحرب جولة، وجال في التطواف، يجول جولًا، وجولانًا وجؤولًا .. وتجاولوا في الحرب، أي: جال بعضهم على بعض، وكانت بينهم مجاولات.. وجال واجتال: إذا ذهب وجاء .. واجتال الشيء: إذا ذهب به وساقه، والجائل: الزائل عن مكانه .

والجول: العزيمة، ويقال: العقل، وليس له جول، أي: عقل وعزيمة تمنعه، مثل جول البئر؛ لأنها إذا طويت كان أشد لها، ورجل ليس له جال: أي: ليس له عزيمة تمنعه[1] .

والجول: ناحية البئر، والبئر لها جوانب يدار فيها، وناحية القبر .

ويقال: ما لفلان جول، أي ماله رأي .

وهذا مشتق مما سبق؛ لأنّ صاحب الرأي يدير فكره ويعمله[2] .

وأما المقصود بالمجال في هذه الدراسة فهو: النواحي والميادين التي تدور حولها هدايات القرآن العظيم، وهي مجالات عديدة عامة شاملة، ففي القرآن

---

(١) لسان العرب (١١/ ١٣٢)، تاج العروس (٣٠/ ٣٩٠) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٩٥ ، ٤٩٦)، بتصرف، ينظر: المخصص لابن سيده (٢/ ٧٩) .

العظيم هداية الدنيا والآخرة، وهداية العقيدة والعمل، وهداية العبادة والمعاملة، وهداية الفرد والجماعة، وهداية الأسرة والمجتمع، وهداية الدولة والأمة، وهداية المؤمن والكافر، وهداية القوي والضعيف، وهداية الحائر والمهتدي، وهداية الذكر والأنثى، وهداية النفس والعقل والجسد، وغيرها .

وجميع هذه الهدايات يمكن حصرها في مطلبين هما موضوع هذا المبحث، وهي كما يلي:

المطلب الأول: المجالات المتفق عليها، وهي أربعة مجالات:

المجال الأول: هدايات القرآن الكريم في مجال العقيدة .

المجال الثاني: هدايات القرآن الكريم في مجال العبادة .

المجال الثالث: هدايات القرآن الكريم في مجال الأخلاق والآداب .

المجال الرابع: هدايات القرآن الكريم في مجال المعاملات .

المطلب الثاني: المجالات المختلف فيها، وهي المجالات العلمية: مجال العلوم الكونية، ومجال علوم الأنفس .

المطلب الأول: مجالات هدايات القرآن الكريم المتفق عليها:

المجال الأول: هدايات القرآن الكريم **في مجال العقيدة:**

العقيدة في اللغة: مأخوذة من العقد: وهو الشد والربط، يقال: عقد الحبل والبيع والعهد يعقده: شده، والعقد: العهد[١] .

---

(١) القاموس المحيط (١/ ٥١٣) .

فالعقيدة ما يربط عليه العبد قلبه، فكأنها هي العهد المشدود، والعروة الوثقى، وذلك لاستقرارها ورسوخها في القلوب .

وهي في الاصطلاح: كل ما يجب الإيمان به مما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى، والنبوات، وما أخبر به الأنبياء عن ربهم من الأمور الغيبية، كالملائكة واليوم الآخر وغيرها من أركان الإيمان الستة [(١)] .

والهداية في مجال العقيدة هي أعظم هذه المجالات وأنفعها؛ إذ بها صلاح دينه ودنياه وأخراه؛ ولذلك كان تقرير العقيدة هو أكثر ما في القرآن الكريم، بل - كما قال جمع من أهل العلم - القرآن كله في تقرير التوحيد، وفي ذلك يقول ابن أبي العز الحنفي: " فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم "[(٢)] .

---

(١) ينظر: مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة لناصر العقل (ص: ٩) .

(٢) شرح الطحاوية (ص:٤٣) .

فلا تكاد تخلو سورة - مكية كانت أو مدنية - بل حتى آية من شد الإنسان بكليته إلى ربّه، وربط كل تصرف بهذه العقيدة التي تمثل القاعدة الأساسية لهذا الدين الذي لا يقوم بدونها[(١)]، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ونحن في هذه الدراسة لسنا بصدد عرض عقيدة المؤمن وتفصيلها في القرآن الكريم، وإنما المقصود بيان اشتمال القرآن الكريم على جميع الهدايات الإيمانية التي تصلح القلوب، وتشرح الصدور، وتحقق الحياة المطمئنة التي وعد الله تعالى من تحلّى بها بقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

فنجد أنّ القرآن الكريم يأمر بأركان الإيمان الستة إما في آية واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٧٧]، حيث ذكر الأركان الخمسة متتابعة، ثم أشار سبحانه إلى الإيمان بالقدر، وذلك ببيان ثمرته، وهو الصبر على البأساء والضراء وحين

---

(١) العقيدة وأثرها في بناء الجيل لعبد الله عزام (ص: ١٠).

البأس؛ لذلك روي أن رجلا سأل أبا ذر عن الإيمان، فقرأ عليه هذه الآية حتى ختمها، وقال: " إن رجلا سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقرأ عليه هذه "[1] .

وقال ابن بطة رحمه الله: " فانتظمت هذه الآية أوصاف الإيمان وشرائطه من القول والعمل والإخلاص "[2] .

وإما أن يأمر بالأركان في آيات متعددة وهو الأكثر في القرآن الكريم، ويمكن تناول جميع ما ورد من هدايات القرآن الإيمانية كما يلي:

أولًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالله، وهو في ثلاثة أصول:

الإيمان بوجود الله تعالى وربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته:

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١١/ ١٢٨)، والآجري في الشريعة (ص: ١٢١) عن مجاهد عن أبي ذر وهو منقطع؛ لأن مجاهدًا لم يسمع من أبي ذر . انظر: التهذيب (١٠/ ٤٢)، وقال ابن كثير: أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد عن أبي ذر . تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٧)، وذكره جماعة من المفسرين . انظر: تفسير الطبري (٢ / ٩٤)، الدر المنثور (١/ ١٦٩)، فتح القدير (١/ ١٧٣) .

(٢) الإبانة (٦/ ٧٦٥ – ٧٧٢) .

الأصل الأول: هدايات القرآن الكريم في الإيمان بوجود الله تعالى وربوبيته:

ومعناه: اعتقاد أنّ لهذا الكون خالقًا مدبرًا، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقد قرّر القرآن الكريم هذا الأصل بوجوه كثيرة، ودلالات متنوعة، ومنها:

١- بيان أنّ الفطرة دالة عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

قال ابن قتيبة رحمه الله: " والفطرة عندنا: الإقرار بالله والمعرفة به .. ولستَ واجدًا أحدًا إلّا وهو مُقِرّ بأنَّ له صانعًا ومدبِّرًا، وإن عبد شيئًا دونه، وسمَّاه بغير اسمه "[(١)].

٢- كما قرّر القرآن الكريم أنّ العقل كذلك يوصل إلى وجود الله تعالى وربوبيته، فوجود الموجودات بعد العدم، وحدوثها بعد أن لم تكن، يدل بداهة على وجود من أوجدها، وقد سبقت معنا البراهين العقلية الدقيقة في عدد من الآيات، كقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٢٢)، باختصار يسير.

٣- كما بيّن في آيات أخرى أنّ العقل لا يشترط في إثباتها أن يشهدها، بل يستحيل أن تشهد المخلوقات خلق نفسها، وخلق ما وجد قبلها، كما قال سبحانه: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]، فكل إنسان يعلم يقينا أنّه لم يكن شيئًا مذكورًا ثم وجد، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[مريم: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾[الإنسان: ١].

٤- وكذلك بيّنت الآيات أنّ هذا الإتقان الدقيق، والتقدير العجيب، دال على ربوبية الرب العظيم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[النمل: ٨٨]،وقال عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[الملك: ٣].

فكلها آيات متنوعة وطرائق متعددة في الهداية إلى توحيد الربوبية الذي يتضمن الإقرار بوجود الرب الخالق المدبر للكون .

الأصل الثاني: هدايات القرآن الكريم في الإيمان بالألوهية:

والمقصود به: إفراد الله تعالى بالعبادة، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ١٦٣].

قال الطبري رحمه الله: " والذي يستحق عَليكم أيها الناس الطاعةَ له، ويستوجب منكم العبادة، معبودٌ واحدٌ، وربٌّ واحد، فلا تعبدوا غيرَه، ولا

تشركوا معه سواه، فإنّ من تُشركونه معه في عبادتكم إياه، هو خَلقٌ من خلق إلهكم، مثلكم، وإلهكم إله واحد، لا مثلَ لهُ وَلا نَظير "(١).

وقد دلّ القرآن الكريم على هذا التوحيد بطرق كثيرة، وهدايات عديدة، ومن ذلك:

١- الأمر الصريح بعبادته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقد نقل الطبري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: " أي: وَحِّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم "(٢).

٢- النهي الصريح عن الشرك: وهو عبادة مَنْ سواه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾[النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٤٨].

٣- الإخبار بأن الله تعالى ما خلق الخلق إلا لعبادته، كما في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦].

٤- الإخبار بأنّ الله تعالى ما أرسل الرسل إلا للدعوة إلى عبادته، والنهي عن

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢٦٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٦٣).

عبادة من سواه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾[الزخرف: ٤٥].

٥- الاستدلال بتوحيد الربوبية على إثبات توحيد الألوهية؛ فتقرير أنّ الله هو الخالق المالك المدبر الذي لم يشاركه في ذلك أحد: يلزم منه أن لا يشاركه في العبادة أحد، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾[النمل: ٦٠]،وما بعدها من الآيات.

٦- الاستدلال بتفرّده بصفات الكمال على وجوب إفراده بالعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥]، وحكاية قول خليله إبراهيم عليه السلام لأبيه بقوله: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾[مريم: ٤٢]، وحكاية قول هدهد سليمان بقوله: ﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[النمل: ٢٥-٢٦].

٧- التذكير بنعم الله تعالى على عباده، وأن مقتضى ذلك شكره وعبادته، لا كفره والشرك به، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[النحل: ٥٣-٥٤].

٨-التنبيه إلى أن الإنسان مضطر إلى عبادة الله بفطرته؛ ولذلك يتوجه إليه حتى المشركون عند شدائدهم، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٥] .

٩- بيان عجز كل ما يعبد من دون الله، وأنه لا يخلق شيئًا، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[الحج: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[الأعراف: ١٩١ – ١٩٢] .

١٠- التشنيع على سفه المشركين في اتخاذهم لأوثان لا تملك لهم شيئًا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[العنكبوت: ١٧] .

١١- إبطال حجج المشركين في عبادة غير الله تعالى، والردّ عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[الزمر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ

﴿أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٣- ٤٤] .

١٢- ضرب الأمثال الدالة على بطلان الشرك، وقبحه، وسوء عاقبته، كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤١]، وقوله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[الحج: ٣١] .

١٣- بيان عاقبة الموحدين في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا هو الشرك ، كما بين النبي ﷺ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: " إنّه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣] "[(١)] .

١٤- بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع معبوداتهم، حيث تتبرأ منهم كما قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[فاطر: ١٤]،

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾، برقم: (٤٧٧٦)، ومواضع أخرى .

وقوله: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[البقرة: ١٦٦][(١)] .

الأصل الثالث: هدايات القرآن الكريم في الإيمان بأسماء الله وصفاته:

ومعناه: إفراد الله تعالى بصفات الكمال وأسماء الجلال، وإثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل[(٢)] .

وقد قرّر القرآن هذا الأصل بطرق كثيرة، وهدايات متنوعة، منها:

١- إثبات الكمال المطلق لله تعالى وصفاته وأسمائه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[النحل: ٦٠]، أي: الوصف الأكمل؛ لذلك فسّرها ابن عباس بقوله: " يقول: ليس كمثله شيء"[(٣)] .

قال السمعاني رحمه الله: " ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي: الصفة العليا، وذلك مثل قولهم: عالم، وقادر، ورازق، وحي، وغير هذا "[(٤)] .

٢- إثبات عجز الخلق عن الإحاطة بصفاته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[طه: ١١٠]، وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾[الزمر: ٦٧]، وقال: ﴿ لَّا

---

(١) ينظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي (ص:١٢،١١)، تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٩،٣٨)، ودعوة التوحيد للهراس (ص: ٤٥،٣٩) .

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩) .

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٩٠)، برقم: (١٧٤٨٧) .

(٤) تفسير السمعاني (٣/ ١٨١) .

﴿ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الأنعام: ١٠٣] أي: لا تحيط به، وإن كانت تراه في الآخرة، وهو أحد الأقوال في تفسيرها، كما نقله جمع من المفسرين(١) .

٣- نفي المثيل والند والمكافئ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤]، قال الطبري رحمه الله: " فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه؛ فإنّه لا مثل له ولا شبه "(٢) .

وقال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[مريم: ٦٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: " هل تعلم للرب مثلًا أو شبيهًا "(٣)، وهو استفهام، يراد به النفي، أي: لا تعلم له سميًّا .

ومثله: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: ٤]، قال الطبري رحمه الله: " ولم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثله شيء "(٤) .

٤- بيان نقص كل ما سواه سبحانه، وافتقار جميع الخلق إليه، فقال عن الملائكة: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[البقرة: ٣٢]، وقال عن الإنسان: ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]، وقال عن الناس:

---

(١) والمعنى الثاني: لا تراه في الدنيا، وهما متآلفان، ينظر: جامع البيان (١٢/ ١٤)، زاد المسير (٢/ ٦٢) .

(٢) جامع البيان (١٧/ ٢٥٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٥٠) .

(٤) جامع البيان (٢٤/ ٦٩١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر: ١٥]، وقال عن الخلق جميعًا: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[الأنعام: ١٤]، وكلّه دالّ على كمال علمه وقدرته وكرمه وغناه وغيرها من صفات الكمال، ونعوت الجلال .

٥- بيان أنّ اتصاف الله تعالى بصفات قد تطلق على المخلوقين لا يقتضي التمثيل، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١]، فأثبت لنفسه السمع والبصر، كما أن للإنسان سمعًا وبصرًا، ونفى التماثل بينهما؛ لذلك قالت عائشة رضي الله عنها: " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلّمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[المجادلة: ١] "(١) .

٦- ذم آلهة المشركين بعدم اتصافهم بصفات الكمال؛ لتقرير اتصافه سبحانه وتعالى بها، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[فاطر: ١٤]، وحكى عن إبراهيم قوله: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾[مريم: ٤٢] .

---

(١) رواه البخاري معلقًا، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وكان الله سميعًا بصيرًا ﴾، وأحمد في المسند (٦/ ٤٦) .

٧- بيان أنّ أسماء الله تعالى كلها حسنى، ولا تكون كذلك إلا إذا تضمّنت صفات الكمال، وإلا كانت أعلامًا مجردةً لا معنى لها، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٠].

قال الرازي رحمه الله: " الأسماء ألفاظ، دالة على المعاني، فهي إنّما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال، ونعوت الجلال "[(١)].

ثانيًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالملائكة:

الملائكة في أصل اللغة: جمع ملَك، وهو مشتق من الألوكة، أي: الرسالة[(٢)]، والملائكة أجسام نورانية، أعطيت قدرة على التشكل، بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات، وهي تطوف في الأرض بأمر الله تعالى[(٣)].

وقد وردت الهدايات القرآنية في تقرير الإيمان بالملائكة، وبمسالك عديدة، يمكن إجمالها فيما يلي:

١-بيان أن الإيمان بوجودهم وأوصافهم من أركان الإيمان، بقرنه بغيره من الأركان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[البقرة:١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ

(١) مفاتيح الغيب (١٥ / ٤١٢).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٠/ ٣٩٤).

(٣) ينظر: عالم الملائكة الأبرار للأشقر (ص: ١٠).

وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾[البقرة: ٢٨٥].

٢-التحذير من إنكارهم والكفر بهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: ١٣٦].

٣-بيان جلائل صفاتهم، وعظيم مكانتهم عنده سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، ووجه الدلالة: أنّ الله احتج بشهادتهم على أعظم مشهود على الإطلاق، وهو توحيده سبحانه، وقرن شهادتهم بشهادته، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[الأنبياء:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٠]، وغيرها من الآيات في وصفهم.

٤-ذكر بعض من صفاتهم الخَلقية، كما في قوله تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ﴾[فاطر: ١]، ووصف النبي ﷺ أحد حملة العرش، فقال: " أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش، ما بين شحمة أذنه وعاتقه، مسيرة سبعمائة عام "[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية، برقم: (٤٧٢٧)، وقال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٢): وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، وقال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٣٣): إسناده على شرط الصحيح، وصحّحه الألباني في صحيح السنن .

ومن صفاتهم الخَلقية أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فمن وصفهم بالأنوثة فقد كفر؛ لتكذيبه القرآن الكريم في نفي ذلك، قال تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾[الإسراء: ٤٠].

وهم يأتون على صور الرجال، كما جاؤوا لإبراهيم، ولوط عليهما السلام، وكما جاء جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام في صورة بشر، وكذلك كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة تشبه الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه[1]، وفي صورة أعرابي، كما في حديث جبريل المشهور[2].

٥-بيان أنّ عددهم لا يعلمه إلا الله سبحانه، حيث ردّ علم ذلك إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[المدثر: ٣١]، وجاء في صفة البيت المعمور أنه: " يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم "[3]، وغيرها من الأحاديث الدالة على كثرتهم.

(١) كما في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ..، برقم: (١٦٧).

(٢) كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلّم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، برقم: (٤٩)، ورواه مسلم عن عمر وأبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، برقم: (٨) و(٩) و(١٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، برقم: (٣٦٧٤)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى السموات وفرض الصلوات، برقم: (٤٠٩).

٦-الإخبار عن أعمال بعض الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴾[النازعات: ١ – ٥] . قال السعدي رحمه الله: " هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره "(١) .

ومن الأعمال التي كلف بها الملائكة، الحفظ والكتابة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾[الانفطار: ١٠-١١] .

ومن الملائكة من يجاهد مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾[الأنفال: ٩] .

ومن أعمال الملائكة أنّها تشفع يوم القيامة في المذنبين من الموحدين، قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾[النجم: ٢٦] .

وهناك ملائكة موكلة بأعمال أخرى كثيرة، كحملة العرش، وخزنة الجنة والنار، والملائكة الطوافين، وغيرها .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠٨) .

ثالثًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل ركن من أركان الإيمان؛ لا يصح إيمان المسلم إلا به، وقد وردت الهدايات القرآنية لتقرير هذا الأصل بصور متنوعة، ومنها:

١- الأمر المؤكد بالإيمان بالكتب، ومنها القرآن الكريم، والتحذير من إنكارها والكفر بها، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: ١٣٦] .

٢- بيان أنّ هذا الأمر أُمر به آدم عليه السلام، حيث قال تعالى حين أهبط آدم من الجنة: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه: ١٢٣]، فالهدى هنا هو: كل ما أنزله الله تعالى على رسله .

٣- بيان أنّه سبحانه أمر به بني آدم من بعده فقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[الأعراف: ٣٥] .

٤-ذكر أشهر هذه الكتب، وهي أربعة- قبل القرآن -: التوراة المنزلة على موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾[المائدة: ٤٤] .

والإنجيل الذي أنزله الله على رسوله عيسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٤٦] .

والزبور الذي أنزله الله على رسوله داود عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[النساء: ١٦٣]، [الإسراء: ٥٥] .

وصحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلى: ١٨-١٩] .

٥- بيان أنّ هذه الكتب يصدق بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[الصف: ٦] .

وقال الله تعالى في شأن القرآن الكريم: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾[المائدة: ٤٨] .

٦- بيان كفر من زعم أنّها ليست من عند الله أو أنها قول البشر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ ﴾[الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾[المدثر: ٢٤-٢٦] .

٧- بيان أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم فقال عن اليهود: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة: ١٥] .

٨- بيان أنّ القرآن الكريم ناسخ للتعبد بشريعة التوراة والإنجيل، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[الأعراف: ١٥٧] .

٩- بيان أنّ القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله من كل تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقص، ومصون من أن يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، حتى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩] .

١٠- الأمر بالتحاكم إلى القرآن الكريم، وبيان أنّ التحاكم إلى غير كتابه يعتبر تحاكما إلى الطاغوت، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: ٦٠] .

رابعًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل هو: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، والكفر بما يعبد من دونه، وأنهم جميعًا مرسلون صادقون، قد بلغوا جميع ما أرسلهم الله به، منهم من أعلمنا الله باسمه، ومنهم من استأثر الله بعلمه[1] .

وقد تعدّدت هدايات القرآن الكريم في بيان هذا الأصل، ومن ذلك ما يلي:

(١) ينظر الرسل والرسالات للأشقر (ص: ٢٢٩) .

١- بيان أنّ الإيمان بالرسل من أصول الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[البقرة:١٧٧] .

٢- الأمر بالإيمان بجميع الرسل دون تفريق بينهم، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾[البقرة: ٢٨٥] .

٣- التحذير من التكذيب والكفر بأي رسول منهم، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[النساء: ١٥٠ – ١٥١] .

٤- بيان أنّ رسل الله جميعًا كانوا رجالًا من البشر فلم يكونوا إناثًا ولا ملائكةً، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ ﴾[يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام: ٨–٩] .

٥- بيان أن الرسل كغيرهم من بني البشر، يأكلون ويشربون وينكحون ويموتون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾[آل عمران: ١٤٤].

٦- بيان أنّهم لا يملكون شيئًا من خصائص الألوهية، فلا يتصرفون في الكون، ولا يملكون النفع أو الضر، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٨].

٧- بيان أنّ مهمة الرسل هي الدعوة إلى عبادة الله وحده دون من سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٨- بيان أنّ خاتمهم رسول الله، كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٠].

٩- الأمر بطاعة الرسل وعدم مخالفتهم؛ وأن ذلك من طاعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[النساء: ٨٠].

خامسًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان باليوم الآخر:

والإيمان باليوم الآخر هو: الاعتقاد الجازم بأنّ الله تعالى يبعث الناس يوم القيامة، ويحاسبهم، ويدخلهم إما الجنة، وإما النار، ويدخل في ذلك الإيمان

بأشراط الساعة، وبالموت، وما بعده من فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، وبالنفخ في الصور، وخروج الخلائق من القبور، وما في موقف القيامة من الأهوال، وتفاصيل المحشر، ونشر الصحف، ووضع الموازين، والصراط، والحوض، والشفاعة، وغيرها، ثم الجنة ونعيمها، الذي أعلاه النظر إلى وجه الله تعالى، والنار وعذابها، الذي من أشده حجبهم عن ربهم سبحانه .

وقد اهتمّ القرآن الكريم بهذا الركن، وأكثر من ذكره، وأكد وقوعه بطرق شتى، وأساليب عدة، ومن ذلك:

١- كثرة اقترانه بالإيمان بالله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[الطلاق: ٢] في آيات كثيرة .

٢- تسميته بأسماء كثيرة ومتعددة؛ مما يدل على أهميته، وتحقّق وقوعه، مثل: القارعة والحاقة، والواقعة، والساعة، والقيامة، وبعض هذه الأسماء يدل على ما سيقع فيه من الأهوال مثل: الغاشية، والطامة، والصاخّة .

ومن أسماء اليوم الآخر في القرآن الكريم: يوم الدين، ويوم الحساب، ويوم التغابن، ويوم الخلود، ويوم الخروج، ويوم الحسرة، ويوم التناد .

٣- الإكثار من ذكر الموت وهو بداية قيامة العبد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الزمر: ٣٠-٣١]، وبيان أنّ كل نفس ذائقة الموت، وأنّ كل من عليها فان .

٤- ذكر فتنة القبر، كما قال تعالى في آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر: ٤٦]، وأمّا

نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين، كما قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧]، ومما ذكر من معاني الحياة الطيبة أنها في القبر[١]، والتنكير يدل على الإطلاق، فتشمل الدنيا وفي البرزخ .

٥- ذكر أشراط الساعة: قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[محمد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٨] .

٦- ذكر قيام الساعة، وأحوال القيامة، والعرض، والحساب، والموازين، والصراط، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾[الحاقة: ١٣ – ١٩]، وقال تعالى﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[مريم: ٧١]، والمقصود بالورود هنا: المرور على الصراط .

---

(١) ينظر : زاد المسير (٢/ ٥٨٢) .

قال ابن جرير رحمه الله: " وورودهموها، هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج مسلم، ومكردس فيها "(١).

٧- ذكر الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

سادسًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالقدر:

ذكر الله تعالى الإيمان بالقدر، وبين معالم هداياته، وأصّل له في آيات كثيرة، ومن أهمّ ذلك ما يلي:

١- بيّن ضرورة الإيمان بأن الله تعالى يعلم كل شيء، أزلًا، وأبدًا، جملةً، وتفصيلًا، كما قال تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴾[الطلاق: ١٢].

٢- بيّن أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء، قبل خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[الحج: ٧٠]، وقد بين ﷺ ذلك بقوله: " كتب الله مقادير

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٣٤).

الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء"[١].

٣- ذكر مرتبة المشيئة: ومعناها الإيمان بأنّ كل شيء بمشيئة الله تعالى، وأنّ مشيئة الخلق لا تخرج عن مشيئته تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[التكوير: ٢٩] .

ومن روائع ما قيل في ذلك قول الإمام الشافعي رحمه الله[٢]:

فما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمُسِنْ
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وذا لم تُعِنْ
فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حَسَنْ

٤- ذكر مرتبة الخلق: ومعناه الإيمان بأنّ الله خلق كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[الأعلى:٢]، وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان:٢]، ومن ذلك خلقه للناس وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات: ٩٦] .

٥- بيّن إرادته الكونية والشرعية:

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسى عليهما السلام، برقم: (٢٦٥٣) .

(٢) ينظر: الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٢٦٥)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١/ ٢٩٥) .

فالشرعية تستلزم المحبة، فالله تعالى يريد كل ما أمر به ويحبه، ولا يريد كل ما نهى عنه ويبغضه ويكرهه، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾[النساء: ٢٧]، وهي لا تقع لكل أحد.

والإرادة الكونية هي القدرية العامة التي بمعنى المشيئة، فكل ما يشاؤه الله تعالى ويقدره كونًا، فإنه يقع، سواء كان محبوبًا له: كالإيمان والطاعة، أو مكروهًا: كالكفر والفسوق والعصيان، ويدلّ عليها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج: ١٤]، وهي بمعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[الحج: ١٨]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ ﴾[هود: ٣٤]، فالإرادة هنا كونية قدرية، وليست شرعية؛ لأنّ الله تعالى لا يحب الغواية، وإن كان سبحانه يشاؤها قدرًا؛ لحكم يعلمها[1].

٦- بيّن أنّ العبد مختار في أفعاله: حيث أضاف الأفعال إليه في آيات كثيرة، ونصوص شهيرة، فقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وحيث وصف العبد بالمشيئة والإرادة فقال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴾[التكوير: ٢٨].

٧- بيّن أثر الإيمان بالقدر، وهو تسليم الأمر لله تعالى، والتوكل التام عليه، فإنّ الأمر كله بيديه، ولا يصيب العبد إلا ما كتبه عليه، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[التوبة: ٥١]،

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ٥٨، ١٨٨)، شرح الطحاوية: (ص: ١١٦).

وكذلك الصبر والرضا بما قدره الله وقضاه، كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، فذكر أن كل مصيبة تقع قد كتبها الله تعالى، ثم أعقب أثر هذا الإيمان وهو عدم الأسى على المحن، وعدم الفرح والافتخار بالمنح .

المجال الثاني: هدايات القرآن الكريم في مجال العبادة:

العبادة والتعبد: التذلّل، والتعبيد: التذليل، وبعير معبّد: مذلّل، وطريق معبّد: مسلوك مذلّل، وأصل العبودية: الخُضوع والتذلُّل[(١)].

وهي في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، من الأقوال، والأعمال، الظاهرة والباطنة[(٢)].

وقد وردت العبادة في القرآن الكريم على معنيين رئيسين:

المعنى الأول: الطاعة والانقياد، ومما ورد في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[يس: ٦٠]، والعبادة هنا بمعنى: طاعة الشيطان، واتباعه في المعاصي.

قال السمعاني رحمه الله: " أي: لا تطيعوا الشيطان، وعبادة الشيطان طاعته "[(٣)].

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٢].

قال الطبري رحمه الله: " إن كنتم منقادين لأمره، سامعين مطيعين، فكلوا مما أباح لكم أكله، وحلله، وطيَّبه لكم، ودعوا في تحريمه خطوات الشيطان "[(٤)].

---

(١) لسان العرب (٣/ ٢٧١، ٢٧٤) مختصرًا.

(٢) مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (١٠/ ١٥٠).

(٣) تفسير السمعاني (٤/ ٣٨٤).

(٤) جامع البيان (٣/ ٣١٧).

المعنى الثاني: وهو التعبد بمعنى التأله والتنسك، وهى إقامة الشعائر، كالصلاة، والصيام، والحج، والدعاء، والذبح، والنذر، وهو أكثر إطلاقات العبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥ -٦]، فسمى دعاءهم عبادة .

ولسنا هنا بصدد الكلام حول تفاصيل الآيات الدالة على العبادات، وأحكامها الفقهية، فإن هذا موضعه آيات الأحكام، ولكنّ المقصود هنا بيان هدايات القرآن الكريم في تقريره لأهمية العبادة وفوائدها، ومقاصدها، وآدابها، وحقائقها .

- وقد قرّر القرآن الكريم هذا الأصل من خلال ما يلي:

١- بيان أنه ما خلق الثقلين إلا لتحقيقها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦] .

٢- أمره سبحانه بالعبادة، وحضّه عليها، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ٢١] .

٣- بيان أنّ العبادة وظيفة الإنسان التي ينبغي أن يستصحبها في جميع تصرّفاته، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] .

٤- بيان أنّها حاجة فطرية خلق بها، وجبل عليها، فقال سبحانه: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[البقرة: ١٣٨]، قال مجاهد: " صبغة الله : فطرةَ الله التي فطر الناسَ عليها "(١).

٥- بيان أنّ الحياة المطمئنة، والسعادة الحقيقية، إنما تكون في ظل هذه العبادة، فقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧].

٦-بيان أنّ النعيم المقيم، والفوز العظيم في الآخرة، منوط بهذه العبادة، في أكثر من أربعين آية، يعلق فيها النجاة والفوز بالجنات، بالإيمان والأعمال الصالحات ، فيقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[يونس: ٩].

٧- بيان أنّ العبادة مبناها على الإخلاص والاتباع، في كثير من الآيات، فيقول سبحانه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥]، في حصر دقيق سديد يدل على تخليص العمل من كل شائبة للتنديد، ويقول تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[البينة: ٥].

٨- بيان فوائد آحاد العبادات ومقاصدها، فيقول سبحانه في عبادة الصلاة: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[العنكبوت:٤٥].

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١١٩)، وصححه أ. د. حكمت بشير في التفسير الصحيح: (١/ ٢٤٧).

قال الآلوسي رحمه الله: " ومعنى نهيها إيّاهم عن ذلك أنّها لتضمنها صنوف العبادة من التكبير ، والتسبيح ، والقراءة ، والوقوف بين يدي الله عزّ وجل، والركوع والسجود له سبحانه، الدال على غاية الخضوع والتعظيم، كأنها تقول لمن يأتي بها: لا تفعل الفحشاء والمنكر، ولا تعص ربا هو أهل لما أتيت به، وكيف يليق بك أن تفعل ذلك، وتعصيه تعالى وقد أتيت، مما يدلّ على عظمته تعالى، وكبريائه سبحانه، من الأقوال والأفعال، بما تكون به إن عصيت، وفعلت الفحشاء أو المنكر، كالمتناقض في أفعاله "(١) .

ويقول في عبادة الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣] .

قال الرازي رحمه الله: " الصوم يورث التقوى؛ لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر، والبطر، والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورئاستها؛ وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن ، والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين ، كما قيل في المثل السائر : المرء يسعى لعارية بطنه وفرجه، فمن أكثر الصوم هان عليه أمر هذين، وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهونا عليه أمر الرياسة في الدنيا وذلك جامع لأسباب التقوى "(٢) .

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٣٢٧) .

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٤٠) .

ويقول في عبادة الحج: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[الحج: ٢٧ – ٢٨] .

قال ابن عاشور رحمه الله: " وتنكير ﴿ مَنَٰفِعَ ﴾؛ للتعظيم، المراد منه الكثرة، وهي المصالح الدينية والدنيوية؛ لأنّ في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج، ولمجتمعهم؛ لأنّ في الاجتماع صلاحا في الدنيا، بالتعارف والتعامل "(١) .

ويقول في الزكاة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[التوبة: ١٠٣] .

قال السعدي رحمه الله: " أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿ وَتُزَكِّيهِم ﴾ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم، ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عمومًا، وخصوصًا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم، ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم "(٢) .

ويقول في عبادة الذكر: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٥]، قال ابن القيم رحمه الله: " وفي الذكر أكثر من مائة فائدة:

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٦) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥٠) .

الثانية: أنه يرضي الرحمن.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه ينور الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة..."(١).

ويقول تعالى في عبادة الاستغفار خاصة: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ويقول في عبادة التوكل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣].

ويقول في عبادة الجهاد: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٤١).

ويقول في عبادة الدعوة: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالقرآن الكريم قد بيّن أصول العبادات ثم أحال إلى تفاصيلها في السنة، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

وهكذا نجد أنّ القرآن الكريم يقرّر أصول العبادات، ويوضح كيفيّتها، ويجلي مقاصدها، ويبيّن أنها رسالة الأنبياء إلى الأمم السابقة، وسبيل النجاة في الدار الآخرة.

المجال الثالث: هدايات القرآن الكريم في مجال الأخلاق والآداب:

الأخلاق في اللغة مأخوذة من الخلق: وهو بسكون اللام وضمها، السجية، وفلان يتخلق بغير خلقه، أي: يتكلفه[١].

وهي في الاصطلاح: عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية[٢].

وقد شرحها الجرجاني رحمه الله بقوله: " فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة، سميت الهيئة: خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقًا سيئًا، وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال: خلقه الحلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخصٍ خلقه السخاء، ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل، لباعث أو رياء "[٣].

وقال ابن الأثير رحمه الله -عن الخلق-: " الدين، والطبع، والسجيّة، وحقيقته: أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي: نفسه، وأوصافها، ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف

---

(١) مختار الصحاح (ص: ٩٥) .

(٢) التعريفات (ص :١٠١) .

(٣) المرجع السابق .

حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة، أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع "[1].

وقد جاء القرآن الكريم لتقرير هذا الأصل من عدة جوانب، وبهدايات متنوعة، منها:

- أنّ القرآن الكريم قد أمر بجميع مكارم الأخلاق جملة، حينما مدح النبي ﷺ بتحليه بها، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤] مع الأمر باتباعه والاقتداء به، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١]، ونصّ على طائفة من الأخلاق والآداب، ومنها:

الصبر: وهو من أكثر الأخلاق التي اعتنى بها القرآن الكريم؛ لذا تكرر ذكره في مواضع كثيرة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: " ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا "[2].

وقد تنوّعت هدايات الحث على الصبر في القرآن الكريم، ومن ذلك:
١- الأمر الصريح به، كقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾[النحل: ١٢٧].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٧٠).

(٢) ينظر: التفسير القيم (ص: ١٠٤).

٢- النهي عما يضاده، كقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[القلم: ٤٨] .

٣- تعليق الفلاح به، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور التي إنما تجتمع كلها بالصبر .

٤- الإخبار بعظيم أجر الصابرين ومضاعفته على غيره، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾[القصص: ٥٤] .

٥- تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين، تنال الإمامة في الدين[(١)] .

ومنها الصدق: وكذلك تنوعت طرائق الهداية إليه، ومنها:

١-الأمر الصريح بالصدق كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩] .

٢-الثناء على الصادقين، كما في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ

---

(١) عدة الصابرين لابن القيم (ص:٧٢) .

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب: ٣٥] .

٣-التحذير الشديد من ضده وهو الكذب، كما في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥] .

٤-بيان عاقبة الصادقين، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[المائدة: ١١٩] .

ومن الأخلاق والآداب: الحض على الإحسان بمعناه العام .

قال السعدي رحمه الله: " والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كنفع الناس بالمال، والبدن ، والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول، وغيره "(١) .

وقد تنوعت طرق الهداية إليه، ومنها:

١- الأمر بالإحسان في كل شيء، كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾[النحل: ٩٠] .

٢- بيان محبة الله تعالى للمحسنين، كما قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٤٧) .

٣- بيان فضل الإحسان وعاقبته في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف: ٥٦] .

٤- تأكيد الإحسان إلى أصناف من الناس، فقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ ﴾ [النساء: ٣٦] .

-**وأمر بخلق الأمانة،** فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] .

- ونهى عن ضدها، وهي الخيانة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنفال: ٢٧] .

- وبيّن صفات المفلحين وذكر منها الأمانة، وكرّر الآية في موضعين من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨]، [المعارج: ٣٢] .

-وبيّن أن تحمل جلائل الأمانات من خصائص هذا الإنسان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢] .

وحث على خلق التواضع ونهى عن التكبر، فقال الله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[الفرقان:٦٣] .

قال البغوي رحمه الله: " أي: بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين "(١).

- وبيّن أنّه من الصفات التي يحبها الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: هذه صفات المؤمنين الكمّل، أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح: ٢٩].

- وقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[القصص: ٨٣].

قال ابن جزي رحمه الله: " عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ: أي تكبرًا وطغيانًا لا رفعة المنزلة، فإن إرادتها جائزة "(٢).

وحثّ على خلق الرحمة في آيات كثيرة، وبهدايات متنوعة:-

- منها أنّه وصف صفوة خلقة وخاتم رسله بهذه الصفة التي ملك بسببها القلوب، فعبّد الخلق لعلام الغيوب، فقال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى

(١) معالم التنزيل (٦/ ٩٣).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٢٠).

ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، بل وصف رسالته كلها بالرحمة للعالمين، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- ومنها ثناء الله تعالى على المتَّصفين بالرَّحْمَة، فقد قال تعالى واصفًا رسوله ﷺ، وأصحابه الذين معه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

-ومنها بيان أنّها سبب في النجاة ودخول الجنات، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾[البلد: ١١-١٨].

ومن الأخلاق والآداب: أنّه أمر بحسن الظن واجتناب سيئه، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[الحجرات: ١٢].

قال القاسمي رحمه الله: " أي كونوا على جانب منه، وذلك بأن تظنوا بالناس سوءًا، فإن الظانّ غير محقق، وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لا داعية تدعو المؤمن للمشي وراءه، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظنّ المؤمنين بأنفسهم الحسن، قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾[النور: ١٢] "(١).

وأمر بإقامة العدل وحثَّ عليه، ومدح من قام به، وذلك في آيات كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٥٣٤).

وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٨١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[النساء: ١٣٥] .

قال ابن كثير رحمه الله: " يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه "(١) .

كما حذّر من الحسد وأمر بالاستعاذة منه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[الفلق: ١-٥] .

قال ابن القيم رحمه الله: " وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيرًا ما يجتمع في القرآن، الحسد والسحر؛ للمناسبة، ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم: فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم "(٢)؛ لذلك قال عنهم وعن غيرهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٣) .

(٢) التفسير القيم (ص: ٦٤٢) .

بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النساء: ٥٤].

وأشار إلى أنّه أول ذنب عصي الله به في السماء، حين امتنع إبليس من السجود لآدم؛ حسدًا له على هذا الإكرام، فاعترض بما حكاه الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[الأعراف: ١٢]، كما أنّه أوّل ذنب عصي الله به في الأرض كما في قصة ابني آدم، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٢٧].

ذكر ابن جرير رحمه الله عن قتادة رحمه الله في سبب القتل أنه قال: " فحسد أخاه عند ذلك فقال: لأقتلنك! قال: إنما يتقبل الله من المتقين "[(١)].

فهذه بعض الأخلاق والآداب التي هدى إليها القرآن الكريم ونهى عن أضدادها، واستيعابها مما يخرج عن المقصود من هذه العجالة، فما من خلق كريم إلّا وقد أمر الله تعالى به في كتابه، وحث عليه، ورغب فيه، وبين أنّه من صفات الصفوة من عباده، وما من خلق ذميم إلا وحذر منه، ونهى عنه، وبيّن أنه من صفات الأشقياء من خلقه[(٢)].

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: موسوعة الأخلاق في موقع الدرر السنيّة.

المجال الرابع: هدايات القرآن الكريم في مجال المعاملات:

المعاملات: جمع معاملة؛ وهي مأخوذة من العمل، وهو لفظ عام في كل فعل يقصده المكلف .

وهي في الاصطلاح: الأحكام الشرعية المتعلقة بأمور الدنيا سواء تعلقت بالأموال أو النساء .

قال ابن عابدين رحمه الله: "والمعاملات خمسة: المعاوضات المالية، والمناكحات، والمخاصمات ، والأمانات ، والتركات "[(١)] .

وقد اشتمل القرآن الكريم على كل الهدايات في مجال المعاملات بأنواعها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والقضائية، إما تنصيصًا، أو تأصيلًا .

ففي المعاملات الاجتماعية: أمر بالتعاون والتناصر والتناصح، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١] ونهى عن التنازع، فقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال: ٤٦]، وأمر بالإصلاح بين المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الحجرات:١٠]، وحرم القتل، وجعله من أعظم الذنوب، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٩٣]، وحذر من ذلك أشد التحذير فقال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ

---

(١) حاشية ابن عابدين (١/ ٧٩).

نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾[المائدة:٣٢]، وشرع القصاص إحياء للمجتمع، فقال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وشرع حدّ الحرابة إبقاء على الأمن والاستقرار، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٣]، ثم أمر بالنكاح لتكاثر المجتمع وتقويته وطمأنينته، فيقول تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

قال الآلوسي رحمه الله: " أي: جعل بينكم بالزواج الذي شرعه لكم، توادًا، وتراحمًا، من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ، ولا مرابطة مصححة للتعاطف، من قرابة أو رحم .. ﴿ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾: في تضاعيف تلك الأفاعيل المبنية على الحكم، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله، مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة، بل هي مشتملة على آيات شتى، وإنها تحتاج إلى تفكر كما تؤذن بذلك الفاصلة، وذكر الطيبي: أنه لما كان القصد من خلق الأزواج، والسكون إليها، وإلقاء المحبة بين الزوجين، ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم، بل

تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السماوات والأرض إلا لها "[(١)].

وحرم الفواحش التي تقوض هذا المقصد، ونهى عن مقدماتها وإشاعتها، وشرع العقوبة على مقترفها، فشرع حد الزنا، وحد القذف، كل ذلك للمحافظة على أفراد المجتمع، ثم راعى المحافظة على مصلحة العقل فحرم الخمر، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة: ٩٠-٩١]، والخمر أم الخبائث وسبب أكثر الأمراض الاجتماعية؛ لذلك قال ﷺ: " الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه، وخالته، وعمته "[(٢)].

وفي المعاملات الاقتصادية: أحل الطيبات، وحرم الخبائث، فقال تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ونهى عن الإسراف، فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١]، وأمر بالقصد في الإنفاق، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

---

(١) روح المعاني (١١/ ٣٢).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٦٤)، برقم: (١١٣٧٢) و(١١٤٩٨)، وحسّنه الألباني بطرقه كما في السلسلة الصحيحة برقم: (١٨٥٣).

مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[الإسراء: ٢٩]، ونهى عن الاكتناز وأمر بالصدقات، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[التوبة: ٣٤]، وحرم الربا، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وبين حرمة أكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ ﴾[النساء: ٢٩]، وهذا عموم يشمل جميع الوجوه المحرمة، وأمر بكتابة الدَّين، وتوثيق العقود، والإشهاد في البيع سدا لباب الخصومة، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وفي كل ذلك يربط المعاملات بالإيمان والأخلاق، فيبدأ أكثر الخطابات بلفظ الإيمان ثم يلفت في أثنائها إلى صفة من الصفات القويمة، والأخلاق الرفيعة .

وفي المعاملات السياسية: ذكر الملك، ومدح ما كان منه بحق، كما عند الأنبياء والصالحين، فقال تعالى: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٥٤]، وذكر طالوت، واصطفاءه للملك لعلمه وصلاحه وقوته، مشيرًا إلى مقومات الولاية، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ

لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٤٧]، وبعده داود، حيث قال تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾[البقرة: ٢٥١]، ثم سليمان، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾[النمل: ١٦]، وذكر ذا القرنين الذي مكّن الله تعالى له في الأرض، فحكم بالعدل، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾[الكهف: ٨٤].

وفي مقابل ذلك ذم القرآن الكريم الملك الظالم، مثل الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك، ومثل فرعون الذي قال تعالى في شأنه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص: ٤].

وذكر الاستخلاف والتمكين وبيّن شروطه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[النور: ٥٥].

وبين الحقوق والواجبات على الحاكم والمحكوم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم

بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[النساء: ٥٨-٥٩] .

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: " هاتان الآيتان هما أساس الحكومة الإسلامية، ولو لم ينزل في القرآن الكريم غيرهما لكفتا المسلمين في ذلك إذا هم بنوا جميع الأحكام عليهما "(١)؛ ففي الآية الأولى : بيان الواجبات على الحاكم ، وفي الثانية : بيان الواجبات على المحكوم .

وأرسى مبدأ الشورى فقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وغيره ﷺ أولى بهذا الأمر مع عدم العصمة، وعدم التأييد بالوحي؛ لذلك وصف به المؤمنين، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾[الشورى: ٣٨] .

وبين العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وأحوال السلم، والحرب، والأمان، والعهد، فقال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[الأنفال: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾[التوبة: ٦] .

وتفاصيل هدايات القرآن الكريم في المجال السياسي يطول ذكرها، فالمقصود الإشارة إلى تحقيق القرآن الكريم لهذا المجال من الهدايات، وتفصيل ذلك في مظانه .

---

(١) تفسير المنار (٥/ ١٣٦) .

وفي المعاملات القضائية: أمر بتنصيب الحكام والقضاة بين الناس وأمرهم بالعدل الذي هو مقتضى الشرع، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [المائدة: ٤٩] .

وبيّن أن القضاء من عمل الرسل عليهم الصلاة والسلام ترغيبًا فيه، فقال تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ﴾ [ص: ٢٦]، وقال في رسوله صلى الله عليه وسلّم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، إلى آخر ما جاء في هذا الباب الواسع الشعب .

المطلب الثاني: المجالات المختلف فيها:

وهي المجالات العلمية، وهذا الموضوع يدرس في علم الإعجاز القرآني، وهو يتنوع إلى أنواع كثيرة، منها: الإعجاز العلمي في مجال العلوم الكونية، ومجال علوم الأنفس .

والسؤال المشهور هو:

هل نزل القرآن؛ لتحقيق هداية الإنسان، وبيان القدر الذي يفيده في الآخرة، أم أنّه فصّل في جميع العلوم الدنيوية، والمكتشفات العصرية؟

ولتحرير هذا الموضوع الدقيق نعرض للآراء فيه، ثم نبيّن ما يظهر منها بحسب ما تقتضيه الدلائل، والخلاف في هذا الموضوع على مذهبين رئيسين:

أولهما: مذهب من يرى أنّ القرآن الكريم فيه بيان لكل علم وصل إليه الإنسان، أو سيصل إليه إلى قيام الساعة؛ استدلالًا بالعموم في قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[النحل: ٨٩]، وبالكثير من الآيات التي تتحدث عن حقائق الكون والإنسان، وفي ذلك يقول الغزالي: " وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله سبحانه وتعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته، وأفعاله، وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية له، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، ففي القرآن إليه رموز، ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها "(١) .

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٩) .

وقال مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: " وللقرآن وجه اجتماعي من حيث تأثيرُه في العقل الإنساني، وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية، معجزة أصلية في تاريخ العلم كلّه، على بَسيط هذه الأرض، من لدُن ظهر الإسلامُ إلى ما شاء الله، لا يذهب بحقها اليوم أنها لم تكن قبلُ إلا سببًا، فإن في الحق ما يَسعُ الأشياء ، وأسبابها جميعًا .. ولعل متحققًا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظرَ فيه وكان بحيث لا تُعْوِزُهُ أداةُ الفهم ولا يلتوي عليه أمر من أمره .. لاستخرج منه إشارات كثيرة، تومئ إلى حقائق العلوم، وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها، وإن لم تسمها بأسمائها، بلى وإن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعَونًا على تفسير بعض معاني القرآن، والكشفِ عن حقائقه "[١] .

وقال الزرقاني رحمه الله: " القرآن الكريم يحض على الانتفاع بالكون .. اقرأ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾[النور: ٤٣]، قل لي بربك! ألا يمتلكك العجب حين تقرأ هذا النص القرآني الذي يتفق وأحدث الكشوف العلمية، في الظواهر الكونية؟.. فأثبتوا العلم أولًا، ووفروا له الثقة، حققوه ، ثم اطلبوه في القرآن فإنكم لا شك يومئذ واجدوه "[٢] .

والأقوال في تقرير هداية القرآن إلى العلوم الكونية كثيرة، وهو ما عليه أكثر المعاصرين .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص: ٨١) .

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٣٥٧) .

وأما المذهب الثاني: فهو مذهب الرافضين للإعجاز العلمي في القرآن، فهم يرون أنّ القرآن الكريم إنّما جاء للهداية الموصلة إلى الله تعالى، دون تفاصيل العلوم الدنيوية، وهم بين مانع للدليل الدال عليه، وبين متخوف على مصداقية القرآن؛ نتيجة لعدم ثبات كثير من النظريات العلمية .

ولعلّ من أشهر من يمثل هذا المذهب هو الإمام الشاطبي: حيث بيّن " أنّ كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الكريم الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين، من علوم الطبيعيات، والتعاليم[1]، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، وإلى هذا، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم، كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه، وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى "[2] .

وهو ما أيده الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله حيث قال: " أما أنا فاعتقادي أن الحق مع الشاطبي رحمه الله؛ لأن الأدلة التي ساقها لتصحيح مُدَّعاه أدلة قوية، لا يعتريها الضعف، ولا يتطرق إليها الخلل، ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة، دامغة، لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مُدَّعاهم "[3] .

---

(١) أي: الرياضيات والهندسة، كما في هامش الموافقات (٢/ ١٢٧) .

(٢) الموافقات (٢/ ١٢٧) .

(٣) التفسير والمفسرون (٢/ ٣٥٩) .

وقال سيد قطب رحمه الله: " إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي .. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم! إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب، ووظيفته، ومجال عمله، إن مجاله هو النفس الإنسانية، والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشئ تصورًا عامًا للوجود، وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود، وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظامًا للحياة، يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته "(١) .

وقال الشيخ محمود شلتوت رحمه الله: " إن طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقّنوا، أو تلقفوا شيئًا من النظريات العلمية، والفلسفية، والصحية، وغيرها، أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة، ويفسرون القرآن على مقتضاها .

نظروا في القرآن فوجدوا الله تعالى يقول: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨]، فتأوّلوها على نحوٍ زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحًا جديدًا، ففسروها على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويَدْعُون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية .

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٨١) .

نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله، فإذا مرت بهم آية فيها ذكرٌ للمطر، أو وصف للسحاب، أو حديث عن الرعد والبرق، تهلّلوا واستبشروا، وقالوا: هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب، وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح، وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال، أو يتحدث عن النبات والحيوان، وما خلق الله من شيء، قالوا: هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة، وأسرار الطبيعة، وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر، والكواكب والنجوم، قالوا: هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علم دقيق "[1].

ويقول محمد الصادق عرجون رحمه الله: " لا يجمل بنا أن نطلب من القرآن أن يشرح لنا نظريات العلم، والتحدث في تركيب الأشياء، وبيان جزيئاتها وأشكالها، وما يطرأ عليها من تغيير كيميائي أو طبيعي، كما تتحدث كتب الكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، لأن القرآن كتاب عقيدة، وهداية ، وعبر، وتهذيب للنفوس، وتطهير للأرواح والقلوب .. فإذا عرض لشيء من الآيات الكونية، فإنما يعرض لها باعتبارها مصدر هداية إلى عظمة الكون؛ لنصل على ضوئها إلى تعظيم الله خالق الكون.. "[2].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، لشلتوت (ص: ١١-١٣).

(٢) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين (ص: ٢٦٠) وما بعدها .

ومن خلال النظر في هذين المذهبين، والتنازع القوي بين الرأيين، وأن غاية الفريقين تعظيم القرآن الكريم ، يمكننا الخروج بقول يؤلف بينهما، ويدفع مآخذ كلّ منهما، ويحقق المصالح التي ينشدها الفريقان، وهي هداية القرآن للناس أجمعين، وبقاء تجليات هذه الهداية إلى يوم الدين، فنقول:

لا شك أن القرآن الكريم كتاب هداية، وتشريع يخاطب العالم في جميع الأزمنة والأمكنة؛ لتحقيق هذه الهداية، وهو هدفه الأسمى كما سبق، ولم ينزل أصالة لبيان تفاصيل العلوم بجزئياتها، وإلا لأوضحها وبينها بأدل عبارة، كما بين الأحكام بقسميها العقدي والتعبدي، وكما بين القدر الهادي من الأخبار السابقة واللاحقة .

ومع ذلك فهذا لا يمنع من وجود إشارات كلية، ودلائل إجمالية على بعض العلوم، يفهم معانيها المتقدمون، وقد يصل إلى حقائقها المتأخرون، وهو ما يسعى إليه المتحدثون عن الإعجاز العلمي ، وفي ذلك يقول الزرقاني رحمه الله: " القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق، قد حاكم الناس إلى عقولهم، وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض، وبر وبحر، وحيوان ونبات، وخصائص وظواهر، ونواميس وسنن،وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقا كل التوفيق، بل كان معجزا أبهر الإعجاز؛ لأنّ حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها المحيط بعلومها ومعارفها "[1] .

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٥-٢٦) .

وذلك كالحديث عن الكواكب والنجوم كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[الفرقان: ٦١]، ومراحل تكون الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

وإنّ القرآن الكريم في كلامه عن القضايا الكونية إنما أراد لفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض، وتعميق الإيمان بالله تعالى، وهي تُحقّق أنواعا من الهدايات المتنوعة، كالإقرار بوحدانية الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣].

وكالاستدلال بهذه المشاهدات على الغيبيات، ونلحظ ذلك حينما يذكر الله تعالى آياته المبصرة في السماء والأرض والأنفس ثم يلفت قلب المؤمن إلى أن ما أخبرك به من المغيبات يجب الإيمان به كالذي تراه من المشاهدات، فيقول سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠ – ٢٣].

قال البقاعي رحمه الله: " ولما أقسم بما له من المقدورات لمن وقف مع المحسوسات المشهورات، فترقوا بذلك إلى أعلى الدرجات، وانكشف ما له من الكمال انكشافًا تامًا، وعلم أن في خزائنه سبحانه كل ما أخبرت عنه به الرسل، من وعد ووعيد، سبب عنه قوله مقسماً بنفسه الأقدس، لكن بصفة مألوفة،

فقال: ﴿ فَوَرَبِّ ﴾ أي: مبدع ومدبر ﴿ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بما أودع فيهما مما علمتموه، وما لم تعلموه ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي: الذي توعدونه من الخير والشر والجنة والنار"(١).

ومثله الافتقار والتعبد لله تعالى، والتواضع حينما يعلم كيفية خلقه وحقيقة أصله، كما في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧ – ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[نوح:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار: ٦ – ٨]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[يس: ٧٧].

ومنه الإقرار بالبعث، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[القيامة: ٣٦ – ٤٠].

ولا بد أن يخضع هذا النوع من الإعجاز لقواعد وضوابط ومنهج الاستنباط المقرر في علوم القرآن، بعد التيقن من ثبوت الحقيقة العلمية من قبل

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٩).

المختصين[١]، ولا يكفي مجرد معرفة طرف من هذه العلوم ثم محاولة إسقاط القرآن عليها كما يفعله بعضهم، وهو من أهمّ تخوفات المانعين لهذا النوع من الإعجاز، ولإهمال هذا الأصل وقعت بعض التكلفات التي ينبغي تجنيبها عن القرآن، من نحو قولهم بنظرية الانفجار العظيم، وهي مجرد نظرية، يقول المنكرون لدلالة القرآن عليها: إنّه لا سبيل إلى إثباتها بأي وسيلة من وسائل العلم الحديث[٢]، ثم الاستدلال لها بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[الأنبياء: ٣٠]، فظاهر الآية إنما يبيّن كيفيّة خلق السموات والأرض التي فصلت في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ – ١٢].

وكالاستدلال على حركة الأرض بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[النمل: ٨٨]، وهي

(١) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د.عبدالله المصلح و د.عبدالجواد الصاوي (ص: ٣١).

(٢) ومفادها أن الكون بدأ قبل خمسة عشر مليار سنة تقريبًا، بكتلة واحدة، ثم انفجرت وتشتتت في أرجاء الكون، ومنها تكونت المجرات، والنجوم، والكواكب، ينظر: نقد النظريات الكونية لمحمد الإمام (ص: ٨٢).

آية تتحدث عن يوم القيامة ومرحلة من مراحل نسف الجبال، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه : ١٠٥]، فكلها متسقة متآلفة في تصوير ذلك اليوم العظيم(١) .

إذن فهذا العلم له أصله الشرعي والواقعي بضوابطه، كما أنّ له فوائد عديدة سبقت الإشارة إليها، منها:

- زيادة اليقين على وحدانية الله تعالى، وتعميق الإيمان به سبحانه، وتقديره وتعظيمه .

- الشهادة الإضافية على صدق القرآن، وصدق رسالة النبي ﷺ، حينما تثبت تلك الحقائق في زمان لم تكن فيه أدوات إثباته .

- وهو وسيلة لدعوة غير المسلمين في زمان سادت فيه لغة العلم، وتكشفت فيه معالم كثير من الظواهر .

وغيرها من الفوائد الكثيرة، والله أعلم (٢) .

---

(١) ينظر: الفرقان في بيان إعجاز القرآن لعبدالكريم الحميد (ص: ٣٢١) .

(٢) للتوسع في ذلك ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د.عبدالله المصلح، و د.عبدالجواد الصاوي (ص: ٣٥) .

المبحث الثالث

حال الناس مع الهدايات القرآنية

إعداد

د . ياسين حافظ قاري

حال الناس مع الهدايات القرآنية

تمهيد:

لقد شاء المولى سبحانه، ومضت سنته تعالى؛ وفقًا لحكمته الباهرة، وعلمه التام، وعدله اليقين: انقسام الناس في كل شيء، واختلافهم في كل أمر، فخلق الله تعالى الفرح والحزن، والليل والنهار، والأبيض والأسود .. ونحوها، فقد أخرج الترمذي في سننه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: " إنّ الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزْنُ والخبيث والطيب "[(١)].

قال الطيبي: " ولما كانت الأوصاف الأربعة من الأمور الظاهرة في الإنسان والأرض، أُجريت على حقيقتها، وتركت الأربع الأخيرة مفتقرة إلى تأويل؛ لأنّها من الأخلاق الباطنة، فإن المعني بـ (السهل) الرفق واللين، وبـ (الـحَزْنِ) الخرق والعنف، وبـ (الطَّيِّب) الذي يعني به الأرض العذبة: المؤمن الذي هو

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، برقم: (٢٩٥٥)، وقال: " هذا حديث حسن صحيح "، وأبو داوود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، برقم: (٤٦٩٣)، وأحمد في مسنده (٣٢/ ٣٥٣)، برقم: (١٩٥٨٢)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي، والأرناؤوط في تحقيقه لأبي داود .

نفع كله، وبـ (الخبيث) الذي يراد به الأرض السبخة: الكافر الذي هو ضر وخسران في الدارين " انتهى كلامه[١] .

فاختلاف الناس في كل شيء سنة إلـهية، ومنه اختلافهم في أصل الهداية إلى مهتد وضال، إلى طائع وعاص، إلى مؤمن وكافر به، كما دلّت نصوص القرآن الكريم على ذلك، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾[هود: ١١٨] .

يقول الطبري رحمه الله: " ولو شاء ربك يا محمد ﷺ لجعل الناس كلها جماعة واحدة على ملة واحدة، ودين واحد .. ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملل وأهواء شتى ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ فآمن بالله وصدق رسله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله "[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٩٩]، وقال عزّوجلّ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٨] .

وهكذا حال الناس مع القرآن:

فريق آمن به، وصدق ما جاء فيه، فآمن بمقتضياته ولوازمه من الاتباع

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي (٢/ ٥٦٤)، وانظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري (٨/ ٢٣٤) .

(٢) جامع البيان (١٥/ ٥٣٤) .

والتصديق والعلم والعمل، فاهتدى بهديه، واستنار بنوره ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤]، فكان من المتّقين ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة : ١ ، ٢] .

وفريق كفر به، ولم يؤمن بما جاء فيه من الآيات والبينات والهدى والنور المبين، واستحب الضلالة على الهداية، والغواية على الإيمان ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٣٣] .

يقول الله تعالى في بيان انقسام الناس إلى مهتد وضال في الهداية بالقرآن: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس : ١٠٨]، ويقول سبحانه: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الإسراء : ١٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[النمل: ٩٢]، ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر:٢٣] .

وبيّن تعالى في أكثر من آية أن اتباع القرآن سبب للهداية، والإعراض عنه سبب للشقاوة، يقول تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٣ ـ ١٢٦] .

والذين آمنوا بالقرآن، وصدقوا به ليسوا كلهم سواء، فهم متفاوتون في تلاوته، وحفظه، والعلم بمضمون آياته، واتباع أوامره واجتنابه نواهيه، فهناك فئام من الناس قد هجروا القرآن الكريم، وخاصة في الأزمنة المتأخرة.

وفي جواب للجنة الدائمة للإفتاء عن سؤال يتعلق بحكم هجر القرآن، أجابت اللجنة بقولها: " أنزل الله القرآن للإيمان به، وتعلمه وتلاوته، وتدبره والعمل به، وتحكيمه والتحاكم إليه، والاستشفاء به من أمراض القلوب وأدرانها، إلى غير ذلك من الحكم التي أرادها الله من إنزاله.

والإنسان قد يهجر القرآن، فلا يؤمن به، ولا يسمعه، ولا يصغي إليه، وقد يؤمن به، ولكن لا يتعلمه، وقد يتعلمه ولكن لا يتلوه، وقد يتلوه ولكن لا يتدبره، وقد يحصل التدبر ولكن لا يعمل به، فلا يحل حلاله، ولا يحرم حرامه، ولا يحكمه، ولا يتحاكم إليه، ولا يستشفي به مما فيه من أمراض في قلبه وبدنه، فيحصل الهجر للقرآن من الشخص، بقدر ما يحصل منه من الإعراض، كما سبق "[1].

فهجر القرآن الكريم " له جانبان:

أحدهما يتعلق بالقرآن دون أخذ له، وهذا صنيع الكفار والمنافقين.

والآخر يتعلق به بعد الإقرار بأنه كلام الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا صنيع بعض المسلمين الذين لا يقرؤون القرآن، أو يقرؤونه لا يجاوز حناجرهم، فلا يعملون به، ومن هؤلاء صنف يحفظ القرآن، أو شيئًا

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٤/ ١٠٣)، فتوى رقم: (٨٨٤٤).

منه، ثم يهجر القراءة، حتى ينسى ما قد يكون حفظه منه "[(١)].

وذكر ابن القيم رحمه الله وغيره أن هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه .

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به .

الثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه .

والرابع: هجر تدبره وفهمه .

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به .

وكل ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾[الفرقان:٣٠][(٢)] .

وهذه الآية الكريمة وقعها على النفس شديد، وأثرها في القلب عظيم، فالشاكي هو الرسول ﷺ، والذي يُشكى إليه هو رب العالمين جل في علاه، والشكوى: هجر القرآن، " وهذه شكوى عظيمةٌ، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر، والقصص، والأمثال "[(٣)]،

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، لعدد من المختصين بإشراف الشيخ الدكتور/ صالح بن عبد الله بن حميد (١١/ ٥٦٩١) .

(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ٨٢) .

(٣) أضواء البيان (٦/ ٤٨) .

وكل ذلك داخل في الهجران، نسأل الله تعالى السلامة والعافية، والستر في الدنيا والآخرة.

ومن هنا يظهر أهمية هذا المبحث؛ لما فيه من تذكير للنفوس، وتحذير من الوقوع في المحظور، للوصول إلى الاهتداء بهذا القرآن العظيم.

وبالنظر إلى ما تقدم فإن الحديث عن هذا المبحث سيكون ضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة.

المطلب الثاني: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التدبر.

المطلب الثالث: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار العلم والعمل به.

المطلب الرابع: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التداوي والاستشفاء به.

وهذه المطالب كل واحد منها تحتاج إلى مجلدات للحديث عنها وبيانها بالتفصيل، لكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، وأتمثل فيها ما قاله الإمام الزركشي رحمه الله عندما تحدث عن أنواع علوم القرآن ختم ذلك بقوله: " واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع، إلّا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ عُمُره، ثم لم يُحكم أمرَه، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله، والرمز إلى بعض فصوله، فإن الصناعة طويلة، والعمر قصير، ماذا عسى يبلغ لسان التقصير.

قالوا: خذ العين من كلٍّ، فقلت لهم: في العين فضل، ولكن ناظر العين "[١] .

هذا والله أسأل التوفيق والسداد، والإخلاص والقبول والرشاد ..

والحمد لله رب العالمين .

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢) .

المطلب الأول: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة:

أنزل الله تعالى كتابه على نبيه ومصطفاه ﷺ، وأمره بالاستماع إليه، والقيام بحقه، من التلاوة والحفظ والإتقان، للوصول إلى الهداية التي أرادها الله تعالى، والتي من أجلها أنزل كتابه على الناس، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]، فتعليق الرحمة هنا بالاستماع لآيات القرآن، والإنصات لها، دليل على أهميّة هذا الأمر في الاهتداء بهدي القرآن، وقد علم المشركون هذا الأمر فكانوا يتواصون بعدم سماعه، واللغو فيه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت : ٢٦].

والهداية بالقرآن الكريم لا تتحقق بمجرد إعمال حاسة السمع، لذا ذكر الله تعالى الاستماع والإنصات ليشمل: سمع الأذن، ووعي القلب، وإدراك العقل، وإجابة الجوارح .

يقول السعدي رحمه الله " والفرق بين الاستماع والإنصات:

أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث، أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه .

وأما الاستماع له: فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع .

فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتّب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم

يستمع له وينصت، أنّه محروم الحظ من الرحمة ، قد فاته خير كثير "[١] .

وفي دراسة قيمة لابن القيم رحمه الله عن السماع وأهميته يقول: " فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسه .. وحقيقة السماع: تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها طلبًا وهربًا، وحبًا وبغضًا.. "، ثم قال رحمه الله في بيان السماع الذي مدحه الله في كتابه، وأمر به وأثنى عليه: " فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه، وهو على ثلاثة أنواع:

- سماع إدراك بحاسة الأذن .
- وسماع فهم وعقل .
- وسماع فهم وإجابة وقبول .

والثلاثة في القرآن .. والمقصود أن سماع خاصّة المقربين هو: سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابةً، وكل سماع في القرآن الكريم مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه، فهو هذا السماع .. فهذا السماع حاد يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحركٌ يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات، وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليلٌ يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قِبل فالق الإصباح: حي على الفلاح ، حي على الفلاح .

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣١٤) .

وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشادًا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تقى، وجلاءً لبصيرة، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً، وعصمة ونجاةً، وكشفَ شبهةٍ، وإيضاح برهانٍ، وتحقيقَ حقٍّ، وإبطالَ باطل .. "(١).

وكما أمر سبحانه وتعالى عباده بالاستماع والإنصات، أمر الله نبيه ﷺ، والناس من بعده بتلاوة القرآن، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ ﴾ [الكهف:٢٧]، وقال سبحانه: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ ﴾[النمل: ٩١، ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾[المزمل : ٢٠] .

ففي هذه الآيات ومثيلاتها أمر من الله تعالى لنبيه بأن يتلو القرآن، وهذا الأمر يشمل أمته من بعده عليه الصلاة والسلام، والأمر هنا بـ: ﴿ ٱتۡلُ ﴾ " شامل للتلاوة بمعنى القراءة، والتلو بمعنى الاتباع "(٢) .

كذلك أثنى الله تعالى على عباده الأتقياء الأنقياء الأصفياء بتلاوة القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : ٢٩]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ

(١) مدراج السالكين (١/ ٤٧٧ ـ ٤٨٢) .

(٢) أضواء البيان (٣/ ٢٦١) .

ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[البقرة : ١٢١]
ففي هذه الآية الكريمة ربط الله تعالى بين تلاوة القرآن والإيمان به .

وتلاوة القرآن الكريم لا بد أن تكون على مهل وتأمل، كما أمر الله تعالى فقال: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[المزمل : ٤]، والترتيل: " هو أن يذكر الحروف والكلمات مُبيَّنةً ظاهرة، والفائدةُ فيه: إنه إذا وقعت القراءة على هذا الوجه، فَهِم من نفسه معانيَ تلك الألفاظ، وأفهم غيره تلك المعاني، وإذا قرأها بالسرعة لم يَفهم ، ولم يُفهِم، فكان الترتيل أولى "[١] .

وما أجمل ما قاله الفخر الرازي في فائدة الأمر بالترتيل، حيث قال: " واعلم أنّه تعالى لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن[٢]، حتى يتمكّن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله، يستشعر عظمته وجلالته، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد، يحصلُ الرجاءُ والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدلُّ على عدم الوقوف على المعاني؛ لأنّ النفس تبتهج بذكر الأمور الإلـهية الرُّوحانية، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئًا لم يمُرَّ عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب، وكمال المعرفة "[٣] .

---

(١) مفاتيح الغيب (١/ ٦٩) .

(٢) هذا على قول من قال: إنّ الأمر هنا متعلق بقيام الليل، وذهب جماعة من المفسرين إلى أنّ الأمر بالترتيل عام عند تلاوة القرآن الكريم، وهذا قال عنه ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٠): " وهذا أولى؛ لأنّ القراءة في الصلاة تدخل في ذلك " .

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٣) .

ويقول السعدي رحمه الله: فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له "[١].

فالمقصود إذًا من قراءة القرآن على مهل وروية هو تحقيق ما أراده الله تعالى من إنزال كتابه، وهو: تدبره، والتأثّر بآياته، والعمل به، والاهتداء بهديه، كما قال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[البقرة : ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١ ، ٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾[لقمان: ١ ، ٢] .

والآيات في هذا الباب كثيرة .

فقراءة القرآن الكريم، وكثرة الاستماع لآياته، سبب من أسباب التأثر به، والاهتداء بهديه، فكلما أكثر المسلم من قراءة القرآن، والاستماع له، كلما زاد إيمانه، وقوي يقينه، واهتدي بهديه، فالقلوب " لا تضيء ولا تشرق إلا بتلاوة القرآن، والعمل به "[٢] .

روي عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: " إن هذا القرآن كائن لكم أجرًا، وكائن لكم ذكرًا، وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم، فإنه من يتبع

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٩٢) .

(٢) موسوعة الأخلاق، لخالد بن جمعة الخراز (ص: ٨٤) .

القرآن يَهبط به على رياض الجنة، ومن يتْبعه القرآن يزخ في قفاه[١]، فيقذفه في جهنم "[٢].

وأحوال الناس مع تلاوة القرآن الكريم بينها النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: " إنّ مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمر لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح، وطعمها مر "[٣].

فالمؤمن القارئ للقرآن لا شك في أنه قد طبق مراد الله تعالى في كتابه، واستجاب لأمره، فاستفاد بتلاوته، واهتدى بهديه، وقد كان هدي النبي ﷺ الإكثار من تلاوة القرآن الكريم، في جميع أحواله، وأوقاته، تاليًا لآياته، في نهاره وليله، حال قيامه وقعوده واضطجاعه، في سيره وركوبه .

وقد وصف ابن القيم رحمه الله هدي النبي ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه وبكائه بقوله: " كان له ﷺ حزبٌ يقرؤه، ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلاً لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسَّرةً حرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمدُّ عند حروف المد .. وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وأمر عبد

(١) الزخ هو الدفع، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٩٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب في التمسك بالقرآن، برقم: (٣٤٨٢١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، برقم: (٥٤٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، برقم: (٧٩٧) .

الله بن مسعود ﷺ فقرأ عليه وهو يسمع، وخشع صلى الله عليه وسلّم لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه، وكان يقرأ القرآن قائمًا، وقاعدًا، ومضطجعًا، ومتوضئًا، ومُحدِثًا، ولم يكن يمنعه من القراءة إلا الجنابة .. "[١].

كل ذلك امتثالًا لأمر ربه تعالى، وكذا سار من بعده من الصالحين الأتقياء من الصحابة الكرام، والتابعين العظام، ومن سار على نهجهم واتبع خطاهم إلى يوم المقام، فكان الصحابة رضوان الله تعالى إذا لقي أحدهم أخاه يقول له: " اجلس بنا نؤمن ساعة "[٢]، يعني: نذكر الله تعالى، ولا شك أنّ أعلى مراتب ذكر الله تعالى هو تلاوة كتابه، وكانوا رضوان الله تعالى من أحرص الناس على تلاوة القرآن وختمه، ولهم في هذا أحوال وفتوحات ليس هذا مقام ذكرها وإيرادها، كل ذلك استجابة لأوامر الله تعالى، ونبيه ﷺ .

ثمرات استماع وتلاوة القرآن الكريم:

لاستماع القرآن الكريم، وتلاوة آياته - حسب ما أراد الله تعالى - فوائد كبيرة، وثمرات عظيمة، من أهمها:

١/ حصول المراد من الاهتداء به، والوقاية من سوء العاقبة: إن تلاوة القرآن

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٦٣ ـ ٤٧٥) .

(٢) أخرج ابن أبي شيبة وغيره عن معاذ بن جبل ﷺ أنه كان يقول لرجل من إخوانه: " اجلس بنا فلنؤمن ساعة "، فيجلسان يتذاكران الله ويحمدانه، وهذا الأثر ذكره البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ : " بني الإسلام على خمس .. "، وأخرجه مسندا ابن ابي شيبة في مصنفه واللفظ له (٦/ ١٦٤)، برقم: (٣٠٣٦٣)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٣٦٨)، برقم: (٧٩٦) .

الكريم، وتشنيف الآذان بالاستماع لآياته أقرب السبل الموصلة للهداية به: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء : ٩]، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: " من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه: ١٢٣] "(١).

٢/ إلقاء السكينة في قلب قارئ القرآن، وذكر الله تعالى لهم في الملأ الأعلى، قال عليه الصلاة والسلام: " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده "(٢).

وهذا الحديث العظيم اشتمل على أربعة خصائص خصَّ الله تعالى بها أهل القرآن، الذين يتلون كتابه ويتدارسونه بينهم:

الخاصية الأولى: نزول السكينة عليهم، وهي: " الطمأنينة والراحة النفسية ، فلا يصيبهم ما يملأ قلوب الآخرين من قلق واضطراب، وأمراض نفسية وعقد ومخاوف، جعلت حياة هؤلاء جحيمًا لا يطاق "(٣).

(١) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه (٣/ ٣٨١)، برقم : (٦٠٣٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (٦/ ١٢٠)، برقم: (٢٩٩٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، برقم: (٢٦٩٩).

(٣) ورتل القرآن ترتيلًا، للدكتور/ أنس كرزون (ص:٢١).

ووقوع السكينة في القلب مِنّة من الله تعالى، وفضل عظيم منه سبحانه، يختص بها عباده المؤمنين ليزدادوا إيمانًا، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[الفتح : ٤] .

والمراد من السكينة[١] : الطمأنينة والوقار وسكون القلب، وحسن هذا المعنى النووي، وقيل: الرحمة، قال القاضي عياض: وهذا أليق الوجوه هنا، وقيل: صفاء القلب بنوره وذهاب ظلمته النفسانية، وحصول الذوق والشوق، وقيل: السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه ويأمره بالخير .

الخاصية الثانية: تغشاهم الرحمة: أي: تغطيهم، والرحمة هنا: رحمة الله تعالى[٢]، " ورحمة الله تعالى خير لهم مما يجمعه أهل الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الزخرف : ٣٢] عند ذلك نعلم يقينًا أن ما يجنيه أهل مجلس التلاوة والمدارسة من الخير العظيم لا يوزايه كل شيء يجمعه أهل الدنيا من الحطام الزائل "[٣].

الخاصية الثالثة: تحفهم الملائكة: أي تحيط بهم ملائكة الرحمة والبركة، وتقرب منهم حتى لا تدع فرجًا للشيطان، وذلك تعظيمًا لصنيعهم، واستماعًا لتلاوتهم

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للقاضي عياض (٨/ ١٩٥)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢١)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٨٧)، والتحبير لإيضاح معاني التيسير للأمير الصنعاني (١/ ٦٢٧)، وتحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي (٨/ ٢١٦) .

(٢) شرح الأربعين النووية للشيخ ابن عثيمين (ص:٣٥٨) .

(٣) هجر القرآن العظيم أنواعه وأحكامه، للدكتور/ محمود بن أحمد الدوسري (ص: ٤٤٢) .

وقراءتهم، يحفظونهم بأمر الله تعالى من الآفات، ويؤمنون على دعائهم، ويستغفرون لهم"(١).

الخاصية الرابعة: وهي أهمها وأعظمها: يذكرهم الله تعالى فيمن عنده: ثناءً لهم لتدارسهم كلامه سبحانه، وتلاوتهم آياته، " وأي مكانة أكرم وأعظم من أن يذكر الله جل جلاله، وتقدست أسماؤه، عبدَه الفقير الضعيف، فيمن عنده في الملأ الأعلى "(٢).

وقد ورد من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه "(٣).

فأي خير وبركة أعده الله تعالى لأهل القرآن أعظم من هذا ؟!!

٣/ براءة المستمع والمنصت لآيات القرآن الكريم من الغفلة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤-٢٠٥].

٤/ سلامة العقل وصحة البدن، يقول عبد الملك بن عمير رحمه الله: " كان

---

(١) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص:١٢١)، ومشارق الأنوار الوهاجة، ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، لمحمد بن علي بن آدم (٤/ ٣٤٢).

(٢) هجر القرآن العظيم للدوسري (ص: ٤٤٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم: (٢٦٧٥).

يقال: إنّ أبقى الناس عقولًا: قراء القرآن "[١].

أما صحّة البدن فإن القرآن الكريم شفاء من جميع الأمراض القلبية والجسدية، وقد أثبت الطب الحديث أن تلاوة القرآن الكريم، وسماع آياته بشكل مستمر، يشفي بأمر الله تعالى من كافة الأمراض الحسية والنفسية، كما سيأتي مفصلًا بأمر الله تعالى، يقول الدكتور/ عبد الدائم الكحيل: " إن الاستماع إلى القرآن يؤدي إلى تنشيط عمل القلب واستقراره، وإزالة التوتر والاضطراب، وبالتالي اطمئنان القلب، وهو ما ينعكس على عمل بقية أجهزة الجسم "[٢].

٥/ الاستماع للقرآن الكريم، والإنصات له، وتلاوته حقّ تلاوته، يحقق في القلب حقيقة التوكل على الله تعالى، واليقين به تعالى، فـأهل القرآن "يفوضون إليه أمورهم، ويثقون به، ولا يرجون غيره، ولا يخافون سواه "[٣]، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال : ٢ ـ ٤]، فقوله: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: " يتوكلون على ربهم وحده، لا يتوكلون على غيره، ولا يفوضون أمورهم إلى سواه سبحانه، كما أفاده تركيب الجملة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يرجون غيره .

والتوكّل أعلى مقامات التوحيد، فإن من كان موقنًا بأن ربه هو المدبر لأموره

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (٦/ ١٢٠)، برقم: (٢٩٩٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٣٥)، برقم: (٢٤٥٢) .

(٢) عالج نفسك بالقرآن (ص: ١١) .

(٣) معالم التنزيل (٣/ ٣٢٦)، وانظر: جامع البيان (١٣/ ٣٨٥) .

وأمور العالم كلهم، لا يمكن أن يكل شيئًا منها إلى غيره .. فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده، وإليه يتوجه، وإياه يدعو فيما يطلبه منه .. "(١) .

٦/ حصول البركة لقارئ القرآن الكريم، فعن أبي أمامة الباهلي ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة "(٢) .

وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قلت: يارسول الله! أوصني، قال: " عليك بتقوى الله، فإنه رأس الأمر كله "، قلت: يارسول الله! زدني، قال: "عليك بتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء "(٣) .

٧/ كثرة التلاوة سبب للرفعة في الدنيا والآخرة، فعن عامر بن واثلة أن نافع بن عبدالحارث ﷺ، لقي عمر ﷺ بعُسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى ؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئٌ لكتاب الله تعالى، وإنّه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: " إنّ الله يرفع بهذا الكتاب

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ أطول، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، برقم: (٨٠٤) .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه في حديث طويل يجمع العديد من الوصايا، (٢/ ٧٦ـ ٧٩)، برقم: (٣٦١)، وحسّنه لغيره الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٦٤)، برقم: (١٤٢٢) .

أقواماً ويضع به آخرين "(١) .

كما أنّ تلاوة القرآن الكريم تورث الدرجات العلى في الجنان، حيث: " يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتق، ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها "(٢) .

فكلما أكثر المسلم من تلاوة القرآن كلما زاد رفعة في الدنيا، ورفعة الدرجات يوم القيامة، فقارئ القرآن له بكل حرف عشر حسنات .

يقول عليه الصلاة والسلام: " من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف "(٣) .

وأخرج الحاكم من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: " إِنَّ هذا القرآن مأدبةُ الله، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبلُ الله، والنور المبينُ، والشِّفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاةٌ لمن تبعَه، لا يزيغُ فيُستعتب، ولا

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، برقم: (٨١٧) .

(٢) أخرجه أبو داوود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب في استحباب الترتيل في القراءة، برقم: (١٤٦٤)، واللفظ له، وأحمد في مسنده (٦/ ٣١٣، ٣١٤)، برقم: (٦٧٩٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني .

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر، برقم: (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وجود إسناده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٢٦٣) برقم: (٦٦٠) .

يَعوجُّ فيُقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخلق من كثرة الرد، اتلوهُ فإن الله يأجركم على تلاوته كلَّ حرف عشرَ حسنات، أما إني لا أقول ألم حرف، ولكن: ألفٌ ولامٌ وميم "[١].

٨/ سبب للشفاعة ودخول الجنة بأمر الله تعالى، حيث أخبر النبي ﷺ ذلك فقال: " اقرؤوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تُحاجان عن أصحابهما .. "الحديث[٢].

وعن بريدة بن الحُصيب رضي الله عنه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: " تعلَّموا سورة البقرةِ، فإنَّ أخذها بركةٌ، وتركُها حسرةٌ، ولا يستطيعها البطلة " قال: ثم سكت ساعة ثم قال: " تعلّموا سورة البقرة وآل عمران، فإنَّهما الزَّهراوان ، يُظلاَّن صاحبَهما يوم القيامة كأنَّهما غَمامتان، أو غيايتانِ، أو فرقان من طيرٍ صوافَّ، وإنَّ القُرآن يَلقَى صاحبَهُ يومَ القيامةِ حين ينشقُّ قبرُهُ كالرجُلِ الشاحبِ، فيقول له: هل تعرفُني؟ فيقول: ما أعرفُكَ؟ فيقول: أنا صاحبُك القرآنُ الذي أظمأتُكَ في الهَواجرِ، وأسهرتُ ليلكَ، وإنَّ كلَّ تاجرٍ من وراء تجارتِهِ، وإنَّكَ اليوم مِنْ وراء كلِّ تجارة، فيُعطى الـمُلك بيمينه، والـخُلدَ بشماله،

---

(١) المستدرك على الصحيحين (١/ ٧٤١)، برقم: (٢٠٤٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، واللفظ له، ورواه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (١/ ١٧)، برقم: (٤)، وصحح محققه أسانيده موقوفًا .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، برقم: (٨٠٤).

ويُوضع على رأسهِ تاجُ الوَقارِ، ويُكسى وَالداهُ حُلَّتين لا يُقوَّم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا ؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ، واصعد في درج الجنة وغُرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذًّا كان ، أو ترتيلًا "[١] .

وغيرها الكثير والكثير من الفوائد والثمرات التي تحصل لقارئ القرآن الكريم، والمستمع لآياته، وأما من هجر ذلك، وجعل كتاب الله العظيم آخر همه، حرم ذلك، ووكَلَهُ الله تعالى لنفسه، وخُشي عليه من الشقاء في الدنيا والآخرة، وأي حرمان أعظم من حرمان التلذذ بتلاوة القرآن الكريم، وسماع آياته، وتدبر كلامه، وقد أخبر النبي ﷺ أنّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب[٢]، أي: أنه لا ينتفع بالقرآن كما لا ينتفع بالبيت الخرب " فمن لم يكن في جوفه شيء من القرآن يحفظه ، لا نفع فيه لنفسه ولا لغيره "[٣] .

---

(١) الحديث بطوله أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨ / ٤١، ٤٢)، برقم: (٢٢٩٥٠)، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٤)، وقال عن إسناده: " وهذا إسناد حسنٌ على شرط مسلم "، وكذا حسن إسناده في المتابعات والشواهد الشيخ شعيب الأرناؤوط ومن معه في تحقيق المسند .

(٢) أخرج الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب، برقم: (٢٩١٣)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٥٩)، برقم: (١٩٤٧)، والحاكم في مستدركه (١/ ٧٤١)، برقم: (٢٠٣٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: " إنّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب"، قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وذكره الألباني في ضعيف سنن الترمذي .

(٣) التحبير لإيضاح معاني التيسير للصنعاني (١/ ٦٤٠) .

والخَرِب ـ بفتح الخاء وكسر الراء ـ أي الخراب؛ لأنّ عمارة القلوب بالإيمان وقراءة القرآن، وفي الحديث تشبيه خلو القلب من القرآن بالبيت الخرب، ووجه الشبه بينهما: " أنّ القرآن إذا كان في الجوف يكون عامرًا مزينًا بحسب قِلَّة ما فيه وكثرته، وإذا خُلِّي عما لا بد له منه من التصديق، والاعتقاد الحق، والتفكر في آلاء الله ومحبّه وصفاته، يكون كالبيت الخرب الخالي عما يعمره من الأثاث والتجمل "[(١)] .

المطلب الثاني: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التدبر:

إن تدبّر القرآن الكريم هو الغاية العظمى التي من أجله أنزل الله تعالى كتابه، لا مجرد تلاوته وسماع آياته، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩]، يقول الشوكاني رحمه الله: " وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه ، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر "[(٢)] .

لذا حثّ عليه الشرع وأمر به، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾[المؤمنون: ٦٨] يعني: القرآن[(٣)]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء:٨٢]، وقال تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[محمد:٢٤]، فهذه الآيات ومثيلاتها تبين أهمية

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا (٤/ ١٤٧٠) .

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٩٤) .

(٣) انظر: تفسير السمعاني (٣/ ٤٨٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٣٩) .

تدبر كلام الله تعالى، وأنّه هو المقصود الأعظم من إنزاله على الناس .

يقول السعدي رحمه الله عند تفسير قوله: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: " أي: هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأنّ القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود "[1] .

فالمقصود من التدبر إذًا هو: النظر في القرآن الكريم، والوصول إلى فهم آياته؛ للانتفاع بها، والاهتداء بهديها .

يقول ابن القيم رحمه الله: " وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّدُ تلاوته بلا فهم ولا تدبر "[2]، فتدبر القرآن هو: " التأمّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه، وعواقبه، ولوازم ذلك "، أو هو: " الوقوف عند الآيات، والتأمل فيها؛ للانتفاع بها إيمانًا وعلمًا وعملًا "[3] .

وهذا هو المقصود الأعظم من تلاوة القرآن الكريم وسماع آياته .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٩) .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٩).

(٣) مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة والآثار، للدكتور/ محمد الربيعة (ص:١٧٨)، ضمن مطبوعات أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم .

يقول ابن القيم رحمه الله: " إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خاطب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أنّ تمام التأثير لـمَّا كان موقوفاً على مؤثر مُقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ، وأبينه، وأدله على المراد .. "، ثم قال نقلًا عن ابن قتبة معلقًا: " استمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم، وليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع، وهو اشتغال القلب، وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر، وهو: الانتفاع والتذكر .. "[١].

فوائد تدبر القرآن الكريم وثمراته:

لتدبر كلام الله تعالى فوائد عديدة ، وثمرات يانعة كثيرة، من أهمها[٢]:

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٣) .

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٨١ ـ ١٩٠)، ومدارج السالكين (١/ ٤٤٩) وما بعدها، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ١٩٨ـ ١٩٠)، وتفسير المنار (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، وأفلا يتدبرون القرآن (ص:١٦٥ـ٢٢١)، وفتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص:٢١٠ـ٢١٢)، ومفهوم التدبر تحرير وتأصيل، للدكتور/ خالد السبت (ص:١٦٥)، ضمن مطبوعات أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم .

١/ أنّ التدبر لآيات القرآن الكريم يؤدي إلى الإيمان به، والتصديق بآياته، واليقين بحقيقته، فيستجيب لأوامره ، ويبتعد عن نواهيه، يقول السعدي رحمه الله: " ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنّه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنّه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء : ٨٢] أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا "[١].

٢/ أنّه يوصل إلى معرفة الرب سبحانه وتعالى، " وما له من صفات الكمال، وما ينزّه عنه من صفات النقص"[٢]، فيصل بالعبد إلى تحقيق العبودية له سبحانه، فمن عرف الرب حقيقة المعرفة، وصل إلى هذه الغاية .

يقول سيد قطب رحمه الله: " تدبّر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير "[٣] .

٣/ الوصول إلى معرفة الطريق الموصلة إلى الرب تبارك وتعالى، فيسير عليها،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٠) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٩) .

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٩٧) .

وفي مقابل ذلك معرفة العدو الحقيقي والطريق الموصلة إلى العذاب الأليم، فيبتعد عنها .

يقول ابن القيم رحمه الله: " فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلِع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتُتُلّ في يده[1] مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبِّت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه .. وتُشهده عدل الله وفضلَه، وتعرِّفهُ ذاته وأسماءَه وصفاته وأفعاله .. وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قَدِم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه ، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه .. "[2]، ويشير إلى هذه الفائدة أو الثمرة من ثمرات التدبر فيقول: " ويُعرِّف الطريق الموصلة إليه ، وصفة أهلها وما لهم عند القدوم عليه، ويُعرف العدو، الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب،

---

(١) تلَّ يتِل ـ بالكسر ـ إذا سقط ، وتلَّ في يده يَتُل: إذا صبَّ . انظر: تاج العروس (مادة: تلل)، وقد يكون بمعنى الوضع، ومنه حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: " نصرت بالرعب، وأعطيت جوامع الكلم، وأُحلَّ لي المغنم، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض، فتُلت في يدي " . أخرجه أحمد في مسنده برقم: (١٠٥١٧)، والحديث في الصحيحين بلفظ: (البخاري برقم: ٢٩٧٧، ومسلم برقم: ٥٢٣): " فوُضعت في يدي " .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٠) .

وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب الغفلة "[١].

٤ / بالتدبر يصل العبد إلى كثرة العلم وزيادته، فالعبد كلما ازداد تأملًا فيه، ازداد علمًا وعملًا وبصيرة[٢].

يقول ابن القيم رحمه الله في التفريق بين التذكر والتفكر: " وكلّ من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه؛ ليرسخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب، فالتفكر يحصله، والتذكر يحفظه .. "[٣].

٥ / الوصول إلى السعادة الحقيقة في تدبر القرآن الكريم، يقول ابن القيم رحمه الله: " فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطِع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتُلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبِّت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه .. "[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٩) .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص١٨٩) .

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣) .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٥٠) .

وغيرها من الثمرات، التي في جملتها تفيد على صعيد بناء الفرد المسلم، من حيث الوصول إلى قوة يقينه بكتاب ربه، وطهارة قلبه، وتزكية نفسه، وتحسين أخلاقه، وحل مشكلاته المادية والنفسية والصحية، وشحذ همه .

وتفيد كذلك على صعيد المجتمع، والنهوض بالأمة الإسلامية، فلو " ذهبنا نتتبع التاريخ لوجدنا كل انتكاسة وكل هزيمة تنزل بالمسلمين، إنما سببها مخالفتهم لتعاليم دينهم الحنيف، وترك العمل بشيء من كتاب ربهم وسنة نبيهم، هذا العمل هو لازم من لوازم تدبر الكتاب "[(١)] .

يقول محمد رشيد رضا رحمه الله: " وسرّ القرآن لو أنّ المسلمين استقاموا على تدبر القرآن والاهتداء به في كل زمان، لما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم واستبد حكامهم، ولما زال ملكهم وسلطانهم، ولما صاروا عالة في معايشهم وأسبابِها على سواهم "[(٢)].

وبالجملة " فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة، والشوق، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والرضا، والتفويض، والشكر، والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما

(١) انظر: أفلا يتدبرون القرآن للدكتور/ ناصر العمر (ص١٦٥ ـ ٢١٥) .

(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٤١) .

سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاجًا إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف .. فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب "[1].

واعلم أن من أهم ما يعين المسلم على تدبر القرآن الكريم[2]:

١ / الخلوة مع القرآن، وقيام الليل .

٢ / الخشوع والبكاء عند تلاوة آياته .

٣ / ترك الذنوب والمعاصي .

٤ / ترتيل القرآن، ومراعاة أحكام التلاوة، وتحسين الصوت .

٥ / كثرة الاستماع والإنصات للقرآن .

٦ / تكرار الآيات، " وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح "[3].

٧/ التأدب بآداب القرآن من التطهر، والتسوك، واختيار المكان المناسب .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧) .

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٨٥-٩٥)، تفسير المنار (٨/ ٤٠٦)، وموسوعة الأخلاق لخالد بن جمعة الخراز (ص:١٨٥)، والتدبر مفتاح العلم وباب العمل، للشيخ الدكتور/ سعود بن عبد الله الفنيسان (ص:٢٩٠) مطبوع ضمن مطبوعات الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل، ومفاتيح تدبر القرآن لخالد اللاحم (ص: ١٩ـ ٧١)، وهجر القرآن العظيم للدوسري (ص: ٥٤٩ ـ ٥٦٢) .

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧) .

ونحوها .

٨/ تدارس القرآن .

٩/ الاطلاع على كتب التفسير .

والمقصود من هذا كله: الانتفاع بالقرآن الكريم عند سماع آياته وتلاوته، فلا بد من حضور القلب، وإعمال الذهن، والتفكر في الآيات، للوصول إلى المراد من تدبر كلام الله سبحانه جل في علاه، والناس في هذا فريقان:

فريق علم المقصود، واتبع المراد، فقرأ القرآن كما أراد رب العباد، فاهتدى بهديه، وانتفع بكلام ربه، فاستحق بذلك أن يكون من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته، وتحققت فيه ثمرات التدبر، كل على حسبه، فمنهم المكثر ومنهم المقل، فتدبر القرآن الكريم يتنوع بحسب تنوع مطالب المتدبرين، وكلٌّ في ذلك على حسب ما أعطاه الله تعالى من الفهم والفقه ، يقول ابن القيم رحمه الله: " والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف: ضمُّه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا بابٌ عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به .."[(١)].

(١) إعلام الموقعين (ص: ٢٦٧)، وانظر: مفهوم التدبر للسبت (ص: ١٧٢، ١٧٣) .

وفريق أعرض عن المقصود، حتى وإن تلا القرآن بلسانه، فلم يتدبر كلام الله، ولم ينتفع بهدي القرآن، وهؤلاء أنكر الله تعالى عليهم ذلك، ووبخهم على إعراضهم عن تدبر القرآن وبين سبحانه أنّ على قلوبهم أقفالًا لا تنفتح لفهم القرآن: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد : ٢٤]، " وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله جاء موضحاً في آيات كثيرة .. ومعلوم أن كلَّ من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم، أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها، فإنه معرضٌ عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر .. فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه ، والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له ، من أعظم المناكر وأشنعها "(١) .

وفي بيان قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٦] ذكر ابن القيم رحمه الله أنّ الناس في الذكرى على ثلاثة أقسام:

الأول: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه .

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوّة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه لكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى مع

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٦) .

استعداده ووجود قلبه .

الثالث: رجل حيٌّ القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع، وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة .

فالأول والثاني لا ينتفعان بالقرآن لأنهما لم يتدبرا آياته ، فالأول بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر، والثاني بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه .

أما الثالث فهو البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه[١] .

ولهجر القرآن أسباب[٢] أجملها في:

١ / مقاربة الذنوب والإصرار عليها، والوقوع في البدع[٣] .

٢ / انشغال القلب عن القرآن .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤١)، وموسوعة الأخلاق لخالد بن جمعة الخراز (ص١٧٧) .

(٢) انظر : أفلا يتدبرون القرآن للدكتور/ ناصر العمر (ص١٥٧ ـ ١٦٤)، وفتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص: ٢١٥ ــ ٢٢١)، وهجر القرآن العظيم للدوسري (ص : ٥٣٦ ــ ٥٤٥) .

(٣) يقول ابن قدامة: " فإن التدبر هو المقصود من القراءة .. وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها .. وليتخلَّ التالي من موانع الفهم .. ومن ذلك أن يكون التالي مصرًّا على ذنب، أو متصفًا بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، فهو كالجرب على المرآة، يمنع من تجلى الحق، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة " . مختصر منهاج القاصدين (ص: ٥٣، ٥٤) .

٣ / الجهل باللغة العربية .

٤ / عدم قراءة كتب التفسير .

٥ / عدم التأني عند تلاوة القرآن .

٦ / الاهتمام بكثرة التلاوة على التدبر .

وعليه؛ فإنّ من حرم تدبر القرآن الكريم حرم الخير كله؛ لأنّه " لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فقه فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر معها "[(١)] .

فنسأل الله تعالى ألا يحرمنا ذلك، ويعيننا على تدبّر كلامه .

---

(١) قاله علي بن أبي طالب ﷺ، وقد أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣٣٨)، برقم: (٣٠٥)، وأبو داوود في الزهد (ص: ١١٥)، برقم: (١٠٤)، وضعّفه محقّق سنن الدارمي .

المطلب الثالث: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار العلم والعمل:

إنّ الهدف الأسمى، والغاية العظمى من تلاوة القرآن الكريم، وسماع آياته، وتدبره: هو العمل به بعد العلم بمضمونه، فإن من لوازم التدبر العلم، ومن مقتضيات العلم العمل، فأسعد الناس بالعلم، وأحسنهم حظًا، وأزكاهم فؤادًا، وأشرفهم منزلة عند الله، من يطلبه لمرضاة الله، والعمل به، والاهتداء بنوره، والامتثال لأمره[(١)].

والعلم لا بد أن يكون قبل العمل، لذا بدأ به المولى سبحانه فقال: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[محمد: ١٩]، فالأمر في: ﴿ فَٱعْلَمْ ﴾كناية عن طلب العلم، وهو العمل بالمعلوم، "، ومن اللطائف القرآنية أنّ أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾، قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾"[(٢)].

وقد بوَّب البخاري رحمه الله في صحيحه بابًا بعنوان: باب العلم قبل القول والعمل[(٣)]، ذكر فيه جملة من النصوص في القرآن والسنة في فضل العلم وأهله، وهو يريد بذلك كما قال ابن المنير رحمه الله: " أنّ العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يُعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنّه مصححٌ للنية المصححة

---

(١) فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص: ٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم (١/ ٢٤).

للعمل، فنبه المصنف على ذلك، حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إنّ العلم لا ينفع إلا بالعمل، تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه "(١).

والعمل بالقرآن معناه: تصديق أخباره، واتباع أحكامه، واتخاذه شرعة ومنهاجًا، فيأتمر بأمره، وينتهي عن نواهيه، ويحتكم إليه في جميع شؤونه الخاصة والعامة، حتى يصير القرآن حياته، ويصبح كأنّه قرآن يمشي على الأرض(٢)، وهذا ما أشارت إليه أم المؤمنين عائشة ب بوصفها لرسول الله ﷺ: " كان خلقه القرآن "(٣).

وهذا كان هدي سلف الأمة - رضوان الله تعالى - عليهم مع القرآن، قرؤوا القرآن فحفظوه، وعلموا ما فيه، وعملوا بآياته، فحللوا حلاله، وحرموا حرامه، فتعلموا العلم والعمل معًا، ووقر الإيمان في قلوبهم، يقول أبو عبدالرحمن السلمي-:- مبينًا منهج أصحاب النبي ﷺ في تعلم القرآن، برعاية المربي الأول عليه الصلاة والسلام، فيقول: حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبيﷺ: أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١/ ١٦٩)، وعمدة القاري للعيني (٢/ ٣٩).

(٢) انظر : هجر القرآن العظيم للدوسري (ص: ٥٧٢)، وعظمة القرآن الكريم للدكتور/ سعيد بن علي بن وهف القحطاني (ص: ٦١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٨/٤١)، برقم: (٢٤٦٠١)، بسند صحّحه الأرناؤوط محقق المسند، وعند مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، برقم: (٧٤٦)، بلفظ طويل، جاء فيه: " فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلّم كان القرآن ".

يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل[(١)].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: " كنا إذا تعلّمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن، لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيه "، فقيل لشريك: من العمل؟ قال: نعم[(٢)].

وهذا الذي من أجله أنزل الله تعالى القرآن، يقول الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩]، ويقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾[البقرة: ١٢١] أي: يتبعونه حق اتباعه[(٣)].

يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: " إنما نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا، قيل: كيف العمل به؟ قال ليُحلوا حلاله، ويُحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه "[(٤)].

وهكذا سار على منوالهم الصالحون والمتقون وإلى زماننا هذا، إلا أن فئة من الناس قديما وحديثًا -وهم كثر، وخاصة في زماننا هذا، وللأسف الشديد – لم

---

(١) أخرجه مجاهد في تفسيره (١/ ١٩٣)، والإمام أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٦٦)، برقم: (٢٣٤٨٢)، وقد تقدم تخريجه والحكم عليه .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٣)، برقم: (٢٠٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٤)، برقم: (١٨٠١)، وقال الحاكم: " هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه " وسكت عنه الذهبي .

(٣) هذا المعنى مروي عن ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، ومجاهد، وابي رزين .. وغيرهم، انظر: جامع البيان (٢/ ٥٦٦ - ٥٦٩) .

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في الاقتضاء (ص: ٧٦) .

يتبعوا هذا المنهج الرباني، وابتعدوا عن هذا النهج القويم، فسلكوا في القرآن غير مسلكه، واتبعوا غير سبيله، فضلوا عن القرآن وهديه، حتى وإن قرأه بعضهم بلسانهم، أخرج الحاكم وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: " لقد عشنا بُرهة من دهرنا، وإن أحدَنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها، كما تعلمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيت رجالًا اليوم يؤتى أحدُهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل "(١).

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: " إنّا قومٌ أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن، وإنكم قومٌ أوتيتم القرآن قبل أن تؤتوا الإيمان "(٢).

ويقول عمر بن الخطاب ﷺ: " لا يغرنكم من قرأ القرآن، فإنما هو كلام يتكلم به، ولكن انظروا من يعمل به "(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٩١)، برقم: (١٠١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٠)، برقم: (٥٢٩٠)، بسند صحيح، قال عنه الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن منده: هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة إلا البخاري، نقله أبو عبدالله الداني آل زهوي في سلسلة الآثار الصحيحة (١/ ١٦٤)، برقم: (١٥٧)، وأبو إسحاق الحويني في المنيحة بسلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٤١٤، ٤١٥)، برقم: (٩٠٠) .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (١/ ٢٠٧)، برقم: (٤٨)، وصححه محقّقه .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٢/ ٣٩٣)، برقم: (١٢٧)، وضعفه محقّقه .

ويبين الحسن البصري رحمه الله خطورة قراءة القرآن باللسان فقط، وعدم العلم بآياته والعمل بمضمونه: " إنّ هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيانٌ لا علم لهم بتأويله، ولم يتأوّلوا الأمر من قِبل أوله، وقال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا اتباعه، والله يعلم، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، وقد والله أسقطه كلَّه، ما يُرى له القرآن في خلق، ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء، ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الورعة، متى كانت القراءة مثل هذا؟ لا كثّر الله في الناس مثل هؤلاء "[١].

فإذا كان مثل هذا قد وقع في أفضل القرون، فماذا نقول في زماننا هذا، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فما أحرى بالمربين ومعلمي القرآن الاعتناء بتدبر القرآن، والعلم بها في الفرقان، كالاعتناء بالحفظ والتلاوة، فيهيء قلب المتلقي أولاً لتلقي تعاليم القرآن الكريم، والاهتداء بآياته ، ثم إذا سمع القرآن وتلاه وقر في قلبه، وانتفع به، وهذا النبي الكريم ﷺ كان يعلم الأطفال الإيمان قبل أن يعلمهم القرآن، يقول جندب بن عبد الله ﷺ: " كنّا مع النبي ﷺ ونحن فتيانٌ حزاورة[٢]،

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٧٤)، برقم: (٧٩٣)، وسعيد بن منصور في التفسير من سننه (٢/ ٤٢٣)، برقم: (١٣٥)، وحسن إسناده المحقّق .

(٢) حزاورة: جمع حَزْوَر وحَزَوَّر، وهو الذي قارب البلوغ . النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٨٠).

فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا "[١] ، ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال التقليل من شأن تلاوة القرآن وحفظ آياته، بل المقصود هو تهيئة القلب للاستفادة المثلى من كتاب الله تعالى .

وقد جاء الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن قرأ القرآن ليرفع ذكره في الدنيا، ويشار إليه بالبنان، ويحيي مجالس العزاء فقط ، ولم يقرأه للتدبر والعمل به واكتساب الأجر، ومن ذلك: ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن سمرة بن جندب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: " هل رأى أحدٌ منكم من رؤيا "، قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: " إنه أتاني الليلة آتيان ، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي : انطلق، وأني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجلٍ مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغُ رأسَهُ، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصحَّ رأسُهُ كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرأة الأولى، قال: فقلت لهما: سبحان الله ما هذان ؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق .. " الحديث، إلى أن قال في آخره: " أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يُثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب في الإيمان، برقم: (٦١)، وصحّحه الألباني، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٦٥)، برقم: (١٦٧٨)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٥٢)، برقم: (٥٠)، بزيادة قوله: " وإنّكم اليوم تعلّمون القرآن قبل الإيمان " .

المكتوبة .. " الحديث(١) .

وفي رواية: " .. فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجلٌ قائم على رأسه بفهر – أو صخرة – فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطَلَقَ إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه.. " إلى أن قال: " والذي رأيتَه يُشدخ رأسه، فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه النهار، يُفعل به إلى يوم القيامة .. " الحديث(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إنَّ أوَّل الناس يُقضَى يوم القيامة عليه: رجلٌ استُشهِدَ، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيه حتى استهشدتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جرئٌ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمه فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمتُهُ، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآنَ ليُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمرَ به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه مِن أصناف المال كلِّه، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبتَ ، ولكنَّك فعلت ليقال: هو

(١) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، برقم: (٧٠٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم: (١٣٨٦) .

جوادٌ، فقد قيل، ثم أُمر فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار "[١].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أتيت ليلة أُسري بي على قومٍ تُقرضُ شفاهُهُم بمقاريضَ من نارٍ، كُلَّما قُرضت وَفَتْ، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: خطباء من أمّتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون "[٢].

وبناء على ما تقدم ذكره فإن الناس يمكن تقسيمهم بحسب معرفة الحق والعمل به إلى ثلاثة أقسام كما ذكر ابن القيم وغيره[٣]:

قسم عرف الحق واتبع هواه، فضل عن العمل دون العلم، وينطبق هذا في كل الفرق " التي تعمدت ذلك، واستحقت بالديانة عن عمدٍ، وعن تأويل بعيد جداً تُحمل عليه غلبة الهوى، فهؤلاء سلكوا من الصراط الذي خُطَّ لهم مسالك غير مستقيمة، فاستحقوا الغضب؛ لأنهم أخطأوا عن غير معذرة، إذ ما حملهم على الخطأ إلا إيثار حظوظ الدنيا "[٤]، ويمثلهم هنا: اليهود؛ لأنهم حملوا التوراة، أي: علموا الحق، فكلفوا العمل به، لكنهم عدلوا عنه ولم يعملوا[٥]، فهم " تمردوا على أنبيائهم وأحبارهم غير مرة، وبدلوا الشريعة عمدًا، فلزمهم وصف

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، برقم: (١٩٠٥).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الاقتضاء (ص: ٧٣) بسند حسنه الشيخ الألباني.

(٣) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤)، وتفسير ابن عثيمين (١/ ١٧).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٩٩).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤).

المغضوب عليهم، وعلق بهم في آيات كثيرة "[١]، كما قال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٢] .

والله عزّ وجلّ شبّه عمل هؤلاء القوم بالحمار الذي يحمل على ظهره الأسفار ولم يستفد منها ، يقول تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥]، " فقاس سبحانه من حمله كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته به بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له وعملٍ بموجبه، كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن ، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته "[٢].

وقسم عمل دون علم، فضل عن العلم والعمل، وهو " جنس للفرق الذين حرفوا الديانات الحق عن عمد، وعن سوء فهم "[٣]، ويمثلهم هنا: النصارى

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٠) .

(٢) الأمثال في القرآن لابن القيم (ص: ٢٦ ، ٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٩٩) .

" الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة، لا يهتدون إلى الحق "(١)، فضلوا وأضلوا، كما أخبر القرآن عنهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[المائدة : ٧٧]، فهم قد " ضلوا بعد الحواريين، وأساءوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام، فزعموه ابن الله على الحقيقة"(٢).

وقسم عرف الحق واتبع هداه، فهو مهتد في العلم والعمل، وهم أهل الإيمان الذين أنعم الله عليهم، والذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[النساء : ٦٩] .

يقول ابن كثير رحمه الله: " فإنّ طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعملِ به، واليهودُ فقدوا العملَ، والنصارى فقدوا العِلمَ، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلالُ للنصارى؛ لأنّ من علم وترك استحق الغضب، خلاف مَن لم يعلَمْ، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنّهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق ضلّوا، وكلٌّ من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليهم، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب .. وأخصُّ أوصاف النصارى الضلال .. وبهذا جاءت الأحاديث والآثار "(٣).

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٠) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٥) .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد وغيره من حديث عدي بن حاتم ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: " إنّ المغضوب عليهم: اليهود، وإنّ الضالين النصارى "[(١)].

وابن رجب الحنبلي رحمه الله قسّمهم إلى ثلاثة أقسام[(٢)] : راشد، وغاو، وضال

فأما الراشد: فهو المطيع لله تعالى ورسوله ﷺ، المتبع لأوامرهما، المجتنب لنواهيهما.

وأما الغاوي: فهو من عرف الحق وتعمَّد خلافه.

والضال: هو من لم يتعمد خلاف الحق.

والله تعالى ذكر الغواية في كتابه ووصف بها:

- أتباع إبليس، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[الحجر: ٤٢].
- من أوتي الآيات فردّها، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].
- أهل النار، قال عزّ وجلّ: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢/ ١٢٣، ١٢٤)، برقم: (١٩٣٨١)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٨٣،١٨٤) برقم: (٧٢٠٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٩٩) برقم: (٢٣٧)، والطبري في تفسيره (١/ ١٨٥، ١٨٦)، والحديث جوّده الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ٧٨٣)، برقم: (٣٢٦٣)، وصحّحه أحمد شاكر في تخريجه لأحاديث الطبري (١/ ١٨٥).

(٢) روائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٢١).

مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴾.

نسأل الله تعالى السلامة والعافية، ونسأله سبحانه أن يرزقنا علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا متقبلًا، وقلبًا خالصًا خاشعًا، وعينًا دامعة، ولسانًا ذاكرًا ..

المطلب الرابع: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التداوي والاستشفاء به:

وردت نصوص عديدة من القرآن والسنة على أنّ القرآن الكريم فيه شفاء للناس، ومن تلك النصوص:

- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[يونس: ٥٧] .
- وقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾[الإسراء: ٨٢] .
- وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ ﴾[فصلت: ٤٤] .

فهذه الآيات الكريمات تؤكد على خاصية مهمة من خصائص كتاب ربّنا سبحانه جلّ وعلا: وهي خاصية الشفاء .

وبما أن المرض نوعان[1]: مرض القلوب (شبهة، وشهوة)، ومرض الأبدان (حسّي، ومعنوي)، فإنّ القرآن الكريم شفاء لكليهما، فالآية الأولى جاءت في شفاء أمراض القلوب، أمراض الشبهة والشهوة؛ لأنّ الله تعالى " أخبر في هذه الآية أن القرآن شفاء لما في الصدور، وهي القلوب، وهي محل الشبهات، والشهوات، والجهل، والهموم، والغموم من الإنسان، والإنسان مركب على قلبه صلاحًا وفسادًا .. ومن النكت اللطيفة في الآية: أنّ الله وصف القرآن بأنه شفاء، ولم يصفه بأنه دواء، وهذا يدل على تحقق حصول النتيجة عند الاستشفاء به، وهي زوال الداء، بخلاف الدواء، فإنه قد يحصل به الشفاء، وزوال الداء، وقد لا

---

(١) يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم زاد المعاد (٤/ ٥ ـ ٧): " المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن، ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوةٍ وغي، وكلاهما في القرآن، قال تعالى في مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[البقرة : ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر : ٣١] .. فهذا مرض الشبهات والشكوك، وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[الأحزاب : ٣٢]، فهذا مرض شهوة الزنى، والله أعلم، وأما مرض الأبدان، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور:٦١]، وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء؛ لسرٍّ بديع، يُبيّن لك عظمة القرآن، والاستغناء به، لمن فهمه وعقله عن سواه، وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة، فذكر سبحانه هذه الأصول في هذه المواضع الثلاثة " .

يحصل .. "[١].

يقول السعدي رحمه الله: " وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور، من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة .

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، ونمتا على تكرّر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه .

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين .

وإذا صحّ القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده "[٢].

وأما الآية الثانية والثالثة فهي عامة في جميع الأمراض: القلبية منها، والبدنية، الحسية منها والمعنوية، كأمراض السحر، والحسد، والعين، والصرع .. وغيرها، لعموم لفظ ﴿ شِفَآءٌ ﴾ في كل مرض، حسيًّا كان أو معنويًّا، بدنيًّا أو قلبيًّا .

---

(١) الاستشفاء بالقرآن الكريم لعلي بن غازي التويجري (ص:١٤، ١٥) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٦٦) .

يقول الشنقيطي رحمه الله: " وقوله في الآية: ﴿ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ يشمل كونه شفاءً للقلب من أمراضه، كالشك والنفاق وغير ذلك، وكونه شفاءً للأجسام إذا رقي عليها به .. "[1].

وهل القرآن كله أم بعضه شفاء؟

قولان للعلماء، بناء على المراد من (من) في قوله: ﴿ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾، فذهب جماعة من العلماء إلى أنّ (من) هنا للتبعيض، والصحيح ـ وهو ما عليه جماهير العلماء من السلف والخلف ـ أنّ (من) هنا بيانية[2]؛ لأنّها لو كانت تبعيضية؛ لكان بعض القرآن ليس فيه شفاء، وهذا لا يحسن مع كتاب ربنا سبحانه جل في علاه، والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء، فجميع القرآن

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٨١).

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٢٧٥)، وتفسير القرآن للسمعاني (٣/ ٢٧١)، ومعالم التنزيل (٥/ ١٢٣)، والكشاف (٢/ ٦٨٩)، وزاد المسير (٣/ ٤٩)، ومفاتيح الغيب (٢١/ ٣٨٩)، ومدارك التنزيل (٢/ ٢٧٣)، والتفسير القيم (ص:٣٦٣)، والجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٨)، وتفسير القرآن العظيم (٥/ ١٠٣)، ومحاسن التأويل (٦/ ٤٩٦)، والتحرير والتنوير (١٥/ ١٨٩)، وحتى على قول القائلين بأنّ (مِن) هنا للتبعيض فقد أوَّل بأحد تأويلين: الأول: ما قاله الزمخشري في كشافه، وتبعه السمعاني في تفسيره وغيرهم على أنّ المراد من البعض هو الكل، أي: ما كله شفاء، واستشهد السمعاني بقول الشاعر: أو يعتلق بعض النفوس حمامها .. أي: كل النفوس، الثاني: أنها للتبعيض بحسب إنزاله؛ لأنّ إنزاله إنما هو مبعض، فكأنه قال: وننزل من القرآن شيئًا شيئًا ما فيه كل شفاء . قاله ابن عطية في تفسيره (٣/ ٤٨٠).

شفاءٌ للمؤمنين .

يقول ابن القيم رحمه الله: " فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كلُّ أحدٍ يؤَهَّلُ ولا يُوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا، وكيف تقاوم الأدواءُ كلامَ رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدَّعها، أو على الأرض لقطَّعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلّا وفي القرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه.. "(١).

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة، وآثار عديدة، تؤكد أنّ القرآن كما هو شفاء للقلوب كذلك هو شفاء للأبدان ، ومن ذلك:

* ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فمرُّوا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فلم يضيفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيّد الحي لديغٌ أو مصابٌ، فقال رجل منهم: نعم، فأتاه، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ الرجل، فأعطي قطيعًا من غنم، فأبى أن يقبلها، وقال: حتى أذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: "وما أدراك أنها رقية ؟! " ثم قال: " خذوا

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣) .

منها واضربوا لي بسهم معكم "[١].

* وما أخرجه الشيخان كذلك عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثقل عليه، كنت أنفث عليه بهنّ، وأمسح بيد نفْسِه لبركتها، يقول الراوي: فسألت الزهري: كيف ينفث؟ قال: كان ينفث على يديه، ثم يمسح بهما وجهه[٢] .

* وما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ دخل عليها وامرأة تعالجها، أو ترقيها، فقال: " عالجيها بكتاب الله "[٣].

وغيرها من الأحاديث .

فهذه النصوص من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، ونحوها تبيّن أنّ القرآن الكريم فيه شفاء، وهو عام ـ كما أسلفت ـ فيه " شفاء القلوب وشفاء الأبدان، ولكن لحصول الشفاء بالقرآن وغيره، شروط وانتفاء موانع، في المعالِج، والمعالَج .. فإذا توفرت الشروط، وانتفت الموانع حصل الشفاء بإذن الله، كما قال النبي ﷺ لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله "[٤] "[٥] .

---

(١) البخاري، كتاب الطب، باب النفث في الرقية، برقم: (٥٧٤٩)، ومسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الآداب، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، برقم: (٢٢٠١) .

(٢) البخاري، كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن، برقم: (٥٧٣٥)، ومسلم، كتاب الطب، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، برقم: (٢١٩٢) .

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٣/ ٤٦٤)، برقم: (٦٠٩٨)، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٥٦٥ -٥٦٦)، برقم: (١٩٣١) .

(٤) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، برقم: (٢٢٠٤) .

(٥) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز رحمه الله (٨/ ٦١) .

وقد أثبت العلم حديثًا أنّ القرآن الكريم يشفي بأمر الله تعالى من كافة الأمراض الحسية والنفسية ، يقول د. عبد الدائم الكحيل: " لقد جربت العلاج بالقرآن في مختلف الظروف، والمشاكل، والمصاعب، والأمراض، فوجدته أفضل وسيلة علاجية لأي مرض كان .. ففي حالة المرض كنت أقرأ القرآن، وأستمع إليه، فيهيئ لي الله وسائل الشفاء العاجل، مهما كان نوع المرض، وحيث تعجز جميع الوسائل عن منحي السعادة، كان القرآن يمنحني السعادة حتى في حالة المرض، فلا أشعر بأي هم أو حزن أو ملل .

وفي حالة التعرض لمشكلة صعبة الحل، كان القرآن يزودني بطاقة هائلة على الصبر وتحمل المصاعب، والرضا بالواقع، وعلاج الأمور بالحكمة والتأني ..

وحتى العادات السيئة، وضعف الشخصية، والمخاوف .. كان القرآن يمنحني القدرة على إزالة التوتر النفسي والخوف .. "[(١)].

وفي جواب له عن سؤال: ما هي الأمراض التي يشفيها القرآن؟ أجاب الكحيل: ".. إنّ القرآن فيه شفاء لجميع الأمراض، مهما كان نوعها، سواء كانت أمراضًا نفسية أو جسدية، أو كانت سحرًا، أو مسًّا أو غير ذلك، وينبغي على المريض أن يعتقد بذلك؛ لأنّ الاعتقاد السليم هو نصف الشفاء، إن لم نقل الشفاء كله، " ثم ذكر بعد ذلك مجموعة من الأمراض الكثيرة التي تشفى بأمر الله تعالى بتلاوة القرآن الكريم وسماع آياته، كأمراض القلق والتوتر النفسي، والخوف، وأمراض الإحباط والفصام والخمول، وأمراض الوسواس، والقهر،

---

(١) كتاب: عالج نفسك بالقرآن (ص: ٤ ، ٥) .

وكافة الهموم والغموم، وأمراض السرطان بأنواعها، وأمراض الجلد، والأمراض المزمنة بأنواعها، وأمراض العقم، ومشاكل السمع والبصر، وأمراض السحر، والحسد، والعين، والمس .. وغيرها[1] .

وقد أجرى بعض الأطباء النفسيين بحثًا على مجموعة من المتطوعين عند استماعهم إلى القرآن الكريم، فكانت النتائج مبهرة، حيث تم تسجيل أثر مهدئ لتلاوة القرآن الكريم على نسبة بلغت ٩٨٪ من مجموع الحالات، رغم وجود نسبة كبيرة من المتطوعين لا يعرفون اللغة العربية، إلا أنّه تم رصد تغيرات فسيولوجية لا إرادية عديدة حدثت في الأجهزة العصبية للمتطوعين، مما أدى إلى تخفيف درجة التوتر لديهم بشكل ملحوظ .

وتمّت تجربة دقيقة بعمل رسم تخطيطي للدماغ، أثناء الاستماع إلى القرآن الكريم، فوجد أنّه مع الاستماع إلى كتاب الله، تنتقل الموجات الدماغية من النسق السريع الخاص باليقظة (١٢ ـ ١٣) موجة / ثانية إلى النسق البطيء (٨ ـ ١٨) موجة / ثانية، وهي حالة الهدوء العميق داخل النفس، وأيضًا شعر غير المتحدثين بالعربية بالطمأنينة، والراحة، والسكينة، أثناء الاستماع لآيات كتاب الله، رغم عدم فهمهم لمعانيه[2] .

وهذا من أسرار القرآن العظيم .

إذا عُلم هذا فإن كثيراً من الناس قد حُرموا من الاستشفاء والتداوي

---

(١) المصدر السابق (ص: ٥٦) وما بعدها .

(٢) أشار إلى هذه الدراسة موقع البوابة على الشبكة العنكبوتية، على العنوان التالي:
http://www.khayma.com/ashab/taab_alabadat_malafat/algoraan-fuwed.htm

بالقرآن الكريم، وخاصة في هذه الأزمنة المتأخرة؛ لهجرهم كتاب ربهم، وبعدهم عنه، فلم يهتدوا لذلك، فضل بعضهم ضلالًا بعيدًا، ولجأوا في علاج أمراضهم الحسية منها والمعنوية إلى غير رب الأرباب سبحانه، يلتمسون الشفاء والدواء من السحرة والعرافين والمشعوذين، وتعلقت قلوبهم بالبدع والخرافات، من تعليق التمائم، والاستشفاء بتربة قبور الأولياء والصالحين ـ بزعمهم ـ، والتبرك بها[1].

ومن جانب آخر فإن هجر الاستشفاء بالقرآن الكريم على الوجه الصحيح أدّى بالكثير من الناس إلى اللجوء إلى الرقاة، الذين كثروا في البلاد، بل امتهن بعضهم مهنة القراءة، وأصبح شغله الشاغل، فوقع الكثير منهم في بعض المحاذير والفتن[2]:

• كفتنة جمع المال، فيصبح هم الراقي، وهدفه من القراءة هو جمع المال فقط، لا نفع الناس، وقد توسع الناس في هذا الباب كثيرًا، فتجد بعضهم يبيع قارورة الماء التي ينفث عليها بخمسين ريالًا أو أكثر، وهي لا تساوي الريال والريالين .

• فتنة النساء، وهي من أشدّ الفتن على المسلم، يقول النبي ﷺ: " ما تركت بعدي فتنة هي أضرّ على الرجال من النساء "[3]، فتجد بعض الرقاة لا يتورعون

---

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص٣٤١ ـ ٣٤٧) .

(٢) انظر: الاستشفاء بالقرآن (ص: ٥٣) .

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، برقم: (٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، برقم: (٢٧٤٠) .

عن الخلوة بالنساء، أو إطالة النظر فيهن، وعدم غض البصر، ومسّهن بالأيدي .. إلى غير ذلك من المحاذير التي ورد النهي عنها، والتحذير منها .

عن معقل بن يسار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لأن يُطعن في رأس رجلٍ بمخيطٍ من حديد، خيرٌ له من أن يمس امرأةً لا تحلُّ له "[1] .

• الاستعانة بالجن والشياطين، وهذا قد يستخدمه بعض الرقاة، بحجّة شفاء المريض، واستنادًا إلى أقوال بعض العلماء الذين جوّزوا ذلك بشروط، وهذا مما لا يجوز، وقد أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية، بعدم جواز الاستعانة بالجن في معرفة الإصابة ونوع علاجها؛ لأنّ الاستعانة بالجنّ شرك[2] .

• فتنة الشهرة، فيغترّ بعض الرقاة بكثرة الناس عنده، وازدحامهم حوله، فيقع في المحذور من الإعجاب بالنفس، والاغترار بعمله .

إلى غيرها من الفتن والمحاذير التي ينبغي الحذر منها، وعدم الوقوع فيها، والذي أدى إلى كل ذلك هو: ابتعاد الناس عن كتاب ربهم، وهجرهم إيّاه: استماعًا، وتلاوةً، وحفظًا، وتدبرًا، وعملًا .

فنسأل الله تعالى بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن الكريم، التالين لآياته،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٤٨٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٢٦) وقال: " رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح "، وصحح إسناده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٤٠١) برقم: (١٩١٠)، وجوّده في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٤٧)، برقم: (٢٢٦).

(٢) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المجموعة الثانية، (١/ ٩٢ و٢٠٦) .

العالمين بمراده، العاملين بمقتضاه، آمين ...

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

الهدايات القرآنيّة

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات،
ووسائله في تحقيقها، ومميزاتها .

ويشتمل على المباحث التالية:

* أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات .
* وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات .
* مميزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات .

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات، ووسائله في تحقيقها، ومميزاتها

تمهيد في بيان مفهوم الأساليب والوسائل:

هذا الفصل يسلط الضوء على أساليب القرآن الكريم وطريقة عرضها للهدايات على العالمين، ووسائل تحقيقها، وأهم مميزات الأساليب والوسائل، وكيف أنها كانت شاملة لجميع مقتضيات الهداية، ملبّية لمتطلباتها كافةً، والموضوع يدور حول مصطلحين رئيسين، وهما: الأساليب والوسائل، ولابد من بيان المقصود منهما حتى يتم لنا تصور مباحث الفصل، ومن ثم محاولة استيعاب مضامينه .

أولًا: مفهوم الأساليب: الأساليب جمع أسلوب، وأصلها مأخوذ من مادة (س، ل، ب) التي تعني أخذ الشيء بخفة واختطاف[1]، وهي تأتي في اللغة بمعان كثيرة، فيقال للسّطر من النّخيل: أسلوب، وكلّ طريق ممتدّ: هو أسلوب، والأسلوب: الطّريق، والوجه، والمذهب؛ يقال: أنتم في أسلوب سوء، والأسلوب: الفنّ؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه[2] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٩٢) .

(٢) ينظر: لسان العرب (٧/ ٢٢٥) .

وأما في اصطلاح العلماء فله عدة تعريفات، منها ما عرفه ابن خلدون رحمه الله بأنّه: " المنوال الذي ينسج فيه التراكيب ، والقالب الذي تفرغ فيه "(١).

بينما عرفه الجرجاني رحمه الله بقوله: " الضرب من النظم، والطريقة فيه "(٢) . وقريب منه تعريف العلوي في الطراز(٣) .

وقال القرطاجني رحمه الله: " فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية "(٤) .

وبتأمل هذه التعريفات نجد أن بعض العلماء يطلق الأسلوب ويريد به الألفاظ كما عند ابن خلدون، والجرجاني وغيرهما- رحمهم الله -، وهو المستعمل عند بعض علماء علوم القرآن الكريم(٥)، وبعض آخر ينسحب عنده على الصورتين اللفظية والمعنوية، وهذا هو الغالب عند الأدباء والبلاغيين وهو الأشهر من حيث الاستخدام العام(٦) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص:٥٧٠) .

(٢) دلائل الإعجاز (ص: ٤٦٩) .

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز للمؤيد بالله يحيى الحسيني (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء (٣٥٤ ، ٣٥٥) .

(٥) ولم أجد تعريفًا دقيقًا لأسلوب القرآن كمصطلح علمي في علوم القرآن إلا ما سبق من نقولات متناثرة، ولم يذكره أ.د. الشايع، في كتابه معجم مصطلحات علوم القرآن .

(٦) ينظر التفصيل في كتاب الأسلوب لأحمد الشايب (ص:٤١-٤٦) .

وحينما تكلم الزركشي رحمه الله في أساليب القرآن الكريم وفنونه البليغة قال عن الأساليب البلاغية: " والصحيح أنّ الموضوع مجموع المعاني والألفاظ إذ اللفظ مادة الكلام الذي منه يتألف ، ومتى أخرجت الألفاظ عن أن تكون موضوعا خرجت عن جملة الأقسام المعتبرة ؛ إذ لا يمكن أن توجد إلا بها"(١).

وقال الزرقاني رحمه الله: " وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه "(٢).

والمتأمل في كلام المفسرين وعلماء الشرع حول هذا المفهوم يجد أنهم لم يحدّدوا له ملامح واضحة؛ وذلك لعدم وروده في النصوص الشرعية، فتراهم يتحدثون عن الأسلوب ويقصدون به السبك اللفظي للقرآن كما سلف، وفي أحايين أخرى يتعاملون معه، ويريدون الدلالات والمعاني؛ لذلك يقولون: الأسلوب البلاغي، والقصصي، والعقلي، والحواري، ونحوه كما سيأتي، وهو نظر إلى المعاني، وكلها إطلاقات تدور حول النص ، إذ هو المقصود أصالة .

والأمر بين الرأيين قريب؛ فإن الألفاظ لا يمكن النظر إليها بمعزل عن معانيها، كما أنه لفظ اصطلاحي وليس شرعيا ، فلا نحتاج أن نقف عنده كثيرًا .

فخلاصة الأمر: أنّ مقصودنا هو الدراسة التفصيلية الشاملة لجميع الإطلاقات اللغوية للأسلوب ، فهي تعم الأسلوب اللفظي للنص أصالة، والمعنوي تبعًا؛ وعليه يمكن أن نعرف الأسلوب القرآني بأنّه:

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٢) .

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٣٠٣) .

طريقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، والدلالة على المعاني .

ثانيًا: مفهوم الوسائل: الوسائل: جمع وسيلة، وهي تأتي بمعنى الرغبة والطلب، يقال: وسل: إذا رغب، والواسل: الراغب إلى الله تعالى، كما في قول لبيد ﷺ[1]:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم   بلى كـل ذي ديـن إلى الله واســـل[2]

قال الراغب رحمه الله: " الوسيلة: التوصّل إلى الشيء برغبة وهى أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[المائدة: ٣٥]، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرى مكارم الشريعة وهى كالقربة، والواسل: الراغب إلى الله تعالى "[3] .

فوسائل القرآن الكريم هي الطرق التي جاء بها القرآن الكريم؛ لتحقيق هداياته .

وهي أنواع كثيرة بحسب الغاية المقصودة منها؛ فلذلك سنتناول أنواعًا من الوسائل التي أصل لها القرآن الكريم لتحقيق الهدايات، كالأمر بالدعاء، والتدبر لآياته، والتفكر في أصل الخلق، والنظر والاستدلال، والتذكير بالنعم، وغيرها .

والفرق بين الأساليب والوسائل: أنّ الأساليب هي القوالب التي تصاغ فيها المعاني، وتعرض بها الهدايات، في حين أنّ الوسائل هي الطرق التي جاء بها

---

(١) ديوان لبيد (ص:٢٨) .

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة (٦/ ١١٠) .

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص:٨٧١) .

القرآن الكريم؛ لتحقيق الهدايات، ومتى سلكها الإنسان كانت سببًا في إيصاله إلى الهداية بأنواعها – بتوفيق الله تعالى – .

المبحث الأول

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات

إعداد

د . فخر الدين الزبير

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات

تمهيد:

من أهم ما يميز القرآن الكريم في دعوته وهدايته أسلوبه اللغوي، فحينما يطلق الأسلوب يتبادر إلى الذهن الجانب البلاغي[1]، وجميع الأساليب القرآنية داخلة فيه، مصاغة في قالبه، فقد نزل القرآن الكريم متحديا العرب في لغتهم التي كانوا يفاخرون بها، ويستوي عامتهم في تذوقها، وليس فقط التحدث بها، ومع ذلك عجزوا مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله، وليس عجزهم في الجانب العلمي في ذلك الوقت فحسب، بل كان في الجانب اللغوي أصالة؛ حيث ينفرد القرآن الكريم بسياقه الذي يدرك روعته، وجماله البلاغي، عامة العرب بسليقتهم .

وحول أهمية الأسلوب البلاغي يقول الزركشي رحمه الله: " وهو المقصود الأعظم من هذا الكتاب، وهو بيت القصيدة، وأول الجريدة، وغرة الكتيبة، وواسطة القلادة، ودرة التاج، وإنسان الحدقة، على أنه قد تقدّمت الإشارة للكثير من ذلك .

---

(١) ولا يقصد بالبلاغة هنا العلم الاصطلاحي المعروف الذي ينتظم الفنون الثلاثة: (المعاني والبديع والبيان)، وإنما المقصود عموم الفصاحة .

اعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرق من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون؟! وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين، ما أودع من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما تضمنه في الحلاوة، وجلله في رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه، وجزالتها، وعذوبتها، وسلاستها "(١).

والبلاغة تتعلق بالتراكيب، وليست باللفظة المفردة؛ فإن ألفاظ القرآن الكريم هي من جنس ألفاظ العرب وكلماتهم، ولكن سبكها في سياقها، ونظمها في عقدها، يضفي عليها ذلكم الإبداع البلاغي، بل الإيقاع السماعي .

لذلك تعرفها الوليد بن المغيرة المخزومي بمجرد سماعها، فقال عبارته المشهورة: " وماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ مني، فوالله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو، وما يعلى "(٢) .

أما الإيقاع الصوتي، فيدرك سلطانه كل من له حسّ وذوق، وإن لم يكن عربيًّا، وهذا سر تأثر غير العرب بالقرآن الكريم، واستكانتهم عند سماع تلاوته،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٢) .

(٢) ينظر: تفسير عبدالرزاق (٣/ ٣٦٢)، جامع البيان (١٢/ ٣٠٩)،الكشاف (٤/ ٤٦٩) .

وخشوعهم عند ترتيله، ومن ثم الهداية في تبني الإسلام قبل فهم شيء من معانيه، وإنما بسبب التغني بألفاظه ومبانيه .

ونودّ هنا النظر في أنواع الجوانب البلاغية التي كانت أسلوبًا بارزًا من أساليب هداية القرآن الكريم للعالمين، وذلك بنظرة عجلى، نحليها بأمثلة، كإلماحات توضح دلالتها على الهدايات، وليس المقصود الاستقصاء، فإنّ الأساليب كثيرة، ويصعب حصرها، كما يصعب استيفاء الأسلوب الواحد منها في هذه الدراسة، فبلاغة القرآن الكريم من الإعجاز الذي لا يمكن الإحاطة به، شأنها في ذلك شأن جميع الجوانب الإعجازية في القرآن الكريم، فكلام الله تعالى صفة من صفاته، وصفات الله تعالى تعلم عظمتها، ولا يحاط بها علمًا، فهي داخلة في عموم قوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[طه: ١١٠]، كما أنّ المقام ليس مقامًا لغويًّا، فحسبنا أن نتبيّن أسرار التعبير القرآني، وتحقيقه للهداية، وتأثيره في القلوب، وأنه لا يمكن استبدال كلمة بغيرها، فتؤدي الكمال البلاغي نفسه، فسوف نعرض أبرز الأساليب القرآنية وأشهرها، مع مراعاة تنوعها، في أحد عشر مطلبًا، ومن الله تعالى أستمد العون والسداد، والهداية والرشاد .

المطلب الأول: أسلوب الاستفهام :

أسلوب الاستفهام تكرر كثيرا في القرآن الكريم، والأصل فيه أنّه سؤال عن أمر يجهله السائل؛ ولذلك يعرف الاستفهام بأنّه: طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل، بأداة من إحدى أدواته [١].

إلّا أنّ هذا المعنى لا يمكن إضافته إلى الله تعالى؛ فهو بكل شيء عليم؛ ولذلك فإنّ الاستفهام الوارد في القرآن الكريم يراد به معان كثيرة، منها ما يلي:

١- الإنكار أو الإقرار: كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[يونس: ٣٥]: فهنا استفهامان:

الأول: استفهام إنكاري، فقد أنكر أن يمتلك أحد من الخلق هداية التوفيق والإلهام، فهي مختصة بالله تعالى، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[الروم: ٢٩]، أي: لا أحد يهدي من أضله الله تعالى، وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾[الزمر: ١٩]، أي: لا تملك هداية قلبه لتنقذه من النار لضلاله .

قال ابن كثير رحمه الله: " أنتم تعلمون أنّ شركاءكم لا تقدر على هداية ضالّ، وإنّما يهدي الحيارى والضّلّال، ويقلّب القلوب من الغيّ إلى الرّشد، الله الّذي لا إله إلّا هو "[٢].

---

(١) جواهر البلاغة للهاشمي (١/ ٧٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٧) .

والثاني: فيه تقرير استحقاق من يملك الهداية للاتباع والعبادة دون غيره، وهو قوله: ﴿ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[يونس: ٣٥] .

ومن التقرير أيضًا قوله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[الأعراف: ١٧٢] أي: أنا ربكم، والاستفهام هنا يكسب الخبر قوة، ويحمل السامع على الإقرار بالحقيقة في نفسه، وإن جحدها بلسانه .

٢- التوبيخ: ويكون على أمر وقع، كقوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[الصافات: ١٢٥]، فهنا توبيخ لهم على فعلهم الذي لا وجه له بحال، فكيف تقرون بخالقكم ، ثم تدعون مخلوقًا له مفتقرًا إليه؟

ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[التوبة: ١٣] .

قال الزمخشري رحمه الله: " تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها "[1]، فالأحق بالخشية من تؤمنون بأن له الأمر كله، خالق الكون ومدبره .

٣- العتاب: وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦]، ففيها معاتبة للمؤمنين؛ ليتعاهدوا قلوبهم،

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٥٢) .

ويزيدوا إيمانهم؛ لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: " ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين "[(١)] .

٤- التعجب: كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة: ٢٨]، فالاستفهام هنا للتعجب مع التقريع؛ لعدم وجود مقتض للكفر بالذي خلقهم، وأحياهم، ويميتهم .

قال ابن عادل رحمه الله: " فيها معنى الاستفهام الذي معناه التعجب "[(٢)] .

٥- التذكير: نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة: ٣٣]، فالاستفهام هنا لتذكيرهم بما قاله تعالى، بعد أن تبين لهم فضل آدم عليه السلام .

قال ابن عاشور رحمه الله: " وهو تذكير لهم بقوله لهم في أوّل المحاورة: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ "[(٣)] ، وهو يتضمن معنى التقرير أيضًا .

٦-الأمر والطلب: كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ برقم: (٣٠٢٧) .

(٢) اللباب في علوم الكتاب (١/ ٤٨٠) .

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤١٧) .

مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة: ٩١]، أي: انتهوا، وهذا ما فهمه عمر رضي الله عنه فقال بعد نزول الآية: " انتهينا، انتهينا "(١).

ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران: ٢٠]، فهو استفهام يتضمن الأمر، أي: أسلموا .

قال البغوي رحمه الله: " لفظه استفهام ومعناه أمر، أي أسلموا كما قال: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ أي: انتهوا "(٢)، فجاء الاستفهام هنا للطلب على سبيل الرفق والاستعطاف .

٧-الترغيب: كقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ ﴾[البقرة: ٢٤٥]، ومثله قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الصف: ١٠]، وسنعرض تفصيلًا أسلوب الترغيب والترهيب؛ لما له من خصائص تجعله حقيقا بالإفراد .

٨-التحضيض: أي الحض على الفعل وهو مندرج في عموم الترغيب، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[التوبة: ١٠٤]، ففيها الحضّ على التوبة والصدقة، مادام أن الله

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٥٣)، وسنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، برقم: (٣٦٦٩)، وسنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة المائدة، برقم: (٣٠٤٩)، وقال: وقد روي عن إسرائيل هذا الحديث مرسلًا، وصحّحه الألباني في صحيح السنن .

(٢) معالم التنزيل (٢/ ٢٠) .

تعالى يقبلها، ويثيب عليها، و قوله سبحانه: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النور: ٢٢]، وفيها الحضّ على العفو؛ لينالوا مغفرة الله تعالى .

٩- التهكم والتبكيت: كقوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾[البقرة: ١٤٠]، فلا علاقة بين علمهم وعلم الله تعالى، ولكنه يتضمن التهكم والتبكيت بهم .

قال الراغب رحمه الله: " فهذا تبكيت لهم في كتمانهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلّم، وسائر الأنبياء "(١).

١٠- الإخبار: كقوله تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[النور: ٥٠]، ففيها أنّ حالهم هذا إما لمرض في قلوبهم، أو شك وريب، أو يخافون الجور من الله تعالى ورسوله، وهو يتضمن الذم لهم على جميع أحوالهم .

١١- التحقير: كقوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾[الأنبياء: ٢١]، فالمراد من الاستفهام هنا، تحقير هذه الآلهة التي لا تملك لهم موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا .

قال البيضاوي رحمه الله: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً ﴾" بل اتخذوا "، والهمزة لإنكار اتخاذهم، ﴿ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾: صفة لآلهة، أو متعلّقة بالفعل، على معنى الابتداء، وفائدتها: التحقير دون التخصيص "(٢).

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٢٦) .

(٢) أنوار التنزيل (٤/ ٤٨) .

١٢- التهويل والتفخيم: كقوله تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾[القارعة: ١-٣]، وقوله: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾[الحاقة: ١-٣]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾[المطففين:٨]، وقوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾[الواقعة:٤١]، فكلها استفهام، يفيد تهويل القيامة، وعذاب النار .

قال الزمخشري رحمه الله في تفسير الحاقة: " أي : أيّ شيء هي؟ تفخيما لشأنها، وتعظيما لهولها، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ لأنه أهول لها ، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ : وأيّ شيء أعلمك ما الحاقة؟، يعنى: أنك لا علم لك بكنهها، ومدى عظمها، على أنّه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد، ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها، فهي أعظم من ذلك "[(١)].

وهذه المعاني الاستفهامية قد يختلف المفسرون في توجيهها[(٢)]، وقد ذكر بعض الباحثين أنّ الاستفهام ذكر في القرآن الكريم في أكثر من ألف ومائتي موضع، وهو يكثر في موضوعات العقيدة، والمحاجة، والتذكير بالنعم، والبعث والحساب، والجنة والنار[(٣)]، وهو في جميع مواضعه، وعلى مختلف التوجيهات والأقوال، محقّق للهداية من وجوه كثيرة، ومنها:

- أنّ الاستفهام يدفع العقل إلى التفكير، ويدعو النفس إلى الوقوف مع الحقائق المستفهم عنها، ومن ثم مراجعة المواقف والقناعات .

---

(١) الكشاف (٤/ ٥٩٨) .

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢١٢ – ٢١٥) .

(٣) ينظر: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم ، لعبدالكريم محمود (ص:١٧١) .

- كما أنّه يدفعه لأن يوجد في نفسه أجوبة مقنعة، وفي خضم ذلكم الحديث النفسي، يتولد الصراع الداخلي بين البقاء على الضلالة، أو اختيار سبيل الهداية، فإما أن يصدق ويستجيب، وإمّا أن يجحد بها ظلمًا وعلوًّا، فكان أسلوب الاستفهام من أنفع الأساليب في تقرير الهداية؛ لذلك نجد أنّه مستخدم ضمن أكثر الأساليب الأخرى، كالقصص، والأمثال، والجدل ، والترغيب والترهيب، كما سيتبين بإذن الله تعالى .

المطلب الثاني: التوكيد:

ومن هذه الأساليب البلاغية التوكيد، الذي يعرف بأنه: مجيء اللفظ؛ لتقرير المعنى الحاصل قبله، وتقويته[١]، وبتعبير آخر: عبارة عن إعادة المعنى الحاصل قبله[٢].

فالتوكيد حاصل بكل تعبير يكسب المعنى قوة، وثباتًا في النفس، ويكون ذلك بالمفردات والجمل.

ولا شك أنّ التوكيد من أهم أساليب تقرير الهداية وتثبيتها؛ لذلك كثر استخدامه في القرآن الكريم، وله فوائد كثيرة.

يقول الكفوي رحمه الله: " والتأكيد كما يكون لإزالة الشك، ونفي الإنكار مع السامع، كذلك يكون لصدق الرغبة، ووفور النشاط من المتكلم، ونيل الرواج، والقبول من السامع، وكون الخبر على خلاف ما يترقب، نحو: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾[الشعراء: ١١٧]، و﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾[آل عمران: ٣٦]، وتحسين إتيان ضمير الشأن، نحو: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[المؤمنون: ١١٧].

وكذلك ترك التأكيد، فإنه كما يكون لعدم الإنكار، يكون أيضًا لعدم الباعث والمحرك من جهة المتكلم، ولعدم الرواج والقبول من جهة السامع.

وقد يكون التأكيد لرد ظن المتكلم، كقولك: (أحسنت إليه، ثم أساء إلي)، أو لإظهار كمال العناية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[يس:٣]، أو كمال التضرع

---

(١) الكليات للكفوي (ص:٢٦٧).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص:٧١).

والابتهال نحو: ﴿ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾[آل عمران: ١٦]، أو كمال الخوف، نحو: ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾[آل عمران: ١٩٢]، إلى غير ذلك من المعاني، التي تناسب التأكيد بوجه خطابي"[1].

والتوكيد على قسمين:

القسم الأول: أن يكون بنفسه، ويسمى التوكيد اللفظي: ويكون بتكرار اللفظ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[الشرح:٥-٦]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾[الانفطار:١٧ - ١٨]، وقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[التكاثر: ٣ – ٤]، وقوله: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[المؤمنون: ٣٦].

وكذلك يكون بتأكيد الفعل أو اسمه بالمصدر، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾[الإسراء:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾[الطور: ٩ - ١٠]، وقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[النمل: ٨٨]، وقوله: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١]،وقوله: ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف: ٥] وغيرها كثير، وهو عوض عن تكرار الفعل مرتين[2].

---

(١) الكليات (٢٦٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٩٢).

القسم الثاني: التوكيد بغيره، ويكون بألفاظه المعروفة، ككل، وجميع، وإنّ، والنون، واللام، وغيرها، فنجد أنّ الله تعالى أكّد تحقيق القرآن الكريم للهداية بلفظ: (إنّ)، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وأكّد بها أيضًا إثبات هداية الدلالة للنبي صلى الله عليه وسلّم، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: ٥٢]، وأكّد حصول الهداية بالمجاهدة (باللام)، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وأكّد أنه لا هادي إلا الله، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف: ٤٣]، فكلّ هذه الأساليب البلاغية استخدمها القرآن الكريم؛ لتأكيد الهدايات بأنواعها، وتقوية المعاني الدالة عليها .

ومما يمكن أن يدخل في هذا الأسلوب من حيث الغاية منه: أسلوب القسم؛ إذ هو إنما يساق لتأكيد الكلام، فكل قسم في القرآن الكريم هو لتوكيد المقسم عليه، وبيان أهميته، كقسمه بالكتاب، وقسمه بمخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، وقسمه بنبيه صلى الله عليه وسلّم، كقوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[الحجر: ٧٢] .

ومما يتّفق معه في بعض أغراضه أسلوب الحصر، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾[الرعد: ٤٠]، فكلّها تفيد التأكيد؛ فلذلك لم أجد حاجة إلى إفراد هذه الأساليب في هذه الدراسة، التي مقصودها التأصيلات دون التفصيلات، والإشارات دون الاستطرادات[١] .

---

(١) ينظر: كتاب: دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم لعائشة عبيزة (ص٥، ٧١).

المطلب الثالث: التكرار:

يعدّ التكرار من الأساليب البارزة التي استخدمها القرآن الكريم في عرض الهداية، فيقع التكرار في القصص، والأمثال، والأخبار، والأحكام، والترغيب والترهيب، وفي الألفاظ، والجمل، والموضوعات[(١)].

ومما يدلّ على هذا الأسلوب، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾[الزمر: ٢٣].

قال ابن الجوزي رحمه الله: " وإنّما قيل له: مثاني؛ لأنّه كرّرت فيه القصص، والفرائض، والحدود، والثواب، والعقاب "[(٢)].

ثم بيّن الحكمة من ذلك فقال: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣]، فكان التكرار سبيلًا للهداية، وسببًا يؤدي إليها .

وليس مقصودنا هنا من التكرار، الموصول اللفظي أو المعنوي، فقد سبق في أسلوب التوكيد، ولكننا نقصد التكرار المفصول للقصص، أو الأمثال، أو الأخبار، أو الأحكام، أو الإنشاءات، فهذا أسلوب آخر لعرض الهداية[(٣)].

والتكرار المفصول على قسمين:

---

(١) ينظر: عادات القرآن الأسلوبية، د. راشد الشنيان (١/ ٣٢٢)، وما بعدها .

(٢) زاد المسير (٤/ ١٤) .

(٣) وقد بيّن السيوطي وجوه الفرق بين التكرار والتوكيد كما في الإتقان (٣/ ٢٢٥) .

- الأول: تكرار في اللفظ: وهو على صورتين: إمّا أن يكون التكرار في السورة نفسها، وإمّا أن يكون في القرآن الكريم كله .

مثال التكرار في السورة نفسها: تكرّر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[الشعراء: ١٩٠-١٩١]، في سورة الشعراء ثماني مرات .

وتكرّر قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المرسلات: ١٥]، في سورة المرسلات عشر مرات .

وتكرّر قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ١٣]، في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة .

وتكرّر قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٦-١٧]، في سورة القمر .

قال الرازي رحمه الله: " والادكار تكرر ثلاث مرات، فبثلاث مرار حصل التأكيد، وقد بينا أنّه تعالى ذكر: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ في حكاية نوح للتعظيم، وفي حكاية ثمود للبيان، وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعًا، واعلم أنّه تعالى ذكر: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ في ثلاث حكايات أربع مرات: فالمرة الواحدة للإنذار، والمرات الثلاث للادكار، لأنّ المقصود حصل بالمرة الواحدة، وقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ذكره مرةً للبيان، وأعادها ثلاثين مرةً غير المرة الأولى، كما أعاد: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ثلاث مرات غير المرة الأولى، فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب، إشارةً إلى الرحمة، التي

قال في بيانها: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام:١٦٠] "(١) .

فتأمّل في هذه الهدايات في دلالات التكرار .

ومثال التكرار في القرآن الكريم كله: تكرّر قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[يونس: ٤٨]، ست مرات: في [يونس: ٤٨]، و[الأنبياء: ٣٨]، و[النمل: ٧١]، و[سبأ: ٢٩]، و[يس: ٤٨]، و[الملك:٢٥] .

وتكرّر قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[التوبة: ٧٣]، مرتين: في [التوبة: ٧٣]، و[التحريم: ٩] .

- الثاني: التكرار في المعنى دون اللفظ: وهو الأكثر في القرآن الكريم .

وذلك: مثل قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذكر الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، وجملة من الأخبار .

والتكرار في القرآن الكريم له فوائد، وحكم كثيرة، كما تقدم عن الرازي، وقد بيّن السيوطي طرفًا منها فقال: " التكرير: وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة خلافًا لبعض من غلط، وله فوائد:

منها : التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرّر تقرر، وقد نبّه تعالى على السبب الذي لأجله كرّر الأقاصيص والإنذار في القرآن الكريم، بقوله: ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[طه: ١١٣] .

ومنها: التأكيد .

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣١٣) .

ومنها: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة؛ ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾[غافر: ٣٨-٣٩]، فإنه كرّر فيه النداء لذلك .

ومنها: إذا طال الكلام، وخشي تناسى الأول، أعيد ثانيًا؛ تطرية له، وتجديدًا لعهده، ومنه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾[النحل: ١١٩]، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾[النحل: ١١٠]،﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٨٩]، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[البقرة: ٨٩]، ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾[آل عمران: ١٨٨]، ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى﴾[يوسف: ٤][1].

ومنها: التنوع البلاغي فيذكر الخبر على طريقة الإيجاز، وعلى طريقة الإطناب؛ إظهارًا لفصاحة القرآن على الطريقتين"[2].

وبين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فوائد تكرار قصة موسى نموذجًا لهدايات التكرار، فقال: " وقد ذكر الله هذه القصة في عدة مواضع من القرآن الكريم، يبيّن في كل موضع منها، من الاعتبار والاستدلال، نوعًا غير النوع الآخر، كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة، كل اسم يدل على معنى لم

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٢٤-٢٢٥) .

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٩) .

يدل عليه الاسم الآخر، وليس في هذا تكرار، بل فيه تنويع الآيات مثل أسماء النبي صلى الله عليه وسلّم، إذا قيل: محمد، وأحمد، والحاشر، والعاقب، والمقفى، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، في كل اسم دلالة على معنى ليس في الاسم الآخر، وإن كانت الذات واحدة، فالصفات متنوعة .

وكذلك القرآن الكريم، إذا قيل فيه: قرآن، وفرقان، وبيان، وهدى، وبصائر، وشفاء، ونور، ورحمة، وروح: فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الآخر .

وكذلك أسماء الرب تعالى، إذا قيل: الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور: فكل اسم يدل على معنى، ليس هو المعنى الذي في الاسم الآخر، فالذات واحدة، والصفات متعددة، فهذا في الأسماء المفردة .

وكذلك في الجمل التامة، يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها، ثم يعبر عنها بجمل أخرى، تدل على معان أخر، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة، فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنًى ليس في الجمل الأخر"[1] .

وحول إعجاز التكرار في القرآن الكريم يقول الرافعي رحمه الله: " وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجبًا، وهو: التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء، وأصل المعنى واحد، في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه؛ لتوكيد الزجر، والوعيد،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٦٧، ١٦٨) .

وبسط الموعظة، وتثبيت الحجة، ونحوها، أو في بعض عباراته؛ لتحقيق النعمة، وترديد المنة، والتذكير بالنعم، واقتضاء شكره، إلى ما يكون هذا الباب؛ وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم؛ للتهويل، والتوكيد، والتخويف، والتفجع، وما يجري مجراها، من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم، منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة .

بيد أنّ وروده في القرآن الكريم، مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته، وأنهم يعجزون عنه؛ لقوة غريبة فيه، لم يكونوا يعرفونها إلا توهمًا، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة، لأن المعنى الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين، أو صور ، كل منها غير الأخرى، وجهًا، أو عبارة، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرون على العجز، لا يطيقون ولا ينطقون .

فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز، وأشد عليهم في التحدي؛ إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسي، الذي قد تمكن معه الاستطاعة، أو تتهيأ المعاريض، حينًا بعد حين، إلى العجز الفطري الذي لا يتأوّل فيه المتأول، ولا يعتذر منه المعتذرون، ولا يجري الأمر فيه على المسامحة "(١) .

فالمقصود الأول من التكرار، هو المقصود الأول من إنزال القرآن الكريم، وهو تحقيق الهداية، فإن التربية على الهداية والدعوة إليها تحتاج على الدوام إلى

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص:١٣٤-١٣٥) .

التذكير والتكرير، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات: ٥٥]، وقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾[الأعلى: ٩-١٠][1] .

فبكل ما سبق، تبيّن لنا أنّ التكرار بنوعيه: اللفظي، والمعنوي، أسلوب بلاغي قرآني؛ لتقرير الهداية .

---

(١) للتوسع في دراسة ظاهرة التكرار في القرآن، ينظر: دراسات قرآنية لمحمد قطب (ص: ٢٤٥- ٢٦١).

المطلب الرابع: الطباق والمقابلة:

من الأساليب البلاغية: الطباق والمقابلة، ويسمى الطباق بالمطابقة والتضاد أيضًا، وهو الجمع بين المتضادين، أي: معنيين متقابلين في الجملة[(١)]، وقد استُخدم كثيرا في القرآن الكريم، وله عدة صور:

منها: أن يكون بلفظين من نوع واحد كالفعلين، وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[الرعد: ٢٧]، وقوله: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾[سبأ: ٥٠].

والطباق يزيد المعنى تأكيدًا ووضوحًا، وفي الجمع بين الهدى والضلال في هذه الآيات وغيرها بيان لتمحض الهداية ووضوحها، وأن طريقها لا يجتمع مع الضلال بحال .

ومنها: أن يكون اللفظان من نوعين مختلفين كالاسم والفعل في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[الأنعام:١٢٢] يعني: من كان كافرًا ضالًا فهديناه، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)] .

---

(١) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٣/ ١٩٨)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٢٧) .

(٢) جامع البيان (١٢/ ٩١) .

وفي الآية أسلوب بلاغي آخر، وهو استعارة الموت مكان الكفر، والحياة مكان الهدى، والنور مكان الإيمان، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر:٢٢]، وهو ما سيأتي تناوله في أسلوب ضرب الأمثال .

وأما المقابلة: فقد تكون مقابلة اثنين باثنين كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾[التوبة:٨٢]، فلفظا: الضحك والقليل، يقابله لفظا: البكاء والكثير، وفيه تأكيد ما سيحصل لهم من بكاء كثير في الآخرة، مقابل ضحكهم القليل في الدنيا .

وقد تكون بأكثر من ذلك، كمقابلة أربعة بأربعة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[الليل: ٥ – ١٠] .

قال السعدي رحمه الله: " ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾: أي: ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات، والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم، ونحوهما، والمركبة منهما، كالحج والعمرة، ونحوهما، ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها، ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أي: صدق بـ (لا إله إلا الله)، وما دلّت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسرا له كل خير، ميسرًا له ترك كل شر؛ لأنّه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك، ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ ﴾ بما أمر به، فترك

الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها، ولا فوز، ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية"[(١)] .

وقد بلغت هذه الآيات غاية البلاغة، حيث رسمت صورا من الهداية، ثم أعقبتها بما يقابلها من سبل الغواية، مما تجذب القلوب للتدبر، وتهيئ النفوس للتقبل، وتبين الطريقين، وتفرق بين النجدين .

قال السيوطي رحمه الله: " وقال بعضهم: المقابلة إما لواحد بواحد، وذلك قليل جدا، كقوله: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾[البقرة:٢٥٥]، أو اثنين باثنين، كقوله: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾] التوبة: ٨٢]، أو ثلاثة بثلاثة، كقوله: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وأربعة بأربعة، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ الآيتين، وخمسة بخمسة، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ [البقرة: ٢٦]، الآيات ، قابل بين ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾، وبين ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، و ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، وبين ﴿ يُضِلُّ ﴾،و﴿ وَيَهْدِى ﴾، وبين ﴿ يَنقُضُونَ ﴾، و

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٢٦) .

﴿ مِيثَٰقِهِۦ ﴾، وبين ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾، و ﴿ أَن يُوصَلَ ﴾، أو ستة بستة، كقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾[آل عمران: ١٤]، الآية، ثم قال: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم ﴾[آل عمران: ١٥] الآية، قابل الجنات، والأنهار، والخلد، والأزواج، والتطهير، والرضوان، بإزاء ﴿ ٱلنِّسَآءِ ﴾، ﴿ وَٱلْبَنِينَ ﴾، ﴿ ٱلذَّهَبِ ﴾، ﴿ وَٱلْفِضَّةِ ﴾، ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾، ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾، ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾"(١).

فتبيّن من هذه الأمثلة اتساع ذكر هذا الأسلوب، وتنوع استخدامه، وقوة دلالاته، مما يكسبه أهمية تستدعي مزيد الوقوف معه عند استنباط الهدايات، واستخراج ما تحويه الآيات من إرشادات .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٢٨) .

المطلب الخامس: أسلوب الالتفات:

هذا الأسلوب مشهور عند علماء القرآن الكريم والتفسير والبلاغة، وهو أسلوب بلاغي عربي، تميز به القرآن الكريم، وكثر استعماله فيه، وتفنن المفسرون في بيان أغراضه البلاغية، ودلالاته الإعجازية .

ومعناه: انتقال الكلام من أسلوب إلى آخر، في سياق واحد .

قال الزركشي: " وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر؛ تطرية واستدرارًا للسامع، وتجديدا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر؛ بدوام الأسلوب الواحد على سمعه كما قيل:

لا يصلح النفس إن كانت مصرفة إلا التنقل من حال إلى حال"[(١)]

وخصه الجمهور بانتقال الضمائر من خطاب إلى غائب، أو متكلم إلى خطاب، وبقية السداسية المشهورة التي ستأتي، وذهب بعضهم إلى أن الالتفات عام في الضمائر والأفعال والأعداد[(٢)] .

وأمثلة الالتفات كثيرة، بحسب أنواعه الستة على المشهور، نعرض لها، مع بيان فوائد هذا الأسلوب من خلالها، وأثره في الهدايات، وهي كما يلي:

١-مثال الالتفات من ضمير الغيبة إلى التكلم: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة: ١٢]، فهنا التفات من أسلوب الغيبة في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، إلى أسلوب

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤) .

(٢) المثل السائر؛ لابن الأثير (٢/ ٣) .

المتكلم في قوله تعالى: ﴿ وَبَعَثْنَا ﴾، ولو جاء الأسلوب على السياق السابق لكان: (وبعث) .

وفائدة ذلك كما قال أبو السعود رحمه الله: " والالتفات في قوله تعالى: ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ للجَري على سَنن الكبرياء، أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام "(١) .

وأمثلته كثيرة، وغالب هذا النوع عائد على الله تعالى؛ تعظيمًا له، وبيانًا لمزيد عناية بالملتفت إليه(٢) .

٢- ومثال الالتفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾[مريم: ٨٨-٨٩]، فكان الأسلوب للغيبة بحكاية قولهم في قوله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾، ولم يقل: (لقد جاؤوا)، وفي هذا الالتفات زيادة التوبيخ لهم، والتشنيع عليهم، ومواجهتهم بجرمهم .

قال البيضاوي رحمه الله: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾: على الالتفات للمبالغة في الذم، والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى "(٣) .

٣- ومثال الالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة: قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٤) .

(٢) ينظر : عادات القرآن الأسلوبية (٢/ ٦٤١) .

(٣) أنوار التنزيل (٤/ ٣٥) .

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[يونس: ٢٢] .

قال الزركشي رحمه الله: " فقد التفت عن ﴿ كُنتُمۡ ﴾ إلى ﴿ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾، وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم؛ لتعجبه من فعلهم وكفرهم، إذ لو استمر على خطابهم؛ لفاتت تلك الفائدة .

وقيل: لأن الخطاب أولا كان مع الناس، مؤمنهم وكافرهم، بدليل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ فلو قال: (وجرين بكم)؛ للزم الذم للجميع، فالتفت عن الأول؛ للإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء، الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية، فعدل عن الخطاب العام إلى الذم الخاص ببعضهم، وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم .

وقيل: لأنهم وقت الركوب حصروا؛ لأنهم خافوا الهلاك، وتقلب الرياح، فناداهم نداء الحاضرين، ثم إنّ الرياح لما جرت بما تشتهي النفوس، وأمنت الهلاك: لم يبق حضورهم كما كان، على ما هي عادة الإنسان أنه إذا أمن غاب، فلما غابوا عند جريه بريح طيبة، ذكرهم الله بصيغة الغيبة، فقال: ﴿ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾"(١) .

٤- ومثال الالتفات من ضمير الخطاب إلى التكلم: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾[البقرة: ١٨٦]، فهنا التفات من أسلوب خطاب الله تعالى للنبي ﷺ، إلى أسلوب المتكلم، فلم يقل: (فقل إني

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٨) .

قريب)، وإنما قال: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، وفي هذا الالتفات أنواع من الهدايات العظيمة، والمعاني البليغة، بيّن طرفًا منها ابن عاشور بقوله: " وإنما قال تعالى: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل: فقل لهم إني قريب؛ إيجازًا لظهوره، من قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾؛ وتنبيهًا على أن السؤال مفروض، غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفة قرآنية ، وهي: إيهام أن الله تعالى تولى جوابهم عن سؤالهم بنفسه؛ إذ حذف في اللفظ ما يدل على وساطة النبي ﷺ؛ تنبيها على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء "[1] .

٥- ومثال الالتفات من ضمير التكلم إلى الغيبة: قوله تعالى: ﴿ طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾[طه:١-٤]، فهنا التفات من أسلوب المتكلم: ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ إلى أسلوب الغائب: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ .

وفي ذلك يقول الزمخشري رحمه الله: " فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة: منها : عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها: أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها: أنه قال أولًا: ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنّى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين "[2] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٧٩) .

(٢) الكشاف (٣/ ٥١) .

٦- ومثال الالتفات من ضمير التكلم إلى الخطاب: قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يس:٢٢] .

وفي هدايات هذا الالتفات يقول الشوكاني رحمه الله: " ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي: أي مانع من جانبي، يمنعني من عبادة الذي خلقني؟ ثم رجع إلى خطابهم؛ لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه فقال: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾، ولم يقل: (إليه أرجع)، وفيه مبالغة في التهديد "[١] .

والأمثلة على أسلوب الالتفات كثيرة، ومن خلال ما ذكر ظهر لنا بعض وجوه الإعجاز البلاغي لهذا الأسلوب، ومدى تأثيره في تحقيق الهدايات، وبه تظهر أهميته، وضرورة العناية به في استخراج الإرشادات من الآيات؛ لذلك يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: " نرى من أفانين الكلام الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة، إلى طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية؛ لأنّ ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف، يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه، صار من أفانين البلاغة، وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن الكريم ما لا يحصى كثرة، مع دقة المناسبة في الانتقال "[٢] .

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤١٩) .

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٩) .

المطلب السادس: الأسلوب الجدلي والحواري:

الجدل والحوار، قيل: إنهما بمعنى واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾[المجادلة: ١]، فسمى جدالها محاورة، وقيل: الحوار أعم من الجدل؛ إذ هو عام في كل محادثة بين طرفين، وهو الأشهر، والآية تحتمله، كما سيظهر في ثنايا التفصيل[1] .

قال ابن منظور رحمه الله: " وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة "[2] .

أما الجدل: فهو مصطلح شرعي، في مقابل المناظرة التي هي إطلاق اصطلاحي .

ومعنى الجدل كما قال ابن فارس رحمه الله: " الجيم والدال واللام أصل واحد وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام "[3]، ففيه ذكر الحجج وشدة تقريرها .

قال النووي رحمه الله: " الجدل والجدال والمجادلة: مقابلة الحجة بالحجة .. وأصله الخصومة الشديدة، وسمي جدلًا؛ لأنّ كل واحد منهما يحكم خصومته

---

(١) الكافية في الجدل للجويني (ص:٢١)، « منهج الجدل والمناظرة » د. عثمان علي (١/ ٢٧) .

(٢) لسان العرب (٤/ ٢١٨) .

(٣) معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٣٣) .

وحجته، إحكامًا بليغًا، على قدر طاقته؛ تشبها بجدل الحبل، وهو إحكام فتله "(١) .

أما المناظرة، فلها عدة تعريفات، منها: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين؛ إظهارًا للصواب(٢) .

وهما بمعنى واحد كما أسلفنا، قال صديق حسن خان رحمه الله: " ولا يبعد أن يقال : إن علم الجدل هو علم المناظرة ؛ لأن المآل منهما واحد "(٣) .

والجدل في القرآن الكريم على نوعين: محمود، ومذموم:

فالجدل المحمود: كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦] .

والجدل المذموم: هو الجدال بالباطل، ومكابرة الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[غافر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[غافر: ٥] .

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٤٨) .

(٢) ينظر: الكليات للكفوي (ص:٨٤٩) .

(٣) أبجد العلوم (٢/ ٢٠٨) .

ويدخل في الجدل الباطل كذلك، الجدال بغير علم،كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾[الحج: ٣]، وقال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾[الحج: ٨]،وقال سبحانه: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٦] .

قال ابن الحنبلي رحمه الله: " اعلم أن الله سبحانه ذكر لفظة الجدل، وما تصرف منها، في كتابه العزيز، في تسعة وعشرين موضعًا، ولفظة الحجة، وما تصرف منها، في سبعة وعشرين موضعًا، ولفظة السلطان أيضًا، في ثلاثة وثلاثين موضعًا، الجميع المراد به: الحجة، سوى موضع واحد، في الحاقة: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾[الحاقة: ٢٩]، وقيل: المراد به الحجة، فأما الجدل فهو مذموم، في كل موضع ذكر، إلا في ثلاثة مواضع:

أحدها: في النحل: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[النحل: ١٢٥]، الموضع الثاني: في العنكبوت: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[العنكبوت: ٤٦]، الموضع الثالث: في المجادلة:﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ﴾[المجادلة: ١]"(١) .

وقد استعمل القرآن الكريم أسلوب الحوار، والجدل، والمناظرة، أسلوبًا إقناعيًا دعوياً؛ لإيصال الهداية لمن يعقلها، بل دعا إلى هذا الأسلوب فقال: ﴿ قُلۡ

---

(١) استخراج الجدل من القرآن لابن الحنبلي (٤٩-٥٢) .

هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[النمل: ٦٤] ، وقال: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[يونس:٦٨]"[١] .

وأول مجادلة ومحاورة حكاها القرآن، هي ما كانت من الملائكة، في قولهم - كما حكى الله عنهم -: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[البقرة: ٣٠]، فكان جواب الله تعالى محققًا لأعظم معالم الهداية، في أول حوار يسوقه القرآن الكريم؛ منارةً للطريق في بداية خلق الإنسان، فقال سبحانه: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٣٠]، أي: من ترتيب خلقي، وتدبير صنعي، المحوط بالحكمة، الدال على القدرة؛ فإنّي خلقت الملائكة من نور لا ظلمة فيه، فكان منهم الخير المحض بإرادتي، وخلقت الشياطين من ظلمة نار السموم، فكان منهم الشر المحض بإرادتي، وخلقت آدم وذريته من نور وظلمة، فكان منهم الخير والشر بإرادتي، ووضعت فيهم عقلًا يرشد إلى المصالح، ونفسًا ميالّة إلى الهوى، وأمددت الفريقين بجندين، يسوقان العقل والنفس، إلى ما سبق من التقدير، الناشئ عن علم التدبير، وكان حكمي في هذين الفريقين أنّ من غلب عقله على هواه فهو من الناجين، ومن غلب هواه على عقله فهو من الهالكين، وقد ركبت فيهم من الشهوة ما لو ركّبته فيكم؛ لفعلتم فعلهم، أو لم تطيقوا صبرهم، على أنهم قد أحبوني محبةً بذلوا فيها أبدانهم للتمزيق، ودماءهم للإراقة، وأرواحهم للذهاب، ومنهم الصابرون على أنواع

(١) ينظر: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة د. حمد العثمان (ص:٣٣) .

المكاره، والصائمون في الهواجر، والعابدون على ضعف القوى، والناهون نفوسهم مع قوة الهوى، ويرون ذلك المرّ حلوًا في رضائي، وتسليمًا لقضائي، يسابق كلّ وليّ منهم بالعبادة أجله، يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة، فظهرت حكمة الله تعالى في خلقهم، ورجحت حجة الله سبحانه على الملائكة في قدحهم[(١)].

كما جادل القرآن الكريم مختلف الطوائف، وأهل الملل، فقد استغرق الحديث عن اليهود آيات كثيرة، من سورة البقرة ، وآل عمران، وسورة المائدة، وغيرها؛ وذلك لكشف مكائدهم وعداوتهم لله سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلّم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[آل عمران: ١٨٣]، ومعناه: أنّ العلة التي توجب عندكم الإيمان بالرسل قد وجدت، فلم قتلتموهم؟ فدلّ على أنّ التعليل بما ذكرتم غير صحيح، وهذا النقض وارد على معنى كلامهم، وهو يهدم كلام الخصم على أي وجه كان، ويعدّ من القوادح العقلية، في علم الجدل والأصول .

ويجادل القرآن المشركين، فيقول سبحانه: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۞٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا

(١) ينظر: استخراج الجدل لابن الحنبلي (٥٧-٥٩).

﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٠ – ٦١] إلى آخر الآيات، فكلها استخدم فيها أسلوب المناظرة، في الانتقال من المسلمات إلى المطلوبات، فهم يسلمون بخلقه سبحانه للسموات والأرض، وإنزاله للمطر، وإنباته للشجر، وإجرائه للنهر، فألزمهم بهذا التسليم أن يفردوه بالعبادة، فقال: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾: أي أنّ الذي خلق ما تقرّون به، هو المستحق للعبادة دون غيره .

فهذه المناظرات القرآنية، والأساليب الجدلية البرهانية، مع أصحاب الملل المختلفة، تحقق أعمق الهدايات، باعتقاد الحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر .

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: " فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار "(١) .

لذلك كان الأسلوب الجدلي، من أهم الأساليب التي استخدمها الأنبياء، فجادل نوح قومه، كما في مواضع من القرآن الكريم، حتى حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾[هود:٣٢]، وجادل إبراهيم عليه وسلّم أباه وقومه، فقال الله تعالى فيه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ٨٣]، وجادل شعيب عليه السلام قومه، وجادل موسى عليه وسلّم فرعون، وهكذا كانت المجادلة بالتي هي أحسن دأبًا للأنبياء بتعليم الله تعالى لهم، ختما بالنبي صلى الله عليه وسلّم الذي تزخر سنّته بذلك، ولذا كان التوجيه الرباني لجميع أتباع الأنبياء من الدعاة والعلماء آمرًا بها،

(١) بدائع التفسير (٢/ ١٥٢) .

كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[العنكبوت: ٤٦] .

وذكر القرآن الكريم حوارات متنوعة، للملائكة، والجن، والطير، والنمل، في لوحة بلاغية بديعة، في كل منها هدايات عقلية، وإيمانية، وتربوية، يهتدي بها الناظرون، ويستضيء بمنارها السائرون، بل لقد هيأ القرآن أرضية الحوار، بأن قعد التزام كل واحد من المتحاورين أن يتبع الحق إذا ظهر على لسان مناظره، فقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ٢٤] .

ثم طمأن المتحاورين إلى أن الأمر كله لله، والهداية لا تحقق بمجرد المجادلة، بل على صاحب الحق أن يبذل وسعه، ثم الفتح من الله تعالى، فقال: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[سبأ: ٢٦] .

ثم أمر بختم الحوار إن لم يؤت أكله، ولم تر حاجة في المتابعة، ومقابلة الخصم على ما بدر منه من إساءات في الحوار بالصبر، وليكن العفو والصفح، أساسًا وخلقًا، في التعامل مع الجاهلين، فقال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾[السجدة: ٣٠]، وقال: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[النجم: ٢٩]، وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[المزمل: ١٠]، وقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩] .

فأسلوب الحوار والجدال أصل متكامل في القرآن الكريم؛ لتقرير الهدايات، ومنهاج للأنبياء مع أقوامهم، ومنارة للدعاة في تبليغ رسالة ربهم .

المطلب السابع: أسلوب ضرب الأمثال:

ضرب الأمثال من الأساليب القرآنية العظيمة التي استخدمها القرآن؛ لتحقيق الهدايات، بمجالاتها المتعددة، كما قال تعالى في أوائل كتابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦]، فدلت الآية على أن الأمثال يهتدي بها المؤمنون، ويضل بها المكابرون الفاسقون .

والكلام في هذا الأسلوب القرآني متسع مشعب، ولكننا هنا نشير إلى الجانب الذي نحن بصدده، وهو تحقيق هذا الأسلوب للهداية، وسيكون ذلك من خلال بيان معنى المثل، ثم بيان أنواعه، ثم فوائد ضرب الأمثال، وكل ذلك محلى بنماذج من الآيات التي تصور لنا تحقيق الأمثال القرآنية للهداية .

المثل في اللغة: مأخوذ من النظير، والمساوي، والصفة، والعبرة، وما يجعل مثالاً لغيره[1] .

قال الفيروز آبادي رحمه الله: المثل - بالكسر والسكون - الشبه، والجمع أمثال؛ والمثل - محرّكة - : الحجة، والصفة، والمثال: المقدار والقصاص، إلى غير ذلك من المعاني[2] .

---

(١) لسان العرب (١٣٢٢)، مادة: مثل .

(٢) القاموس المحيط (٤٤٩)، مادة: مثل .

فالنظير، والمساوي، وما يجعل مثلًا لغيره، كلها معان واضحة للمثل، وأما الصفة، فكما في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾[الرعد: ٣٥]، وكذلك في آية محمد: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١] ، وقيل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ ﴾[الفتح: ٢٩] .

قال الراغب رحمه الله: " والمثل يقال على وجهين: أحدهما: بمعنى المثل، نحو: شبه وشبه، ونقض ونقض، قال بعضهم: وقد يعبّر بهما عن وصف الشيء، نحو قوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ ﴾، والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان "[(١)] .

والمثل في معناه العام: قول سائر، تشبه به حالة الثاني بحالة الأول .

وهو تفصيلًا على ثلاثة أنواع :

الأول: المثل السائر الموجز: والمراد به عبارات موجزة تشيع وتنتشر ويكثر دورانها على الألسنة، في مواطن متعددة، وهو كثير في كلام العرب كقولهم: (لكل مقام مقال ولكل دهر رجال)، (رجع بخفي حنين)، (كالمستجير من

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٩)، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، تأملات وتدبر، د. عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني (ص: ٣٩-٤٠) .

الرمضاء بالنار)، وهو مذكور أيضا في أحاديث النبيﷺ كما في قوله ﷺ: " إذا لم تستح فاصنع ما شئت "(١) .

وقوله ﷺ: " إنما الصبر عند الصدمة الأولى "(٢) .

وقوله ﷺ: " اليد العليا خير من اليد السفلى "(٣)، وغيرها كثير .

ومن هذه الأنواع في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾[البقرة:١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾[النور: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾[الأحزاب: ٢٥]، وغيرها .

فهي آيات ذات معنى معين، ولكنها تستخدم في مواطن متعددة:

فالآية الأولى: تستخدم في كل من لم يأت الأمور على وجهها .

والثانية: وإن كانت لتشبيه حال أعمال الكفار، إلا أنّها أصبحت مثلًا سائرًا في كل ما لا يرجى تحصيله .

والثالثة: في كل ما كفي الإنسان مؤنته، وتخلص من تبعته .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، برقم: (٣٤٨٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، برقم: (١٢٨٣)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، برقم: (٩٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، برقم: (١٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، برقم: (١٠٣٤) .

وهذه الأمثال السائرة هي عبارة عن عمومات، تنزل على بعض المفردات، وقد استطاع بعض الدارسين المعاصرين أن يجمع منها نحو سبعمائة مثل، - والله أعلم -[1] .

الثاني: المثل الخيالي، أو الخرافي: وهو عبارة عن حكايات خيالية، على ألسنة الحيوانات، أو الأشجار، أو الجمادات، يراد بها التعليم، أو العبرة، أو الفكاهة، كقولهم: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض)، وهو أسلوب أدبي قصصي عند العرب، كما في (كليلة ودمنة) لابن المقفع، وهذا النوع لا محل له في القرآن الكريم .

الثالث: المثل القياسي: وهو المثل القصصي الذي فيه تشبيه صورة بصورة، وهذا النوع يدخل في القياس، من جهة أن فيه تعديةً وتشبيهًا، كما أنه يدخل في الأساليب البلاغية، ضمن التشبيهات والاستعارات .

قال ابن القيم رحمه الله: " وضرب الأمثال، وصرفها في الأنواع المختلفة، وكلها أقيسة عقلية، ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله، فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم المَمَثّل من الممثّل به، وقد اشتمل القرآن الكريم على بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم "[2] .

---

(١) الأمثال العربية، دراسة تاريخية تحليلية، د. عبد المجيد قطامش (ص:١٣٠)، نقلًا عن الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله للجربوع (١/ ٤٧) .

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٠١) .

وهناك تقسيم آخر للأمثال، ذكره الزركشي رحمه الله وغيره، وهو أنّها على قسمين: ظاهر، وهو: المصرّح به، وكامن، وهو: الذي لا ذكر للمثل فيه، وحكمه حكم الأمثال[1].

قال السيوطي رحمه الله: " وأما الكامنة، فقال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في كتاب الله، " خير الأمور أوساطها "؟ قال: نعم، في أربعة مواضع: قوله تعالى: ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾[البقرة: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[الإسراء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ١١٠] .

قلت: فهل تجد في كتاب الله، " من جهل شيئا عاداه "؟، قال: نعم في موضعين: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾[يونس: ٣٩]، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[الأحقاف: ١١] .

قلت: فهل تجد في كتاب الله، " احذر شر من أحسنت إليه "؟ قال: نعم: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[التوبة: ٧٤] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٥٧١) .

قلت: فهل تجد في كتاب الله، " ليس الخبر كالعيان "؟ قال: في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾(البقرة: ٢٦٠).

قلت: فهل تجد في " الحركات البركات "؟ قال: في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[النساء: ١٠٠] .

قلت: فهل تجد " كما تدين تدان "؟ قال: في قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾[النساء: ١٢٣] .

قلت: فهل تجد فيه قولهم: "حين تقلي ندري"؟ قال: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان: ٤٢] .

قلت: فهل تجد فيه " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين "؟ قال: ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾[يوسف: ٦٤] .

قلت: فهل تجد فيه، " من أعان ظالمًا سلط عليه "؟ قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[الحج: ٤] .

قلت: فهل تجد فيه قولهم: " لا تلد الحية إلا حية "؟ قال: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[نوح: ٢٧] .. "(١) .

وكما هو ظاهر فإن أكثر هذه الأمثال الكامنة، هي ضمن الأمثال السائرة التي سبق بيانها، وبعضها من الكنايات والاستعارات، وهي داخلة في المفهوم العام للأمثال القرآنية؛ لذلك لم نفردها في هذه الدراسة المختصرة .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٠٤٥-١٠٤٦) .

وقد بيّن الله تعالى أهمية ضرب الأمثال، وأن فهم حقيقة مراميها، وتدبر دقائق معانيها، واستخراج أعماق خوافيها، إنّما هو من خصائص أولي الألباب والتفكّر، والعلم والتدبر، فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١].

فأمثال القرآن الكريم لها مميزات عظيمة، وفوائد جليلة تصب في معين الهداية، وتحلق بالمؤمنين في معارج الولاية، ومن فوائد هذا الأسلوب ما يلي:

١ - ما فيه من إيجاز الألفاظ، واختصار العبارات؛ يدفع شرود الذهن والسآمة، فتتغلغل في دواخل العقل، وتؤتي أكلها في سويداء القلب .

٢- أنّ فيه بيانًا للمعنى المراد، وإصابته بأوضح دلالة، فبتدبر يسير، يفهم المثل، ووجهه، والغاية منه، والاعتبار به ، فتحقق الهداية بأيسر السبل .

٣- فيه حسن التشبيه، وقوة الصور البلاغية، فيكون أسلوبًا آخر للحوار، ونمطا متجددا للحجة، وطريقا للهداية .

٤- وفيه إيناس النفس، وسرعة قبولها وانقيادها، فالأمثال تروق لها الأسماع، وتنجذب لها الأفئدة .

قال عبد القاهر الجرجاني رحمه الله: " اعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها،

وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطّباع على أن تعطيها محبة وشغفًا.

فإن كان ذمًّا: كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشدّ، وحدّه أحد.

وإن كان حجاجًا: كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

وإن كان افتخارًا: كان شأوه أمدّ، وشرفه أجد، ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارًا: كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وحسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظًا: كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجلي الغياية، ويبصّر الغاية، ويبري العليل، ويشفي الغليل"[1].

والأمثال القياسية على أنواع:

منها: التمثيل القصصي، وهو: بيان أحوال الأمم الماضية؛ للعظة والاعتبار، من خلال التشابه الموجود بينها وبين غيرها، كما في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠][2].

(١) أسرار البلاغة (١٠١-١٠٢).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٠٤١).

وهذا النوع يحقق الهداية من وجوه:

منها: الاقتداء بأهل الهداية، المضروب بهم المثل الحسن، والانتهاء عن سبل الغواية التي ضرب بها مثل السوء، كما قال الله تعالى عن شعيب في إنذار قومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾[هود: ٨٩] .

ومنها: أن عاقبة من ضرب بهم المثل متعدية إلى غيرهم ممن هم على سننهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[هود: ٨٢ -٨٣]، وغير ذلك مما سيأتي في هدايات الأسلوب القصصي .

ومن أنواع الأمثال القياسية: التمثيل الطبيعي: وهو عبارة عن تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، والغائب بالمشاهد، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[يونس: ٢٤]، فهنا ضرب الله تعالى مثلا للحياة الدنيا وزهرتها، وتزينها في عين ناظرها واغتراره بها، ثم سرعة انقضائها، وزوالها وفنائها، وسلبها منه بغتة، بنبات الأرض مما يأكله الناس والأنعام، والذي أخرجه الله بماء أنزله من السماء، حتى إذا تزخرفت الأرض بأصنافها الزاهية، وازينت بأنواعها المختلفة، وظنّ أصحابها أنهم قادرون على جذاذها وحصادها، أتاها أمر الله من صاعقة، أو ريح، أو آفة،

فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها، كأنها لم تكن شيئا بالأمس، وهكذا شأن الدنيا، تمر ساعاتها سراعًا، وتنقضي أوقاتها تباعًا، وأما الجنة فهي السليمة من الآفات، الدائمة في النعيم والخيرات؛ لذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[يونس: ٢٥][١]، وفي ختمه بالهداية تأكيد لتحقيق الأمثال لها، وإيصالها إليها .

فهكذا هي الأمثال، واسعة الشعب، متعددة المقاصد، كالبستان الذي يستفاد منه فوائد متنوعة؛ بظلاله وعيونه، وأخشاب أشجاره، وروائح أزهاره، ومذاق ثماره .

قال الرازي رحمه الله: " إنّ المقصود من ضرب الأمثال أنّها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردًا عن ضرب مثل له، لم يتأكد وقوعه في القلب، كما يتأكد وقوعه إذا مثِّل بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر، لم يتأكد قبحه في العقول، كما يتأكد إذا مثِّل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور، وضرب مثله بنسج العنكبوت، كان ذلك أبلغ في تقرير صورته، من الإخبار بضعفه مجردًا، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله "[٢] .

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١١٨) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٣١٢)، وقال نحوه الزركشي في البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٨٨) .

وقد نزلت الأمثال؛ لهداية الناس، فلذلك كانت تتميز بما تتميز به مراحل الهداية:

فالأمثال في المرحلة المكية كانت تتميز في الأغلب بما تتميز به الآيات المكية: من مجادلة المشركين، وإبطال آلهتهم، وتقرير التوحيد، وإثبات البعث، كما في سورة العنكبوت، حيث يقول سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤١]، ففيها تشبيه عظيم: يضرب الله فيه مثلا لآلهة المشركين ببيت العنكبوت، ويشبه المشركين في اتخاذهم لهذه الآلهة بالعنكبوت التي اتخذت ذلك البيت الذي هو أوهى البيوت، وتحت هذا المثل أنّ هؤلاء لم يستفيدوا من اتخاذهم لآلهتهم، والاستنصار بهم، إلا بعدا عن نصرة الله، وتأييده، وتوفيقه، فحصل لهم باتخاذ هذه الآلهة نقيض مقصودهم، وعاملهم الله بضد مرادهم؛ فحقيقة الأمر أنهم كتلك العنكبوت التي تلقى غاية التعب والعناء، وتشقى غاية الشقاء، وتبذل جهدها في بناء بيتها، ومع ذلك لا ينفعها ولا يدفع عنها الضر، ولا يقيها الريح والمطر، ولا الحر والقر[1] .

وفي بيان فضائل التوحيد، وقبائح الشرك، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٦]،

---

(١) ينظر: تفسير السمعاني (٤/ ١٨٢)، بتصرف .

فضرب الله تعالى هذا المثل العظيم لكلمة التوحيد، وشبهها بالشجرة الطيبة، التي تضرب بجذورها الأرض وتثبت فيها، وتمتد بأغصانها إلى السماء، تؤتي أكلها، وتثمر ثمارها كل حين، وينتفع الناس بخيراتها، ممسين ومصبحين، وهكذا كلمة التوحيد، وشهادة الحق، إذا تمكنت في القلب، وثبتت فيه، وتغلغلت في سويدائه، وأخلص لها صاحبها، وعرف حقيقتها، وقام بحقها، أثمرت ثمارها اليانعة، وظهرت أنوارها الساطعة، فانعكست على الجوارح أعمالًا صالحة، وأقوالًا طيبة نافعة، ترتفع إلى السماء، وتصعد إلى الله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر: ١٠]، فتأمل هذا التمثيل البديع، والوصف البليغ .

وكذلك يضرب الله مثلا للكلمة الخبيثة، وهي: كلمة الكفر، والشرك، بشجرة خبيثة، ومع خبثها، ونفور الطباع عنها، اجتثت من فوق الأرض، أي: اقتلعت، واستؤصلت من جذورها، فلا قرار لها، أي: لا أصل لها، ولا ثبات، وبالتالي لا ثمر لها، حيث انقطعت عنها مادة السقي، وهكذا الكفر والشرك في قلب صاحبه، لا أصل له يمسكه ويثبته، ولا عمل له ينتجه ويصلحه، بل يبقى كتلك الشجرة بضعفها ووهنها ، تعصف به الريح وتنفر عنه الفطرة ، ولا يصعد منه عمل إلى الله تعالى، فلا أصل له في الأرض، ولا فرع له في السماء، لا يؤتي أكله ؛ لانقطاع مادة الحياة، وهي: الإيمان والتوحيد، فبالمقارنة بين المثلين، والتدبر في حال الفريقين، تتحقق الهداية لأقوم النجدين .

وأمّا الأمثال المدنية: فهي في غالبيتها تأخذ الطابع المدني في علاج الأدواء التي ابتلي بها المجتمع في المدينة، كالنفاق كما في أول الأمثال في سورة البقرة، وهو المثل

المائي والناري، وكانحرافات أهل الكتاب، حيث ضرب الله تعالى بهم مثلًا بالحمار يحمل أسفارًا، كما في سورة الجمعة، وكذلك التركيز على الجوانب السلوكية، كما في مثل الغيبة الوارد في سورة الحجرات، حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحجرات: ١٢]، فيصور الله تعالى شناعة الغيبة وبشاعتها بهذا المثل، فكما أنّه يقبح في الطبائع، وتكره النفس غاية الكراهة أكل لحم أخيك وهو ميت، فكذلك لا بد أن يكون اغتيابه، والكلام عليه، والطعن فيه، وهو غائب عنك مثله، ويتضمن هذا المثل القرآني غاية البلاغة، في التنفير من هذا الفعل، مما يحقق الهداية الأخلاقية، وذلك من وجوه[1]:

١- منها: أن هذا المشبه به، وهو أكل لحم الأخ ميتًا، لا يمكن أن يختلف اثنان في استخباثه، واستعظامه، فكان هذا أبلغ في الزجر والتشنيع؛ لذلك بدأه بالاستفهام المسلم بجوابه .

٢- ومنها: أن الغيبة مما تسهل على اللسان، ولا تثقل على النفس أن تسلس لها القياد، بل قد تحبها، وتأنس بها، فكان لا بد من تشبيهها بما يصعب على النفس، ويثقل طبيعة، ويكره فطرة .

٣- ومنها: أن أغلى ما في الإنسان عرضه، فمن نقص من عرضه، فكأنما نهش من لحمه، فالعرض هو الإنسان المعنوي، كما أن اللحم هو الإنسان الحسي .

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١٣١)، بتصرف، مع زيادات تدبرية .

٤- ومنها: أن تقييد اللحم بلحم الأخ؛ لزيادة التنفير، فإنه أفحش وأعظم حرمة من غيره، والمراد بها الأخوة الإيمانية، فهي الوشيجة الربانية .

٥- ومنها: أن الغائب لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الغيبة، والتهمة، والوقيعة، بل لا يشعر بها، وهذا مثل الميت لا يستطيع أن يدفع الاعتداء عن نفسه، وأذى الحي له، ولا يشعر به .

٦- ومنها: أن الغيبة حركة بالأفواه، وذكر للمثالب، وتمزيق للأعراض، فهي في طريقتها كأكل اللحم، وتمزيقه، وصعوبة مضغه، وتقطيعه .

٧- ومنها: أن اللحم يغطي العظام فمن يأكله وينهشه يكشف عن العظام، وكذلك من يغتاب إنما هو كاشف لعيوب غيره، وهاتك لستره .

هذا ما يلوح من وجوه الهدايات في هذا المثل العظيم، ولو أعمل القلب بمزيد من التدبر والتفكر؛ لخرج بأكثر من ذلك، وعلى هذا يسير المتأمل إذا أراد استخراج الهدايات من الأمثال .

وكذلك تميزت الأمثال المدنية بالصور المرغبة في الفضائل، كما في مثل مضاعفة النفقة، في سورة البقرة .

فالأمثال القرآنية، تتنوع بحسب التقسيمات السابقة؛ لتتعانق في تحقيق الهداية لكل من عقلها وتأملها،﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣] .

المطلب الثامن: الأسلوب القصصي:

من المعلوم أن جميع آيات القرآن الكريم لا تخرج عن قسمين: إما أخبار، وإما إنشاءات .

والأخبار في جملتها ترجع إلى ثلاثة أقسام:

١- أخبار عن الله تعالى وأفعاله، وصفات كماله، وأسماء جلاله .

٢- وأخبار عن الأمم السابقة، كقصص الأنبياء، وغيرها .

٣- وأخبار تتعلق بالأحداث اللاحقة، من أشراط الساعة، والبعث، والجنة والنار .

فالقصص هو النوع الثاني من الأخبار .

وأصل القصص في اللغة مأخوذ من القص: وهو تتبع الأثر، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[الكهف:٦٤]، أي: رجعا يتتبعان الأثر .
وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[القصص: ١١]، أي تتبعي أثره .
واقتص الحديث: رواه على وجهه، والقصة: الأمر والحديث، والقصص بالكسر: جمع القصة[١] .

والقصص اصطلاحًا: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا[٢]، ومن أهم أغراض القصص القرآني تحقيق الهداية، كما ذكر الله تعالى ذلك في سياق بيان فوائد القصص، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا

(١) لسان العرب (٨/ ٣٤١) .

(٢) ينظر: القصة في القرآن الكريم، د. مريم السباعي (ص: ٢٧) وما بعدها .

كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف: ١١١] .

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: " والهدى الذي في القصص: العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرف هو الله تعالى، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة "(١) .

والقصص القرآني على ثلاثة أنواع:

الأول: قصص الأنبياء، وهي تتضمن دعوتهم لأقوامهم، وما تعرضوا له في سبيل ذلك، ونصر الله تعالى لهم، والمعجزات التي أيدهم بها، وعاقبة المكذبين لهم .

الثاني: قصص الأمم السابقة من غير الأنبياء، كأصحاب الكهف، وذي القرنين، ومريم، ولقمان، وأصحاب السبت، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل، وإبليس، وغيرهم .

الثالث: القصص التي وقعت في عهد النبيﷺ، كبعض الغزوات وغيرها .

وتتنوع موضوعات القصص القرآني، فتتناول الجوانب المختلفة، من العقيدة، والرسالات، والعبادات، والأخلاق، كما أنها تخاطب العقل والعاطفة معًا، بسياج بلاغي بديع، فهي تتنوع لتنتظم جميع الأساليب القرآنية، البلاغية، والعقلية، والحوارية، والترغيب، والترهيب، والتحدي، وغيرها .

ومن فوائد قصص القرآن الكريم كما سبق في الآية: الاعتبار والاتعاظ .

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٧٢) .

قال أبو عبيد رحمه الله: " إنّ القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية، وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، إنما هو حديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم "(١).

لذلك نجد أن أكثر القصص تختم بمواعظ موجزة؛ لتتحقق بها الهداية، فبعد ذكر عدد من الأنبياء في سورة هود، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[هود: ١٠٣].

قال ابن عطية رحمه الله: " المعنى: أن في هذه القرى وما حل بها لعبرة وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع أن يناله عذابها فنظر وتأمل، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالى "(٢).

كما أن فيها تثبيتًا لقلب النبي ﷺ، وقلوب المؤمنين، على الهداية، وطمأنينة لهم بنصر الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود: ١٢٠].

وفيها: تسلية له ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[فاطر: ٢٥-٢٦].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤ / ٢٢٥).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٠٦).

وفيها: بيان لصدق نبوة محمد ﷺ بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون؛ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[هود: ٤٩].

وفيها: مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كما في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[آل عمران:٩٣].

وفي القصص القرآني: تعلم سبل الدعوة والإصلاح، ومعرفة طرق الهداية، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[الأحزاب: ٣٩].

قال الطبري رحمه الله: " يقول تعالى ذكره: سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد من الرسل، الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك إياهم، ولا يخافون أحدا إلا الله، فإنهم إياه يرهبون، إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أرسلوا إليه، يقول لنبيه محمد: فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم فكن، ولا تخش أحدًا إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه، ولا يمنعك أحد من خلقه منه ، إن أراد بك سوءًا "[(١)].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٧٧-٢٧٨).

وفيها: التحذير من عاقبة الضلال، وحصول ما وقع من الهلاك للمكذبين، وتجدد المثلات: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الرعد: ٦]، وهو من عيون معاني قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[القمر:٤].

وفيها: بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين، وإهلاك الظالمين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[هود: ١٠١][(١)].

ولأهمية القصص في تحقيق الهداية، أمر الله تعالى نبيه بأن يستخدم هذا الأسلوب الدعوي مع قومه، فقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧]، وقال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾[يونس: ٧١]، وقال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾[الشعراء: ٦٩]، وقال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾[الأعراف: ١٧٥]، إلى قوله: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:١٧٦].

قال ابن جرير رحمه الله: " فاقصص، يا محمد، هذا القصص، الذي اقتصصته عليك، من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصصت عليك نبأهم، ونبأ أشباههم، وما حل بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلنا من نقمتنا، على قومك من قريش، ومن قبلك من

---

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن للقطان (ص: ٣١٨)، وما بعدها .

يهود بني إسرائيل؛ ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا، وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك "(١) .

بل أمر به عموم البشر، فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: " وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ؛ لأنّ فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها، قال ابن عرفة رحمه الله: "السير في الأرض، حسي ومعنوي، والمعنوي هو: النظر في كتب التاريخ، بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم، ما لا يحصل بالسير في الأرض؛ لعجز الإنسان، وقصوره "، وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب؛ لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ علمًا وتقوى علم من قرأ التاريخ أو قص عليه "(٢) .

فكلها معان لا بد من استحضارها عند تأمل الآيات القصصية، واستنباط ما فيها من هدايات ربانية .

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٢٧٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٩٧) .

المطلب التاسع: أسلوب التحدي والتعجيز:

ورد هذا الأسلوب كثيرًا في القرآن الكريم؛ لتقرير الهداية في مجالاتها المتعددة، من التوحيد، وإثبات الرسالة، والتحدي بالقرآن، وغيره، كما أنه حكى استخدام الأنبياء له في دعوتهم لأقوامهم .

قال الزركشي رحمه الله في معناه: " يقال: تحدى فلان فلانًا : إذا دعاه إلى أمر؛ ليظهر عجزه فيه، ونازعه الغلبة في قتال، أو كلام غيره، ومنه: أنا حدياك ، أي: ابرز لي وحدك "(١).

فتحدى الله تعالى جميع الخلق بالإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، أو بعضه، في ستة مواضع، و هي على ترتيب المصحف كما يلي:

١/ قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة:٢٣] .

٢/ قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[يونس: ٣٨] .

٣/ قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[هود: ١٣] .

٤/ قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩١) .

٥/ قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[القصص: ٤٩].

٦/ قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور:٣٣ - ٣٤].

والجمهور على أنّ هذا التحدي جاء على مراحل:

وذلك: أنه تحدى الخلق بالإتيان بمثله، فلما عجزوا عن الإتيان بمثله تحداهم بعشر سور، فلما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة واحدة .

قال الشنقيطي رحمه الله: " لما صرّح تعالى هنا بأن هذا القرآن ما كان أن يفترى على الله، أقام البرهان القاطع على أنه من الله، فتحدى جميع الخلق بسورة واحدة مثله، ولا شك أنه لو كان من جنس كلام الخلق؛ لقدر الخلق على الإتيان بمثله، فلما عجزوا عن ذلك كلهم حصل اليقين والعلم الضروري أنه من الله ﷻ"(١).

وهناك خلاف كبير في ترتيب نزول هذه الآيات .

قال الزركشي رحمه الله:"واعلم أن النبي ﷺ تحدى العرب قاطبة بالقرآن، حين قالوا: افتراه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ ، فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تشاكل القرآن، قال تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾، ثم كرّر هذا، فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ أي: من كلام مثله ، وقيل: من بشر مثله، ويحقق القول الأول الآيتان

(١) أضواء البيان (٢/ ١٥٦) .

السابقتان، فلما عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه القرآن، على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾"[1].

وبقية الأقوال تطلب في مظانها[2].

وتحدى الله الخلق إن كان أحد منهم يملك أن يؤخر أجله ، فضلا عن أن يعيد من قضى عليه الموت تارة أخرى، فقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[الواقعة: ٨٦-٨٧].

وتحدى الله تعالى المشركين وآلهتهم وبين عجزهم، فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[سبأ: ٢٢]، وقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾[فاطر: ٤٠].

أروني :أمر للتعجيز، ومعناه: إذا كنتم علمتم أن هذه الأصنام عاجزة، فكيف تعبدونها؟ وإن وقع لكم توهم أن لها قدرة ما، بوجه من الوجوه، فأروني تلك القدرة المزعومة: أهي في الأرض؟ أم في السماء؟[3].

---

(١) البرهان (٢/ ٩١).

(٢) ينظر: آيات التحدي في القرآن الكريم: الدلالة والإيحاء، د. عبدالعزيز العمار .

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: (٢٦/ ٢٩)، البحر المحيط (٧/ ٣٠٢).

وفي هذا إفحام؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يثبتوا شيئًا خلقته الأصنام، فيكون الأمر التعجيزي – عن طريق هذا الاستعمال والتركيب – أقوى وأبلغ في انتفاء قدرة الخلق عن الأصنام من مجرد النفي .

بل تحداهم بأن يخلقوا ذبابة، بل أن يستنقذوا ما يسلبه الذباب منهم، ونفى ذلك عنهم، ولو اجتمعوا عليه ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[الحج: ٧٣] .

وتحدى اليهود؛ ليبين بطلان دعواهم، وانحرافهم، فقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾[البقرة: ٩٤ -٩٦]، ولا زال التحدي قائمًا، والحجة ظاهرة عليهم .

قال الزجاج رحمه الله: " في هذه الآية أعظم حجة، وأظهر دلالة، على صحة رسالته صلى الله عليه وسلّم؛ لأنه قال لهم: فتمنوا الموت، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا، فلم يتمنه واحد منهم"[1]، بل هم من أجبن الناس في الاقتراب من أسبابه، كما وصفهم الله تعالى بأنهم أحرص الناس على أي حياة، وإن كانت ذليلة حقيرة .

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٧٥) .

وقد أمر الله نبيه باستخدام أسلوب التحدي، كما في قوله: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾[المرسلات: ٣٩]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فتحدى المشركين وآلهتهم الباطلة .

وكذلك ورد التحدي على لسان كثير من الأنبياء، كما قال تعالى عن نوح: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[يونس: ٧١]، وقال عن إبراهيم في تحديه للملك: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٨] .

وقال عن هود: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[هود: ٥٤-٥٥]، فكان هذا التحدي هو آيته إلى قومه؛ لإثبات نبوته، وتأييد الله تعالى له .

قال الزجاج رحمه الله: " وهذا من أعظم آيات الرسل، أن يكون الرسول وحده، وأمته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدوني، فلا يستطيع أحد منهم ضرّه"(١) .

وقال عن موسى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾[طه: ٥٩] .

---

(١) زاد المسير (٢/ ٣٨٠) .

فالتحدي أسلوب قويم؛ لعرض الهدايات، حيث يصلح مع المعاندين الجاحدين؛ ليقطع حجتهم ، كما ينفع الشاكين المرتابين؛ ليرفع شكهم، وهو كذلك سبب في تثبيت قلوب المؤمنين، وزيادة يقينهم، وكلها من مدارج الهداية .

المطلب العاشر: أسلوب الترغيب والترهيب:

هذا الأسلوب من أكثر الأساليب ورودا في القرآن الكريم، وهو يمتزج مع غيره من الأساليب .

والترغيب في اللغة: من رغب يرغب رغبةً، إذا حرص على الشيء، وطمع فيه، والرّغبة: السؤال والطّلب، (وأرغبه) في الشيء (غيره)، ورغب إليه، (ورغّبه) ترغيبًا: أعطاه ما رغب، والرّغائب: ما يرغب فيه من الثّواب العظيم، يقال: رغيبة ورغائب[(١)] .

وشرعًا: كل ما يشوق المدعوّ إلى الاستجابة، وقبول الحق، والثبات عليه[(٢)] .

وأما الترهيب في اللغة: فأصله رهب، كعلم، رهبةً ورهبًا، بالضم، وبالفتح، وبالتحريك، ورهبانًا، بالضم، ويحرّك: خاف، والاسم: الرّهبى، ويضمّ، ويمدّان، والرّهبوتى، و" رهبوت - محرّكتين - خير من رحموت "، أي: لأن ترهب خير من أن ترحم، وأرهبه، واسترهبه: أخافه، وترهّبه: توعّده[(٣)] .

وشرعًا: كل ما يخيف، ويحذر المدعوّ، من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[(٤)] .

---

(١) ينظر: تاج العروس (٢/٥٠٩-٥١٠) .

(٢) ينظر: أصول الدعوة لعبدالكريم زيدان (ص:٤٣٧) .

(٣) القاموس المحيط (ص: ٩٢) .

(٤) ينظر: أصول الدعوة (ص: ٤٣٧) .

و"الترغيب والترهيب"، أسلوبان دالان على صفات الكمال لله تعالى، كقدرته، وقوته، وملكه، وعلمه؛ فلا يرغب ولا يرهب إلا من اتصف بذلك، وهو محقق للهداية مع أكثر الناس الذين لا يتبعون الحق إلا بترغيب بنتائج إيمانهم، أو ترهيب من عواقب كفرهم، كما أنه يزيد المؤمنين إيمانًا، وإصلاحًا لأعمالهم، فيحملهم على زيادة حسناتهم، وتقليل سيئاتهم .

والمؤمن يعبد ربه مع المحبة والتعظيم، بالرغبة والرهبة، كما قال تعالى عن المخلصين من أنبيائه ورسله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠]، والآيات في هذا كثيرة .

وقد تنوع أسلوب الترغيب والترهيب في عرض الهداية، على طرائق كثيرة، يمكن إجمالها فيما يلي:

١- الترغيب المباشر في الهداية بالأمر بها، والحث على تحصيلها، والسير على طريقها، كما قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾[النساء: ١٣٦] .

قال ابن كثير رحمه الله: " وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل، وتقريره، وتثبيته، والاستمرار عليه؛ كما يقول المؤمن في كل

صلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، أي: بصرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه "(١).

٢- بيان مكانة الهداية، وعلو مرتبتها، وشرف أهلها، فبين أنها نعمة أنعمها عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة: ٧]، وبين أنها أعلى مراتب الكمال، وأعظم الخصال، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[طه: ٨٢].

ومن شريف مكانتها، أن الله تعالى نسبها إليه في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾[البقرة: ٥]، ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأنعام:١٦١]، ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾[النجم: ٢٣]، وبمقابل ذلك نسب الضلال إلى غيره، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ ﴾[إبراهيم: ٣٠]،﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾[فصلت: ٢٩].

٣- الثناء على أهلها؛ ترغيبًا في التحلي بها، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[البقرة: ٥]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد:١٧]، والمعنى: والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا: لطف الله بهم، فزادهم هدى، وأرسخ الإيمان في قلوبهم، ووفقهم للتقوى، فاتقوا وغالبوا أهواءهم(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٢).

٤- بيان عاقبة المهتدين، وما لهم في الآخرة من النعيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[يونس: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾[محمد: ٤-٦].

٥- الترهيب بوصف من لم يتحل بها، بعدة أوصاف، تنفر من التفريط فيها:

- كوصفه بالظلم والجهل، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢].

- وحب الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[النحل: ١٠٧].

- والكذب والظلم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٤٤].

- والفسق، كما في قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦].

- والعمى، كما في قوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ ﴾[الأنعام: ١٠٤]، وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[يونس: ٤٣]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ ﴾[النمل: ٨١].

٦- ذم من استبدل بها غيرها، كما في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾[البقرة: ١٦].

قال قتادة رحمه الله: " قد والله رأيتموهم، خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السّنة إلى البدعة "(١) .

وكقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت: ١٧]، والمقصود في الآيتين هداية الدلالة والإرشاد، حيث آثروا الضلال من بعد ما تبين لهم الحق، كما قال سبحانه عن اليهود: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٨٩] .

٧- بيان أن ترك الهداية، وعدم السير على صراطها، من عمل الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[الحجر:٤٢] وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[النحل: ٩٩ -١٠٠]، وقوله: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[النمل: ٢٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾[محمد: ٢٥] .

٨- المقارنة بين الحالين، والجمع بين الطريقين؛ ليتمحض الهدى من الضلال في مواطن كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ

(١) جامع البيان (١/ ٣١٧) .

فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الملك: ٢٢]، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[الرعد: ١٩-٢٥][(١)] .

وهذه هي الطريقة الغالبة في الترغيب والترهيب وهي الجمع بينهما:

إما في آية واحدة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[غافر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾[الشورى: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[هود: ١٠٥] .

وإما في آيات متتالية كما سبق، وهذا الجمع أوقع في النفس، وأظهر دلالة؛ وبضدها تتبين الأشياء، وهذا ما سار عليه الأنبياء، فهذا إبراهيم يقول لأبيه -كما قال الله تعالى عنه-: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن

---

(١) ينظر: الهدايات في القرآن الكريم (ص:١٧١-٢٢٢) .

﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[مريم: ٤٣ – ٤٥]، فرغبه في الهداية، ثم حذره من الغواية، باتباع الشيطان الذي عاقبته العذاب من الرحمن .

وهكذا كان منهج جميع الأنبياء، كما هو منثور في القرآن الكريم .

قال الشنقيطي رحمه الله في تقرير ذلك: " قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾[الكهف: ٥٦]، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[الأنعام: ٤٨] "[1] .

فالترغيب والترهيب أسلوب قرآني، ومنهج دعوي، يخاطب العقل والعاطفة على حد سواء .

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٠٦) .

المطلب الحادي عشر: أسلوب التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير في القرآن الكريم له صورتان:

الصورة الأولى: تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، كتقديم المفعول على الفعل، أو الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥]؛ للدلالة على الإخلاص، كما سيأتي، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر: ٢٨].

وقد بين الجرجاني رحمه الله فائدة تقديم لفظ الجلالة هنا، فقال: " تقديم اسم الله تعالى؛ إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أخر ذكر اسم الله، وقدم (العلماء)، فقيل: (إنما يخشى العلماء الله)؛ لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشي من هو، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها، كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى: أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضًا، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى "[(١)].

الصورة الثانية: تقديم الكلمة في مواضع، وتأخيرها في مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة: ١٢٩]، مع قوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) دلائل الإعجاز (ص: ٣٣٨، ٣٣٩).

وَالْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، [الجمعة : ٢]، حيث قدم ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ على ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾، بخلاف الآية الأولى، كل بحسب السياق، ففي الآية الأولى: كان ظاهر دعوة إبراهيم عليه السلام أن البعث في الأمة المسلمة؛ فلذلك كانوا إلى تعليم ما ذكر أحوج منهم إلى التزكية؛ فإن أصلها موجود بالإسلام فأخر قوله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾، أي: يطهّر قلوبهم، بما أوتي من دقائق الحكمة، فترتقي بصفائها، ولطفها، من ذروة الدين إلى محل يؤمن عليها فيه أن ترتد على أدبارها، وتحرف كتابها، كما فعل من تقدمها، ولما ذكر سبحانه في سورة الجمعة بعثه في الأميين عامة، اقتضى المقام تقديم التزكية، التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر؛ ليقبلوا ما جاءهم من العلم .

وأما تقديمها في آل عمران؛ فلاقتضاء الحال بالمعاتبة على الإقبال على الغنائم، الذي كان سبب الهزيمة؛ لكونها إقبالًا على الدنيا، التي هي أم الأدناس[(١)] .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾[النساء: ١٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٨]؛ لمناسبة السياق؛ فالآية الأولى سبقت بالحكم في الخصومات فقدم القسط، والآية الثانية جاءت بعد التذكير بميثاق الله تعالى فقدم القيام لله تعالى على القسط[(٢)] .

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٦٢)، بتصرف .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٦/ ١٣٥) .

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[الإسراء: ٣١]، مع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[الأنعام: ١٥١]، حيث قدم في الأولى رزق الأولاد؛ لعدم وقوع الآباء في الإملاق، وإنّما مجرد الخشية، وقدم في الثانية رزق الآباء؛ لإملاقهم، وفقرهم(١).

وهذا الأسلوب من أهم الأساليب البلاغية التي تثمر فوائد فريدة، وتدل على هدايات عديدة؛ لذلك قال الجرجاني رحمه الله: " هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا ، يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر، فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان "(٢) .

ولأهميته نجد الكلام عليه قديمًا، منذ الصدر الأول، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[النساء:١٥٣ ، قال: " إنّهم إذا رأوه فقد رأوه، إنما قالوا جهرةً: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ ﴾، قال: هو مقدّم ومؤخر "(٣)، وكان ابن عباس يتأول ذلك: أن سؤالهم موسى كان جهرة(٤) .

---

(١) ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم- دراسة تحليلية- د. منير المسيري (ص:٧٧).

(٢) دلائل الإعجاز (ص: ١٠٦).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٩/ ٣٥٩)، برقم: (١٠٧٧٢).

(٤) جامع البيان (٩/ ٣٥٩).

وقال ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا ﴾ [الكهف:١-٢]، " يقول ابن عباس رضي الله عنهما: أنزل الكتاب عدلًا قيمًا، ولم يجعل له عوجا، فأخبر ابن عباس رضي الله عنهما بقوله هذا مع بيانه معنى القيم، أن القيم مؤخر بعد قوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾، ومعناه التقديم، بمعنى: أنزل الكتاب على عبده قيما "(١) .

وروي عن قتادة رحمه الله في قوله تعالى:﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥]، قال: " هذا من المقدم والمؤخر، أي: رافعك إلي، ومتوفيك"(٢) .

وقد تكلم العلماء في الفوائد البلاغية للتقديم والتأخير، فقال السيوطي رحمه الله: " قد يقدم لفظ في موضع، ويؤخر في آخر، ونكتة ذلك: إما لكون السياق في كل موضع يقتضي ما وقع فيه -كما تقدمت الإشارة إليه - وإما لقصد البداءة والختم به؛ للاعتناء بشأنه، كما في قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾[آل عمران: ١٠٦] الآيات، وإما لقصد التفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب، كما في قوله: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾[البقرة: ٥٨]،وقوله: ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾[الأعراف: ١٦١] "(٣) .

---

(١) المرجع السابق (١٧/ ٥٩١) .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦١) .

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤٧) .

وأما ما يحققه هذا الأسلوب من هدايات مع ما سبق، فيمكن تناول بعضه كما يلي:

- التقديم بقصد الاختصاص المتضمن للإخلاص، كقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥]، أي: نخصك بالعبادة، فلا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة، فلا نستعين بأحد سواك، ونحو هذا قوله سبحانه: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٢]، أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة، دون سواه[1] .

- التقديم للحث على أمر، والحض على القيام به، وعدم التهاون فيه، كتقديم الوصية على الدَّين، في قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾[النساء: ١١]، مع أن حق الدين في تركة الميت مقدم على حق الوصية .

قال القرطبي رحمه الله: " لما كانت الوصية أقل لزومًا من الدين قدمها؛ اهتماما بها"[2] .

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾[الشورى: ٤٩ – ٥٠]، قدم الإناث؛ حثًّا على الإحسان إليهن، وحضًّا على رعايتهن، وعدم التهاون في شؤونهن، وذكر ابن القيم وجها قريبا فقال: " وعندي وجه آخر: وهو أنه سبحانه قدم ما

(١) ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ص:٧٦) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٤) .

كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات، حتى كأن الغرض بيان أن هذا النوع المؤخر الحقير عندكم، مقدم عندي في الذكر "[١] .

- التقديم لبيان كثرة الأمر، مثاله قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[التغابن: ٢]؛ لأن الكفار أكثر، ونحوه قوله سبحانه: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[فاطر: ٣٢]؛ قدم الظالم لكثرة الظالمين، ثم المقتصد ثم السابق[٢] .

- التقديم لبيان عظمة الله وقدرته، كقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ٧٩] .

قال الزمخشري رحمه الله: " فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأنّ تسخيرها وتسبيحها، أعجب وأدلّ على القدرة، وأدخل في الإعجاز؛ لأنّها جماد، والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق "[٣] .

- التقديم بقصد التحذير والتنفير، كقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ [النور: ٣]، فقد قدم الزانية على المشركة، مع أن جريمة الشرك أشنع؛ وذلك تحذيرًا من الزنى، وتنفيرًا عنه[٤] .

إلى غيرها من الهدايات القرآنية التي يتضمنها أسلوب التقديم والتأخير .

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (ص:٢١) .

(٢) دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ص:١٤٢) .

(٣) الكشاف (٣/ ١٢٩) .

(٤) ينظر كتاب: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ص:١٤٧) .

المبحث الثاني

وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات

إعداد

د . فخر الدين الزبير

وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات

سبق في مقدمة هذا الفصل الكلام عن مفهوم الوسائل، وخلصنا إلى أنّها الطرق التي جاء بها القرآن الكريم؛ لتحقيق هداياته، وهي أنواع كثيرة بحسب الغاية المقصودة منها؛ فلذلك سنتناول أهمها، من خلال ثمانية مطالب، كما يلي:

المطلب الأول: الدعوة إلى التعقل والتفكر:

من معلومات الشرع والواقع، أنّ الله تعالى كرّم الإنسان وفضّله على سائر الأجناس، وأسجل عليه من الإحسان والنعم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٠]، فجعل الله تعالى هذا الإنسان من أشرف الخلائق، وأودع في خلقه من آياته الباهرة، وأسبغ عليه من نعمه الظاهرة، ومن أعظم ما ميّز الله تعالى به هذا الإنسان على سائر الحيوان، أن زينه بالعقل، وحثّه على التفهم والتفكر، وحضه على التعقل والتدبر، فأنزل الله جل وعلا الآيات، مخاطبًا أولي النهى والألباب، فقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد: ٤]،وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[طه: ٥٤]، وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم: ٢١]، وقال: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[الفجر: ٥]، أي: لذي عقل .

فتبيّن من ذلك أن هذا العقل من أعظم الامتنان، وأحسن التفضيل والإحسان .

قال الحارث المحاسبي رحمه الله: " لأنه جعل العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوي كل محصول، وبها يستدل على ما أخبر به من علم الغيوب، فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوارح بالفعال بأمرها، فتسارع إلى طاعتها، أو تزجرها، فتمسك عن مكروهها "(١) .

فلذلك كثر ورود الاستدلالات العقلية في القرآن الكريم، التي تخاطب العقل العام الذي هو مناط التكليف، والعقل الخاص الذي يتميز بمزيد من إعمال النظر، وإجراء الفكر، وهي من أهم وسائل القرآن في عرض الهدايات .

والاستدلالات العقلية داخلة في معاني الميزان، الوارد في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾[الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧] .

قال الغزالي رحمه الله: " أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعير، والذهب والفضة؟! أو تعتقد أن الميزان المقابل وضعه برفع السماوات

(١) فهم القرآن للمحاسبي (٢٦٧) .

والأرض هو الطيار والقبان؟! ما أبعد هذا الحسبان، وما أعظم هذا البهتان !! فاتق الله، ولا تشطط، ولا تعسف في التأويل، واعلم أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالى، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله، وملكه وملكوته"[١] .

وقد سار على هذا التعميم لكلمة الميزان، جماعة من المفسرين، فقال السعدي رحمه الله: " وأما الميزان، فهو العدل، والاعتبار بالقياس الصحيح، والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية، والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات، والعلل، والأحكام، والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى، ووضعه بين عباده؛ ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به، وأخبرت رسله ، فما خرج عن هذين الأمرين: عن الكتاب، والميزان، مما قيل: إنه حجة، أو برهان، أو دليل، أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه سيان "[٢] .

---

(١) القسطاس المستقيم للغزالي (١٤-١٥)، وذكر نحوه ابن تيمية، ونقلها ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٠٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٦) .

والمراد بالقياس هنا معناه العام الذي هو الاستدلال العقلي المأخوذ من التسوية، والتقدير، والتعدية، والانتقال من الحقيقة الكلية إلى الجزئيات، ومن المقدمات إلى النتائج(١).

وقد استخدم القرآن الكريم الاستدلالات العقلية بأنواعها المختلفة ؛ وسيلةً لتقرير معالم الهداية، في مجالاتها ومراتبها، فاستخدمه في الاستدلال لأصل الهداية وهو التوحيد، فقرر إثبات الخالق بطرق عقلية برهانية، فقال سبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[الطور: ٣٥]، فهذه الآية الكريمة مع وجازتها تتضمن تقسيمين عقليين قطعيين، وتوضيحه بالسبر والتقسيم كما يلي:

إما أن يكون خلقهم صدر من خالق، أو لم يصدر من خالق أصلًا، وهذا تقسيم عقلي قطعي، منحصر في النقيضين المذكورين، ثم قسم أحد القسمين تقسيما عقليا آخر، وهو:

على فرض أنه خلقهم خالق فلا يخلو: إما أن يكون ذلك الخالق هو أنفسهم، أو ليس بأنفسهم، وصح بالحصر العقلي انحصار الأقسام في ثلاثة: أنهم خلقوا من غير شيء خالق لهم، أو أنهم خلقوا أنفسهم، أو أن خالقهم هو الله تعالى .

وبالسبر الصحيح يتبين أن القسمين الأولين باطلان غاية البطلان:

---

(١) وليس المقصود بالقياس هنا الأشكال المنطقية بأنواعها، وما فيها من حشو وتداخل، كما أنه لا يراد هنا تكلف استخراج ذلك من القرآن، كما فعل جماعة من المتكلمين حينما شرعوا يستنبطون لكل شكل برهاني أمثلته من الآيات، كما فعل الغزالي في كتابه: « القسطاس المستقيم »، وانتقد ذلك ابن تيمية في كتابه الرد على المنطقيين (٣٣٧)، ولا يقصد كذلك القياس الأصولي بشروطه، ومسالك علله .

فالأول: أنهم خلقوا بدون خالق: يلزم منه أن يوجد الممكن دون موجد وهو محال؛ لأن الممكن لا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح، وكونه وجد من غير موجد، يقتضي الترجيح بلا مرجح، وهو ممتنع .

والثاني: أوجدوا أنفسهم: إما أن نفس المخلوق أوجد نفسه، أو أن المخلوق أوجده مخلوق آخر مثله، فأولهما باطل؛ لأنه يلزم أن يكون المخلوق متقدمًا على نفسه، باعتباره محدثًا، ومتأخرًا باعتباره حادثًا، وتقدم الشيء على نفسه وتأخره عنه محال في غاية الامتناع، ويلزم منه اجتماع النقيضين وهو محال، فإن إيجاد الشيء نفسه قبل وجوده، عبارة أخرى عن اجتماع وصفي الوجود والعدم على موضوع واحد، في وقت واحد، وثانيهما: وهو كون المخلوق أوجده مخلوق آخر: محال؛ لإفضائه إلى التسلسل الممتنع عند عامة العقلاء[1] .

فتعين بانتفاء هذين القسمين أن الذي خلقهم هو خالق السموات والأرض ومن فيهما سبحانه وتعالى، فالقسم الصحيح من الأقسام حذف في الآية لدلالة المقام عليه، وهذا دارج عند العقلاء، كما قال الأخضري رحمه الله[2]:

والحـــذف في بعـــض المقـــدمات أو الـــنتيـــجـــة لعــلـــــم آت

(١) ينظر: آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٢٢)، وذكر شيخ الإسلام عدة وجوه في درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٩٣) وما بعده .

(٢) السلم المنورق للأخضري مع شرحه رفع الأعلام (ص:١٧٣) .

وهذا النظر العقلي الجامع لتحقيق التوحيد، والمانع من جميع صور التنديد: هو مدرك بفطرة العقل، ولا يحتاج في فهمه إلى دراسات منطقية، ولا مقدمات فلسفية جدلية.

لذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله: " نفس العلم بأن المحدَث لا بد له من محدِث: أبين وأقوى وأظهر في العقل من كون الممكن لا يترجح إلا بمرجح.."، إلى أن قال: " وكل من كان إلى الفطرة العقلية والشرعة النبوية أقرب: كانت طريقته أقوم "(١).

فهذا جبير بن مطعم ﷺ، بمجرد أن سمع هذه الآية، علم كوامن الهداية فيها، فقال رضي الله عنه: " سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴾[الطور: ٣٥- ٣٧]: كاد قلبي أن يطير "(٢)، فقد تعامل معها بفطرته، ولم يضطر إلى تأصيلات منطقية فلسفية لفهمها.

كما نجد أنّ القرآن الكريم قد أثبت أصلًا آخر من أصول الهداية، وهو الإيمان بالبعث، بأدق الاستدلالات العقلية القياسية، التي تأخذ بألباب المتفكرين، وتغرس اليقين في قلوب المؤمنين، فإثبات إمكان الشيء يكون بإثبات إحدى

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٢٩٣).

(٢) كما في البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾، برقم: (٤٨٥٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، برقم: (٤٦٣).

أمور ثلاثة، كلها قد اجتمعت في تقرير الهداية للمتقين بالجزم بوقوع يوم الدين، وبيانها كما يلي:

١- إثبات وقوع آحاده، مما يدل على وقوعه للجميع؛ لضرورة التسوية بين المتماثلات، وهو ما وقع لأفراد من الناس حكى الله قصصهم في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾[البقرة: ٢٥٩]، وكما وقع لبني إسرائيل، حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾[البقرة:٢٤٣]، فإذا وقع البعث بعد الموت لهؤلاء القوم فوقوعه لعامة الخلق لا يمتنع قطعًا .

٢- إثبات وقوع نظيره وهو الخلق الأول، وإحياء الأرض بعد موتها، وتغير الخصائص بين المخلوقات، كما قال ﷻ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] .

٣- إثبات وقوع ما هو أعظم منه: وهو يدل على وقوعه بقياس الأولى، فبيّن أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ابتداء أو إعادة، مما يدل على إمكانه، فقال سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الأحقاف:٣٣]، فالذي خلق السماوات وكواكبها ونجومها مع سعتها

وعظمتها، وخلق الأرض، وبحارها، وجبالها، وأشجارها، مع تنوعها، وكثرة خيراتها، كيف يعجز من قدر على ذلك عن أن يخلق أجسامهم بعد تحلّلها، ثم يعيد أرواحهم إلى أعيانهم؟! وهذا قياس أولوي، فخلق السماوات والأرض أعظم، فما دونه أولى منه[1] .

وهذه الطرق في إثبات البعث ذكرها الله تعالى في آيات عديدة، ومن أجمعها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٧-٨١] .

وسأقف مع هذه الآيات لأبين وجوه الهدايات التي يحققها الإعجاز العقلي فيها بإيجاز، ومحصله أن الله تعالى يحكي شبهة يوردها الكافرون المنكرون للبعث، ثم يجيب عليها سبحانه بثلاثة أجوبة عقلية كافية، في دحض إنكار هؤلاء الجاحدين .

أما شبهة هذا الكافر، فهي قياسه قدرة الخالق على قدرة المخلوق، في استبعاد إحياء هذه العظام بعد أن بليت، ثم يبين الله تعالى أن مثل هذا القياس إنما هو

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٦/٣٠٨)، تيسير الكريم الرحمن (٦٩٩) .

ذهول وغفلة عن أصل خلقه؛ لذلك يجيب الله تعالى عليه بثلاثة أجوبة شافية، وهي حجج عقلية محكمة وافية[1]، وهي كما يلي:

الحجة الأولى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾: هذا هو القياس الصحيح، والاستدلال المستقيم، فالذي أنشأ العظام وأوجدها وخلقها قادر على إحيائها وإعادتها بعد أن بليت، فلا فرق بينهما بل إيجادها من العدم أعظم من إعادة إحيائها، لذلك نجد أن هذا الدليل يحيط بالشبهة قبلها وفي أثنائها، وبعدها، فقد قال قبلها: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، وقال في أثنائها: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾،ثم قال بعدها: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، وهذه الإحاطة تدل على إبطال الشبهة من أصلها، واجتثاثها من جذرها؛ لذلك ذكرها الله تعالى في مواطن من كتابه، فقال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[ق: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[الروم: ٢٧] .

الحجة الثانية: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾، وهذا دليل على البعث، وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار اليابسة المحرقة، من الشجر الأخضر الرطب البارد، ذي النضرة والثمرة، فتغير هذه الصفات والخصائص والأحوال، وإخراج الأشياء من أضدادها، كل ذلك دليل

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١٠٩) .

على قدرة الله تعالى على كل شيء، ومنه إعادة الحياة للعظام بعد فنائها، وتغير أوصافها، ومثله إحياء الأرض بعد موتها، وهو وما قبله من استخدام قياس الغائب على الشاهد[1] .

الحجة الثالثة: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾، وهذا دليل واضح للعقول، وإن ضعفت، فالذي خلق السماوات والأرض - باعتراف المشركين - قادر على أن يخلق مثلهم، وكذلك الذي خلق الإنسان قادر على أن يخلق مثله، فضلًا عن أن يعيده .

فتأمل هذه الدلائل الثلاثة، التي بلغت الغاية في تقرير هداية الإيمان بالبعث، والمتضمنة للطريقة القرآنية في ذكر الحجج البرهانية، والاستدلالات العقلية .

وكذلك استخدم القرآن الكريم الاستدلالات العقلية في تقرير الهداية بإبطال أعظم نواقضها وهو الشرك ، فقرر بطلان عبادة عيسى عليه السلام، وبطلان اتخاذه إلهًا، فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران: ٥٩]، فإذا كان كونه خلق من غير أب مسوغًا لاتخاذه إلهًا، فأولى منه في ذلك آدم عليه السلام، وقد خلق من غير أب ولا أم، لكن لما لم يكن آدم إلهًا باعترافكم، فمن باب أولى أن لا يكون عيسى إلهًا؛ لأن المعجزة فيه أدنى من آدم، وكل شيء على الله يسير، وهو على كل شيء قدير .

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٥٣، ٥٤) .

كما قرّر بطلان عموم الشرك بقياس العكس، وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٢] .

ويسمى هذا الدليل عند المتكلمين بدليل التمانع، ويقررون به استحالة وجود خالقين متكافئين .

وقد حقق شيخ الإسلام رحمه الله أنّه لتقرير توحيد الألوهية الذي جاءت به الرسل، وهو إبطال جميع المعبودات غير الله تعالى، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون: ٩١] .

ومعنى الآية: لو كان في السموات والأرض إله معبود إلا الله؛ لفسد نظام العالم؛ لأنه قام بالعدل، والشرك أكبر الظلم[١] .

وهذا الدليل نفسه استخدم في تقرير أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢] .

والاختلاف والتناقض باطل لا وجود له في القرآن الكريم، فثبت نقيضه، وهو أنه محكم معجز، فدلّ على أنه كلام الله تعالى .

ومن الاستدلالات العقلية التي تحتاج إلى تفكر: كل ما ورد في القرآن الكريم من بيان حال الذين عذبهم الله تعالى على تكذيبهم لرسله، وعصيانهم لشرعه، والاستدلال على أن هذا الحكم عام شامل على من سلك سبيلهم، واتصف

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص:٤٩٣) .

بصفتهم، وقد بين تعالى ذلك العموم، وأن هذا الحكم متعد لكل من فعل فعلهم، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[القمر:٤٣] .

والشواهد على الاستدلالات العقلية في القرآن الكريم، وتحقيقها للهداية كثيرة، فكل عاقل مخاطب بالتكليف، يدرك هذه الاستدلالات بعقله المجرد، ومطلوب منه تعقلها والتفكر فيها، والدعوة إلى الهداية باستخدامها، وما ذكر أمثلة دلالية، توقف على هذه الطريقة العميقة، من الاستدلالات العقلية الدقيقة في الآيات القرآنية .

المطلب الثاني: إنكار تقليد الآباء والكبراء:

هذا المطلب يعتبر لازمًا لما سبق؛ لكون التقليد مانعًا من موانع التعقل والوصول إلى الهداية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[الأحزاب: ٦٧]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣]، إلى غيرها من الآيات .

فباعتباره يمنع أصحابه من التعقل من جهة، ومن الاتباع من جهة أخرى: كان إنكاره والتحذير منه وسيلة ظاهرة من وسائل الهدايات، فهو بمثابة تمهيد لطريق إيصالها، وإزالة العراقيل التي تعترضها .

والتقليد: هو قبول قول من ليس قوله حجة بغير دليل[1]، ويكون سببه إما الجهل، أو الهوى، أو العصبية للعادات، وهو مذموم في الباطل، وأما تقليد الجاهل للعالم المهتدي، واتباعه في الحق فهو صحيح .

---

(١) ينظر: التعريفات للجرجاني (ص : ٣٤)، الإحكام لابن حزم (٦/ ١١٦)، التلخيص للجويني (٣/ ٤٢٥) .

قال القرطبي رحمه الله: " تعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد؛ لذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل، واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية، وهذا في الباطل صحيح، أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين، وعصمة من عصم المسلمين، يلجأ إليها الجاهل المقصر عن درك النظر "[(١)] .

وتفصيل القول في التقليد ومسائله في الشريعة يطلب في مظانه[(٢)] .

وإنما المقصود هنا بيان احتجاج الكفار بالتقليد، في الإعراض عن الحق، ورد القرآن الكريم على هذه الحجة؛ لتمهيد الطريق أمام الهداية .

وقد كان لإنكار تقليد الآباء والكبراء عدة صور، ومعالجات متنوعة:

- منها: الإنكار الصريح، كما سبق .

- ومنها: إرسال الرسل بالحجج والبينات، وجعلهم من أقوامهم، ويتحدثون بألسنتهم، ويعرفون عاداتهم، بل اختارهم من أشرافهم؛ ليكون قولهم أدعى للقبول إذا خالف أعرافهم .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢١١) .

(٢) ينظر: المجموع للنووي (١/ ٨٩)، المسودة (ص:٥٥٣)، صفة الفتوى (ص:٥١)، البرهان للجويني (٢/ ١٣٥٧)، المستصفى للغزالي (٢/ ٣٨٧)، الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٦٦)، تيسير التحرير لأمير بادشاه (٤/ ٢٤١)، شرح الكوكب المنير للفتوحي (٤/ ٥٢٩) وما بعدها، إرشاد الفحول للشوكاني (ص:٢٦٥) وما بعدها .

- ومنها: الدعوة إلى المبادرة باستقلال التفكير الذاتي أو الجمعي، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

- ومنها: الحض على العلم، فكان أول ما نزل من القرآن الكريم آية الأمر بالعلم في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ١-٥].

وبين فضل العلم في آيات كثيرة، فقال سبحانه: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾[البقرة: ٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ ﴾[فاطر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾[الزمر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾[المجادلة: ١١].

ثم بين عاقبة من تنكر ذلك، وآثر الهوى على الهدى باتباع الكبراء، فحكى تبرؤ بعضهم من بعض في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة:١٦٦-١٦٧].

وفي بيان هذه الصورة القاتمة للتقليد، والمحاورة الخاسرة بين أربابه يقول القاسمي رحمه الله:" تبرأ المتبوعون: وهم الرؤساء الآمرون باتخاذ الأنداد، وكل ما عبد من دونه تعالى، من الذين اتبعوا من الأتباع، بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا

يدعونه في الدنيا لهم - أو يدعونهم إليه- من فنون الكفر والضلال، واعتزلوا عن مخالطتهم، وقابلوهم باللعن، وقرئ الأول على البناء للفاعل، والثاني على البناء للمفعول، أي: تبرأ الأتباع من الرؤساء، ورأوا العذاب، الواو للحال، أي: تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب، أي: الوصل التي كانت بينهم، من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب، والاتباع، والاستتباع.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم، وندموا على ما فعلوا من أتباعهم لهم في الدنيا: ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ أي : ليت لنا رجعة إلى الدنيا، فنتبرأ منهم هناك، ومن عبادتهم، ونعبده تعالى وحده كما تبرؤا منا اليوم، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، كما أخبر تعالى عنهم بذلك، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾: أي : مثل تلك الإراءة الفظيعة، ﴿ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ ندمات شديدة عليهم، أي: تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾[إبراهيم:١٨] الآية، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾[النور: ٣٩] الآية، ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾. [البقرة:١٦٧].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم

بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[سبأ: ٣١-٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[مريم: ٨١-٨٢]"(١).

فإنكار القرآن الكريم تقليد الآباء والكبراء، وسيلة نافعة في تقرير الهداية، استخدمها القرآن الكريم، وسار عليها الأنبياء مع أقوامهم، كما قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٣-٥٤]، فهي وسيلة تربوية على قاعدة التخلية قبل التحلية، وهو على وزان الكفر بالطاغوت، ثم إعمار القلب بتعظيم ذي الملكوت، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٥٦].

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٤٦٤، ٤٦٥)، باختصار يسير.

المطلب الثالث: الدعوة إلى تدبر القرآن الكريم:

جاءت آيات كثيرة تحض على تدبر القرآن العظيم، منها أربع بلفظه الصريح، وهي: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤].

فإنه لا يمكن الانتفاع بتلك الأساليب القرآنية إلا بتدبرها، فمن هذا الوجه كان الأمر بالتدبر وسيلة قرآنية، استخدمت لتحقيق الوصول إلى الهدايات .

والتدبر: النظر والتفكر في المعاني، وعرفه الجرجاني رحمه الله بقوله: النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب[١] .

ومما قيل في تعريفه: إنه العمل على تحقيق وتحديق النظر في ما يبلغه المعنى القرآني المَدِيدُ من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم[٢] .

فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢]، وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]،

---

(١) التعريفات (ص:٥٤)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٩٠) .

(٢) العزف على أنوار الذكر لمحمود توفيق (ص:١١)، وينظر: تعليم تدبر القرآن للأهدل (ص: ١١-١٣) .

وقال: ﴿ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾[سبأ: ٥٠]، ولا تتحقق هذه الهداية إلا بتدبره وفهمه .

ولذلك نجد أن القرآن الكريم استخدم وسيلة الأمر بالتدبر في ثنايا عرضه للهداية؛ ليبين العلاقة الوثيقة، والوشيجة العميقة بينهما، ففي آية النساء يأمر بالتدبر، بعد الأمر بطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، وهي تمام الهداية، وبعد بيان حال المعرضين عن طاعتهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[النساء: ٨٠-٨١]، ثم قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ ﴾ .

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: " ولما كان ذلك كله أثرًا من آثار استبطان الكفر، أو الشك، أو اختيار ما هو في نظرهم أولى مما أمروا به، وكان استمرارهم على ذلك، مع ظهور دلائل الدين، منبئًا بقلة تفهمهم القرآن، وضعف استفادتهم، كان المقام لتفريع الاستفهام عن قلة تفهمهم، فالاستفهام إنكاري؛ للتوبيخ، والتعجيب منهم في استمرار جهلهم، مع توفر أسباب التدبير لديهم "[١] .

وكذلك في آية محمد، ورد الأمر بالتدبر بعد بيان حال المنافقين المعرضين عن الهداية، قال ابن جرير رحمه الله: " أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله، التي يعظهم بها، في آي القرآن، الذي أنزله على نبيه ﷺ، ويتفكرون في حججه التي

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧) .

بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، ﴿ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ يقول: أم أقفل الله على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه، من المواعظ والعبر "[1].

وكذلك في سورة (ص) لما بين حال المهتدين والمفسدين وأنهم لا يستوون، أخبر بأن القرآن الكريم أنزل؛ للتدبر فيه، في قوله تعالى: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٨-٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله: " لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دار أخرى ، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة، والفطر المستقيمة، على أنه لا بد من معاد وجزاء؛ فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله، وولده، ونعيمه، ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم، يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم، العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك دارًا أخرى لهذا الجزاء والمواساة، ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة، والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل "[2].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٣).

فتدبُّر هذه المناسبات الدقيقة، يوضح بجلاء أن التدبر من أهم وسائل الهدايات، وقد بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣]، فكان التدبر موصلًا إلى الخشية التي هي من أخص معالم الهداية؛ لذلك قال بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: " هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه "(١).

وللتدبر وسائل متعددة تعين عليه، وتوصل إليه، وقد أكد عليها القرآن الكريم، منها:

١- الإنصات عند تلاوة آياته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]، والراجح في الآية حملها على العموم في الصلاة وغيرها .

قال الشوكاني رحمه الله: " أمرهم سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته لينتفعوا به ، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح "(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٤) .

(٢) فتح القدير (٢/ ٢٨٠) .

وهذا الاستماع لأهميته، صرف الله تعالى إليه الجن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[الأحقاف: ٢٩] .

٢- ومع الإنصات لابد من إحضار القلب عند قراءته، أو سماعه كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧] .

قال السمعاني رحمه الله: " أي: استمع بأذنه، وهو حاضر بفؤاده، يقول الإنسان لغيره: ألق سمعك، وارعني سمعك، أي: استمع إلي، والمعنى: أنه يستمع، ولا يشغل قلبه بما يمنعه من السماع "[١] .

٣- ومن وسائل التدبر: تنقية القلب والجوارح من الذنوب الصارفة عنه، كالكبر والغرور، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٦] .

قال البغوي رحمه الله: " يريد الذين يتجبرون على عبادي، ويحاربون أوليائي، حتى لا يؤمنوا بي، يعني: سأصرفهم عن قبول آياتي، والتصديق بها، عوقبوا بحرمان الهداية؛ لعنادهم للحق، كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾[الصف: ٥] .

---

(١) تفسير السمعاني (٥/ ٢٤٧) .

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: سأمنعهم فهم القرآن، قال ابن جريج: يعني عن خلق السموات والأرض وما فيهما، أي: سأصرفهم أن يتفكروا فيها، ويعتبروا بها"(١).

٤- ومنها: الاستعاذة من الشيطان ووساوسه؛ لذلك أمر الله تعالى بها في بدء القراءة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله فوائد الاستعاذة، وإعانتها على التدبر من وجوه، منها: أن القرآن الكريم شفاء لما في الصدور، يذهب بما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات، والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلى منه القلب؛ ليصادف الدواء محلًا خاليا، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له، فينجع فيه(٢).

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٢٣٤).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٢).

٥- ومن ذلك الترتيل، والتأني في قراءته، وعدم سرده سردًا، كما قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[المزمل: ٤]، أي: اقرأه على تمهل؛ فإنه يكون عونًا على فهم القرآن الكريم وتدبره[(١)] .

وهو أحد الوجوه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء: ١٠٦] .

قال القرطبي رحمه الله: " ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾، أي: على ترسل في التلاوة وترتيل، قاله مجاهد، وابن عباس، وابن جريج[(٢)]، فيعطي القارئ القراءة حقها: ترتيلها، وتحسينها، وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن "[(٣)] .

وهكذا كان يقرأ ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: " كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾، ويمد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، ويمد ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ "[(٤)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : " لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة "[(٥)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٠) .

(٢) انظر الآثار في تفسير ابن جرير (١٧/ ٥٧٦) .

(٣) جامع البيان (١٠/ ٣٤٠)، والمعنى الآخر ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٣٩) بقوله: أي: تطاول في المدة شيئا بعد شي .

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، برقم: (٥٠٤٦) .

(٥) معالم التنزيل (٨/ ٢١٥)، وسيأتي تخريجه في هدي السلف مع الهدايات .

ولتحقيق التدبر نهى النبي ﷺ عن ختم القرآن الكريم في أقل من ثلاثة أيام فقال: " اقرأ القرآن في ثلاث ، فإنه لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث "[(١)] .

٦- ومنه تكرار القراءة، وقد روى أبو ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ: " قام بآية يرددها حتى أصبح: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[المائدة: ١١٨] "[(٢)] .

والآثار عن السلف - رحمهم الله - في ذلك كثيرة[(٣)] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثًا؛ لتعقل عنه "[(٤)] .

---

(١) رواه أبو داود، كتاب تفريع أبواب شهر رمضان، باب في كم يقرأ القرآن، برقم: (١٣٩٠)، وأصله في البخاري برقم: (١٩٧٨) .

(٢) رواه النسائي، كتاب الافتتاح، باب ترديد الآية، برقم: (١٠٠٩)، وحسنه الألباني .

(٣) ينظر: تعليم تدبر القرآن للأهدل (ص:١١٦)، وسيأتي طرف منها في هدي السلف مع الهدايات .

(٤) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، برقم: (٣٦٤٠)، وصححه الألباني .

٧- ومنه التغني بالقرآن، وتحسين الصوت بالقراءة، كما قال ﷺ: "زينوا القرآن بأصواتكم "[١]، وقال ﷺ: " ليس منا من لم يتغن بالقرآن"[٢] .

وقال ﷺ : "ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبي ، حسن الصوت، يتغنى بالقرآن، يجهر به "[٣] .

وهو ما مدح به داود عليه السلام؛ لذلك قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: " لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود "، فقال أبو موسى: " لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرًا "[٤] .

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، برقم: (١٤٦٨)، والنسائي، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، برقم: (١٠١٥)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، في حسن الصوت بالقرآن، برقم: (١٣٤٢)، وعلقه البخاري في كتاب التوحيد، باب الماهر بالقرآن مع الكرام البررة، ووصله وصححه في خلق أفعال العباد (٤٩، ٥٠) .

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك: ١٣-١٤] برقم: (٧٥٢٧) .

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، برقم: (٥٠٢٤)، وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾، وغيرها، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم: (٧٩٢) .

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوب بالقراءة للقرآن، برقم: (٥٠٤٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم: (٢٣٥) .

والعلة في كل ذلك زيادة الخشوع والتدبر، ويدل عليه قوله ﷺ: " أحسن الناس قراءة، الذي إذا قرأ، رأيت أنه يخشى الله "(١) .

فكل هذه الأسباب وغيرها تعين على تدبر القرآن الكريم الذي أمر الله تعالى به؛ ليتحقق الانتفاع بكتابه والاهتداء بهديه .

---

(١) أخرجه الخطيب (٣/ ٢٠٨) . وأخرجه أيضًا : عبد بن حميد (ص:٢٥٥) ، برقم : (٨٠٢) ، والروياني (٢/ ٤١٠) برقم : (١٤١٥) ، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣١١) برقم : (٢٠٧٤) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد : (٧/ ١٧٠) :« فيه حميد بن حماد، وثقه ابن حبان ، وقال : ربما أخطأ». وأخرجه أيضًا: محمد بن نصر في قيام الليل كما في مختصره للمقريزي (ص :٢٢٣) برقم: (١٥٢)، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٤/ ١١١) .

المطلب الرابع: الدعوة إلى العمل بالقرآن الكريم:

تقرر أن القرآن الكريم كتاب هداية، ولا يتحصل الاهتداء بالقرآن بعد فهمه إلا بالعمل بمقتضاه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه: ١٢٣] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: " تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية "(١) .

ولذلك حض الله تعالى على العمل بالقرآن الكريم في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]، وقال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[الأنعام: ١٥٣]، والقرآن الكريم هو أصل الصراط المستقيم، وقال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[الأعراف: ٣]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ١٨]، وقال تعالى في موسى وهارون: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الصافات: ١١٧- ١١٨] .

فمما سبق تبين أن القرآن الكريم في عرضه للهداية، كثيرًا ما يحض على العمل به، وعدم الاكتفاء بمجرد سماعه وقراءته؛ ولذلك وردت آيات كثيرة، في ذم من

---

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٩/ ٢٢٥)، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الحاكم بمعناه في المستدرك ، وصححه، برقم: (٣٤٣٨) .

لا يعمل بالقرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[الجمعة: ٥].

قال ابن القيم رحمه الله: " فقاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقرأه بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه: كحمار على ظهره زاملة أسفار، لا يدري ما فيها، فحظه منها: حملها على ظهره ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته "[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال الشنقيطي رحمه الله: " وهذه شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه، من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر، والقصص، والأمثال "[(٢)].

فالقرآن الكريم دعا إلى العمل بأحكامه وعظاته، وهو ما تمثل به النبي ﷺ أولًا، ثم دعا إليه؛ فقالت عائشة بوقد سئلت عن خلق النبي ﷺ: " ألست تقرأ

(١) التفسير القيم (٥٤٣-٥٤٤).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٨).

القرآن؟ فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن "[1]، وهذا الخلق هو الذي سار عليه أصحابه، واقتبسوا من ضيائه، وتغذوا من غذائه، فكانوا هداة مهديين، وما ذاك إلا بعملهم بالقرآن الذي علمهم ورباهم عليه نبيهم ﷺ؛ فلذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه: " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات من القرآن، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن"[2].

وقال أبو عبدالرحمن السلمي رحمه الله: " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها، من العلم والعمل، فتعلمنا العلم والعمل جميعًا ""[3].

فالعمل بالقرآن الكريم هو الذي حقق لهم هذه الهداية بتوفيق الله تعالى، وهذا الأمر كان عليه نساء الصحابة كذلك.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، برقم: (٧٤٦).

(٢) رواه ابن جرير في مقدمة التفسير (١/ ٨٠-٨١)، وصححه أحمد شاكر.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، في تعليم القرآن كم آية برقم: (٢٩٩٢٩)، وعبدالرزاق في المصنف بنحوه، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم القرآن وفضله برقم: (٦٠٢٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٥): رواه أحمد، وفيه عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره.

فقد قالت عائشة رضي الله عنها: " يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[النور: ٣١]: شققن مروطهن فاختمرن به "[١] .

فكان مجتمعًا قرآنيًّا استحق رضا الله تعالى، وكل من أراد اقتفاء أثرهم، لا يحصل له ذلك إلا باتباع الكتاب الذي رفع قدرهم، وشرف ذكرهم .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، برقم : (٤٧٥٨) .

المطلب الخامس: التأسي بالقدوة الحسنة:

استخدم القرآن الكريم وسيلة اتخاذ القدوات، والإشادة بهم، والأمر باتباعهم، فقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

بل جعل ذلك من دعاء عباد الرحمن، فذكر أن من دعائهم قولهم: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان: ٧٤]، وللآية معنيان يدلان على المقصود:

المعنى الأول: اجعلنا أئمة للمتقين يقتدون بنا، يقول ابن تيمية رحمه الله: " أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى "[(١)] .

وقال ابن عاشور رحمه الله: " سألوا لأنفسهم - بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان - أن يجعلهم قدوة يقتدي بهم المتقون "[(٢)] .

المعنى الثاني: اجعلنا نقتدي بالمتقين، قال ابن الجوزي رحمه الله: " اجعلنا مؤتمين بالمتقين مقتدين بهم، قاله مجاهد فعلى هذا يكون الكلام من المقلوب، فالمعنى: واجعل المتقين لنا إمامًا "[(٣)] .

وأعظم القدوات هم الأنبياء، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، كما قال تعالى﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣ / ٩١) .

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧٠) .

(٣) زاد المسير (٣/ ٣٣٢) .

قال ابن كثير رحمه الله: " هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله "[١].

وجعل الاقتداء به سببًا للهداية، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨].

وقد ورد لفظ الأسوة في موضعين آخرين: في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾[الممتحنة: ٤]، وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[الممتحنة: ٦].

وكل هذا يدل على أهمية القدوة الحسنة في تحقيق الهدايات، فمن الوسائل المهمة جدًا في تبليغ الدعوة إلى الله، وجذب الناس إلى الإسلام، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، القدوة الطيبة للداعي، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الزاكية، مما يجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بها أنموذجًا، يقرأ فيه الناس معاني الإسلام، فيقبلون عليها، وينجذبون إليها؛ لأن التأثر بالأفعال والسلوك، أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام وحده[٢]، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، منها:

١- أن في فطرة الإنسان ميلًا قويًا لاتخاذ القدوات .

٢- أن المثال الحي الذي يتحلى بجملة من الفضائل، يعطي غيره قناعة بأن بلوغها من الأمور التي هي في متناول الوسع والقدرة، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٨٨) .

(٢) القدوة مبادئ ونماذج، د صالح بن حميد (ص:٧) .

٣- أن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال، يثير في الأنفس الاستحسان والإعجاب(١) .

فالقدوة لها دور كبير في إعلاء الهمم وإصلاح المسلمين، فمن كان عالي الهمة اقتدى به غيره، فأصلح نفسه وأصلح غيره، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة:١٢٤] .

قال ابن كثير رحمه الله: " فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، ما يستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله "(٢) .

والقدوة كما تكون تأسيًا بأفراد، تكون كذلك تأسيا بجماعات، كما سبق ذكره من أمر الله تعالى رسوله بأن يقتدي بالأنبياء قبله، وكما قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾[الصف: ١٤] .

قال السعدي رحمه الله: " ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين، بقوله: ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: قال لهم عارضًا ومنهضًا: من يعاونني، ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي،

(١) أسس الحضارة الإسلامية؛ للميداني، (ص:٨٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٥٠) .

ويخرج مخرجي؟ فابتدر الحواريون، فقالوا﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾، فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين"[١] .

ومن هذه القدوات أصحاب النبي ﷺ، أولئك الصفوة المختارة التي لقيته وآمنت به، واتبعت النور الذي أنزل معه؛ لذلك وردت الأوامر باتباعهم، بل بين الله تعالى أن السير على طريقتهم سبب محقق في الهداية، فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ ﴾[البقرة: ١٣٧]، وبين سبب ذلك، وهو أنهم حققوا كلمة التقوى، فقال: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[الفتح: ٢٦]؛ كما أنهم بلغوا غاية الهداية قولًا وعملًا، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[الفتح: ٢٩] .

لذلك بشّر الله تعالى من اتبع طريقتهم بالفوز برضوان الله تعالى ونعيمه المقيم، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١٠٠] .

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٦٠) .

ومن القدوات التي ذكرها القرآن الكريم نموذجًا للقدوة الحسنة: لقمان ومريم وامرأة فرعون وذو القرنين وغيرهم، فقد فطر الناس على افتقاد القدوة، والبحث عن الأسوة؛ ليكون لهم نبراسًا يضيء سبيل الحق، ومثالًا حيا يبين لهم كيف يطبقون كتاب الله؛ لذلك لم يكن لرسالات الله من وسيلة لتحقيقها على الأرض، إلا إرسال الرسل، يبينون للناس ما أنزل الله من شريعته[1].

وكما أمر الله تعالى بالاقتداء بالقدوة الحسنة، كذلك نهى عن الاقتداء بأهل السوء، وهو أسلوب معهود في القرآن الكريم حيث يبين طرق الخير تفصيلًا، وطرق الشر تفصيلًا، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام: ٥٥].

وقد حكى الله تعالى قول المشركين في اتخاذهم الأسوة السيئة، واتباع أهل السوء، والاقتداء بهم، فقال عنهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣]، وردّ عليهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾[الزخرف: ٢٤]، وسبق الكلام عن تقليد الآباء والكبراء بغير هدى من الله تعالى.

---

(١) ينظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، للنحلاوي (ص:٢٥٥).

المطلب السادس: الأمر بسؤال الهداية:

الدعاء مع كونه من أعظم العبادات، فهو يعتبر من أسباب الهداية؛ لذلك سيتم تناوله في مبحث سبل الهداية؛ أما الأمر به فيعتبر من الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم في عرض الهدايات، حيث ساق أعظم آية في الهداية بصيغة الدعاء، والمقصود بسياقها الأمر بسؤالها، فهي طريقة قرآنية فريدة في عرض الهداية؛ وذلك ببيان أهمية طلبها .

ومما يدل على أهميتها: أنّها أول سؤال بدأ الله تعالى به كتابه كما في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، وكل ما سبقها من آيات، كانت استفتاحًا لهذا الدعاء الكريم، وثناءً على الله تعالى بين يدي هذا السؤال العظيم، وهو أكثر دعاء يدعو به المسلم، فهو يقرؤه في يومه وليلته، سبع عشرة مرة وجوبًا - عند الجمهور- في صلواته الخمس، وما شاء بعد ذلك استحبابًا في صلاة النوافل، أو خارجها .

وسؤال الهداية في هذه الآية يتضمن جميع أنواع الهدايات: من الهداية العامة، إلى هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق والإلهام، ثم الهداية على الصراط إلى الجنات .

كما أنه يتضمن سؤال هداية العلم والعمل، أصلها وكمالها والثبات عليها، فكل عبد لا تنفك حاجته عن هذا السؤال إلى دخول الجنة .

لذلك قال ابن القيم رحمه الله: " ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة، فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل

الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا، مثل ما نريده ، أو أكثر منه، أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام .

وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها "[1] .

وفي هذا السؤال بلفظ هذه الآية من الأسرار العظيمة التي تجعله من أهم الأدعية وأجمعها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

١- الإتيان بضمير الجمع في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ قيل: لأن كل عضو من أعضاء العبد، وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به، فأتى بصيغة الجمع تنزيلًا لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه، وقد ضعفه شيخ الإسلام؛ لأن الإنسان اسم للجملة لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه، ووجه الجمع بأنه مطابق لقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم؛ فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك، وتحت طاعتك، ولا

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢-٣٣) .

نخالف أمرك، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا، وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك، والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده، وكثرة عبيده، وكثرة سائليه الهداية، ما لا يتضمنه لفظ الإفراد، فتأمله .

٢- تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف، ففعل الهداية يتعدى بنفسه تارة، وبحرف (إلى) تارة، وباللام تارة والثلاثة في القرآن الكريم فمن المعدى بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[الفتح: ٢]، ومن المعدى بإلى، قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الأنعام: ١٦١]، ومن المعدى باللام، قوله في قول أهل الجنة: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، ففعل الهداية متى عدي بإلى، تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، فأتى بحرف الغاية، ومتى عدي باللام، تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين؛ فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنى: ذكرته له، وجعلته له، وهيأته، ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه، تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعرف والبيان والإلهام، فالقائل إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾هو طالب من الله تعالى أن يعرفه إياه، ويبينه له، ويلهمه إياه، ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف، وأتى به مجردًا معدى بنفسه

ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عدي بحرف تعين معناه، وتخصص بحسب معنى الحرف .

٣- تعريف الصراط؛ وذلك أن الألف واللام، إذا دخلت على اسم موصوف، اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، فلو قال: (اهدنا صراطًا مستقيمًا)؛ لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته[١] .

وقد تكرر سؤال الهداية في القرآن الكريم؛ بيانًا لأهميته مع ما سبق، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨]، فهو وسيلة استخدمها القرآن الكريم، وأمر بها لتحقيق الهداية .

وثبت في صحيح مسلم ، عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى: " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم "[٢] .

فتبين من كل ذلك أن الدعاء من أعظم أسباب تحصيل الهداية، فإنها إنما تستجلب من مالكها، وهو الله تعالى، فجميع الهدايات مصدرها من الله تعالى، وهداية القرآن الكريم والأنبياء والدعاة، إنما هي بيان، وإرشاد، لما جاء به الله تعالى، ثم يكون التوفيق والإلهام؛ فلذلك كان الأمر بالدعاء وسؤال الهداية من أهم الوسائل القرآنية التي استخدمت في تحصيل الهدايات .

---

(١) ما سبق ملخص من بدائع الفوائد (٢/ ٩-٤٠) .

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧) .

وللدعاء موضع غير هذا، يتناول بتفصيل، ويتجه باتجاه آخر .

المطلب السابع: التذكير بأصل الخلق:

كثيرًا ما يستخدم القرآن الكريم هذه الوسيلة في تحصيل الهدايات، فيذكر الله تعالى هذا الإنسان بأصل خلقته، وأنه خلق من ماء مهين، وإفراده هنا عن سائر النعم؛ لأنه أصلها، وأخصها بالإنسان، وأعمها، وأظهرها .

فالتفكر في أصل الخلق وعظمته، والإتقان في صنعه، والإحكام الدقيق في تسيير حياته، وصغر أعضائه وضعفه: تغرس تعظيم الله تعالى في القلب، وتحمل العبد على دوام افتقاره واستشعاره بنقصه، وهي لا شك من أهم معالم الهداية .

فلا أحد من البشر ينكر أصل خلقته؛ فهي حقيقة إعجازية ماثلة للعيان؛ لذلك قال سبحانه منكرا على هذا الإنسان ما يقوم به من كفر وطغيان: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧–٢٠]، ما أعظم كفره وهو يجحد خالقه الذي أبدع خلقه، واختار أن تكون هذه النطفة المهينة هي طريقة وجوده، ثم صوره ويسر خروجه، ثم يتنكر كل ذلك .

ومن التحليق في هذه المعاني وبيانها، يقول البيضاوي رحمه الله: " دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره يدل على سخط عظيم، وذم بليغ، ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾؛ بيان لما أنعم عليه، خصوصًا من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير؛ ولذلك أجاب عنه بقوله: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ

﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، فهيأه لما يصلح له، من الأعضاء والأشكال، أو فقدره أطوارًا، إلى أن تم خلقته "[1].

وهذا كقوله: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]، ومثله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار: ٦-٨] .

قال السعدي رحمه الله: " يقول تعالى معاتبًا للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرئ على مساخطه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أتهاونًا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه ؟ أليس هو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ في أحسن تقويم؟ ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾، وركبك تركيبًا قويًا معتدلًا في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟ إن هذا إلا من جهلك، وظلمك وعنادك، وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب، أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ "[2] .

فأصل الخلق دال على ربوبية الله تعالى، والتي تستلزم عبادته وشكره، والاهتداء بوحيه، والسير على صراطه المستقيم؛ لذلك لما ذكر الله تعالى آيات خلق الإنسان في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ

---

(١) أنوار التنزيل (٥/ ٢٨٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٩١٤) .

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الحج: ٥]، أعقب ذلك بقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾[الحج: ٨]، وفيه إشارة دقيقة إلى أن هذه الطريق مؤدية إلى الهداية إلا لمن تنكبها وأعرض عنها، كما قال بعد ذلك: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[الحج: ٩]، أي لاويًا جنبه؛ تكبرًا وإعراضًا[(١)] .

فتأمل في هذا السياق القرآني المحكم، الذي يدفع المنصف لنفسه، والمبقي على عقله، إلى التسليم، والسير على الهدى المستقيم، فأصل الخلق إعجاز عياني نفساني، كلما تذكره العبد، ووقف عنده، كان على بينة من ربه، مطيعًا لأمره، معظما لقدره، بخاصة إذا تأمل إتقان خلقه، وإحسان صنعه، ومنته عليه بذلك، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين: ٤]، وقال: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[غافر:٦٤]، [التغابن:٣]؛ فلكل ذلك أمر الله تعالى بتأمل الإنسان لنفسه، وجعل ذلك آية ظاهرة لكل مبصر، فقال: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١] .

قال القاسمي رحمه الله: " أي: في حال ابتدائها، وتنقلها من حال إلى حال، واختلاف ألسنتها، وألوانها، وما جبلت عليه من القوى والإرادات، وما بينها من التفاوت في العقول والأفهام، وما في تراكيب أعضائها من الحكم في وضع كل عضو منها، في المحل المفتقر إليه، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب، ولا لسان بليغ .

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٣/ ٣٢٥) .

أنشد الحافظ ابن أبي الدنيا رحمه الله في كتابه « التفكير والاعتبار » لشيخه أبي جعفر القرشي رحمه الله:

وإذا نظرت تريد معتبرًا فانظر إليك، ففيك معتبر
أنت الذي تمسي وتصبح في الدنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صغر ثم استقل بشخصك الكبر
أنت الذي تنعاه خلقته ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطى وتسلب، لا ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له وأحق منه بما له القدر[1]

وهي هداية متجددة غير متناهية، كلما أبصر الإنسان في نفسه، وتأمل في أحواله، وازداد علمًا في حقيقته؛ لذلك قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣] .

قال القرطبي رحمه الله: "﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يشرب، ويأكل، من مكان واحد، ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه، اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه .

(١) محاسن التأويل (٩/ ٤٠)، ونقل الأبيات ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٧٨) .

وقيل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من كونهم نطفًا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدم ..

وقيل: المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلّم من الفتن وأخبار الغيوب"[(١)] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣٧٥)، باختصار يسير .

المطلب الثامن: الأمر بتذكر النعم:

بعد التذكير بأصل الخلق، جاءت آيات كثيرة، تذكر بنعم الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[النمل: ٦٠-٦٢]، إلى بقية الآيات .

وآيات أخرى تحث الإنسان على أن يتذكر نعم الله تعالى عليه، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[فاطر: ٣]، وهي وسيلة لعرض الهداية؛ فإن الفطرة السوية تقضي بشكر من تفضل عليك، وأسدى معروفه إليك .

ولأهمية هذه الطريقة نجد أن الله تعالى كرر التذكير بالنعم في سورة الرحمن، إحدى وثلاثين مرة، بالاستفهام الذي يدفع إلى الإقرار، في قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ١٣] .

قال ابن الجوزي رحمه الله مبينًا السر البلاغي في ذلك: " إن ذلك التكرير؛ لتقرير النعم، وتأكيد التذكير بها، قال ابن قتيبة: من مذاهب العرب التكرار للتوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار؛ للتخفيف والإيجاز؛ لأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون، أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد،

يقول القائل منهم: والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله، إذا أراد التوكيد، وحسم الأطماع من أن يفعله ..

قال ابن قتيبة رحمه الله: " فلما عدد الله تعالى في هذه السورة نعماءه، وأذكر عباده آلاءه، ونبههم على قدرته، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نعمتين؛ ليفهمهم النعم ويقررهم بها، كقولك للرجل: ألم أبوئك منزلًا وكنت طريدًا؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أحج بك وأنت صرورة[1]؟ أفتنكر هذا؟ "[2] .

ونعم الله تعالى لا يقدر أحد على إحصائها، كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤]، وهو معلوم عقلًا وواقعًا .

قال الآلوسي رحمه الله: " ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ السابقة واللاحقة، لا تحصوها؛ لعدم تناهيها،﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ ﴾ ينقص حق الله تعالى، أو حق نفسه بإبطال الاستعداد، أو يضع نور الاستعداد في ظلمة الطبيعة، ومادة البقاء في محل الفناء، ﴿ كَفَّارٌ ﴾لتلك النعم التي لا تحصى؛ لغفلته عن المنعم عليه بها، وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث يظن أن شكره يقابل نعمه تعالى، كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه بداية ونهاية "[3] .

---

(١) هو من لم يحج قط، ينظر لسان العرب (٤/ ٤٥٣) .

(٢) زاد المسير (٥/ ٤٦١) .

(٣) روح المعاني (٧/ ٢١٩) .

فعليه يبقى تحقيق الشكر على كماله متعذرًا، وهو من دقيق معاني قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾[عبس: ٢٣]، في ثنايا تذكيره بجملة من نعم الخلق، والرزق، والتدبير.

قال مجاهد رحمه الله: " لا يقضي أحد أبدًا ما افترض عليه "(١).

ولذلك فإن الشعور الدائم بالتقصير من أعلى مدارج الهداية؛ فقد وصف الله تعالى المؤمنين بصفات ختمها بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾[المؤمنون: ٦٠].

وجاء في تفسيرها عن عائشة بأنها قالت: يا رسول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، هو الذي يسرق، ويزني، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله تعالى؟ قال ﷺ: " لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون، ويصومون، ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم "(٢).

وقال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾[الطور: ٢٦].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٢٢٥).

(٢) رواه الترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، برقم: (٣١٧٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوق من العمل، برقم: (٤١٩٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٢)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قال ابن كثير رحمه الله: " أي: قد كنا في الدار الدنيا، ونحن بين أهلنا، خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي: فتصدق علينا، وأجارنا مما نخاف "[1] .

فلا شك أن هذه الوسيلة من أنفع الوسائل في إيصال الهدايات وتثبيتها؛ لذلك كثرت في القرآن آياتها، وتنوعت دلالاتها، فوجدنا أنه: " بعد كل نص سام، تتبين فيه نعمة الخالق وبديع السماوات والأرض، يكون تذكير بنعم الله، ووجوب شكرها بالطاعة، وتجنب المعصية، والإقرار بوحدانية المعبود، وألا يعبدوا غيره سبحانه ، وفي ذلك إشارة إلى أن كل نعمة من هذه النعم، وبينة من هذه البينات توجب وحدها الشكر، وتوجب الإقرار بوحدانية الله تعالى "[2] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٥) .

(٢) المعجزة الكبرى (القرآن) لأبي زهرة (ص: ١٢٢) .

المبحث الثالث

مميزات الأساليب والوسائل القرآنيّة في عرض الهدايات

إعداد

د . فخر الدين الزبير

مميزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات

تمهيد :

إن الكلام عن القرآن ومميزات أساليبه ووسائله مما لا ينقضي، وهو المعجزة الخالدة التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلّم كما قال ﷺ: " ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا، أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا "(١) .

هذا القرآن الكريم الذي قد علمت عظمته الكائنات، فلو أنزله الله عليها لخضعت له حتى الجمادات، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١] .

قال ابن جرير رحمه الله: " يقول جلّ ثناؤه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾، وهو حجر، ﴿ لَّرَأَيْتَهُ ﴾ يا محمد ﴿ خَاشِعًا ﴾ يقول: متذلّلًا، ﴿ مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ ﴾ على قساوته، حذرًا من أن لا يؤدّي حقّ الله المفترض عليه في تعظيم القرآن الكريم، وقد أنزل على ابن آدم، وهو بحقه مستخفّ، وعنه عما فيه من العبر

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبيﷺ : " بعثت بجوامع الكلم "، برقم: (٧٢٧٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ، برقم: (٢٣٩) .

والذكر معرض، كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقرًا "(١) .

هذا القرآن الكريم الذي جمع الله فيه جميع معالم الهداية، ومن جهات متعددة، فذكر خبر ما قبلنا، ونبأ ما بعدنا، وحكم ما بيننا، في سلسلة وعظية بليغة، وقصص إيمانية بديعة ، وأخبار صادقة عظيمة، وأحكام عادلة حكيمة ، كانت بحق دوحة وارفة، يستظل بها المؤمنون، فلا يزال يخشع لآياته الخاشعون، ويوجل لمواعظه المتقون، ويزداد إيمانا لسماعه المخبتون، ويهتدي باتباعه العاملون: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال: ٢] .

فلا يمكننا، ونحن نتكلم عن أساليبه، ووسائله، أن نحيط بمميزاتها وخصائصها، لكننا نذكر أظهرها، على حد النظر المحدود، وتفصيلها من خلال المطالب السبعة التالية:

المطلب الأول: كمال الفصاحة والبلاغة .

المطلب الثاني: الصدق .

المطلب الثالث: التنوع .

المطلب الرابع: الشمول .

المطلب الخامس: الإجمال مع الوضوح والبيان .

المطلب السادس : التوازن بين العقل والعاطفة .

المطلب السابع: الدقة والعمق .

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٠٠-٣٠١) .

المطلب الأول: كمال الفصاحة والبلاغة:

إن أهم ما يميز هذه الأساليب والوسائل كمال الفصاحة التي تعلوها، وغاية البلاغة التي تكسوها، وباطراد في جميع آياته، ومع مختلف أغراضه، دون أدنى نفور، حتى إنه رغم التحدي به، لم يستطع أحد من بلغاء العرب أن ينتقد حرفا منه، مع شدة حرصهم على انتقاصه، وقوة ملاحظتهم، وشدة تذوقهم البلاغي .

وإنما يحكم على الكلام بالبلاغة إذا كان مطابقًا لمقتضى الحال، وفي جميع المحال، مع فصاحته، فالبلاغة تختص بالكلام المؤلّف، فلا تكون وصفًا للكلمة المنفردة كما سبق، وفصاحة الكلام شرط في بلاغته، فكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغًا، فالبلاغة أخص من الفصاحة[1] .

فإذا تأملنا جميع آيات القرآن الكريم؛ لوجدناها على نظم بديع، وفصاحة مطردة، وبلاغة ثابتة، في أغراضها كافة، الخبرية، والإنشائية، والقصصية، والتمثيلية، والحكمية، قصيرة كانت أو طويلة، من أوله إلى آخره ، وهذا ما لا مثيل له، ولا قريب منه في كلام العرب، الذين كانت فصاحتهم في خطب محدودة، وقصائد معدودة، يعتريها التباين والإخلال، والتكلف والاضطراب، كما يظهره بعضهم عند انتقادهم لبعض .

قال القرطاجني رحمه الله: " وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها، في جميعه، استمرارا لا يوجد له فترة،

---

(١) للتوسع في ذلك ينظر: اعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٦-٣٨)، المعجزة الكبرى لأبي زهرة (ص:١٨٠)، بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي (١/ ٢٦) .

ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية، فينقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه "[١].

وهذا الاتساق في كمال البلاغة داخل في معاني وصف المتشابه، الوارد في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣] .

فمن معاني المتشابه: أي في الإعجاز والبلاغة، كما قال القشيري:[٢]، وقال البيضاوي رحمه الله أيضًا: " وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز، وتجاوب النظم، وصحة المعنى، والدلالة على المنافع العامة "[٣] .

وهناك معان أخرى للمراد بالمتشابه في هذه الآية:

أحدها: يشبه بعضه بعضًا من الآي والحروف، قاله قتادة رحمه الله[٤] .

الثاني: يشبه بعضه بعضًا في نوره وصدقه وعدله .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٠) .

(٢) لطائف الإشارات للقشيري (٣/ ٢٧٨) .

(٣) أنوار التنزيل (٥/ ٤١)، وذكر نحوه الألوسي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٨) .

(٤) جامع البيان (٢١/ ٢٧٩) .

الثالث: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمنه من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، وإن كان أعم وأعجز[١].

والأصل حمل اللفظ على جميع معانيه المتآلفة[٢].

قال الزمخشري رحمه الله: " ومتشابهًا مطلق في مشابهة بعضه بعضًا، فكان متناولا لتشابه معانيه، في الصحة، والإحكام، والبناء على الحق، والصدق، ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه، في الإعجاز والتبكيت "[٣].

ومما يدل على ما سبق، قوله سبحانه: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: " وهذا ثناء على القرآن بكمال معانيه، بعد أن أثني عليه باستقامة ألفاظه.

ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة، إلى وصفه بانتفاء العوج عنه، التّوسّل إلى إيقاع عوج، وهو نكرة في سياق ما هو بمعنى النّفي، وهو كلمة ﴿ غَيْرَ ﴾ فيفيد انتفاء جنس العوج على وجه عموم النّفي، أي ليس فيه عوج قطّ، ولأنّ لفظ عوج مختصّ باختلال المعاني، فيكون الكلام نصًّا في استقامة معاني القرآن؛ لأنّ

---

(١) النكت والعيون (٥/ ١٢٢)، بتصرف يسير.

(١) ينظر: الموافقات: (٤/ ١٢١).

(٣) الكشاف (٤/ ١٢٣).

الدّلالة على استقامة ألفاظه، ونظمه، قد استفيدت من وصفه بكونه عربيًّا،كما علمته آنفًا "(١) .

ومن أدلة هذا المعنى أيضا قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]، والاختلاف المنفي هنا ينتظم اطراد بلاغته .

قال ابن عطية رحمه الله: " التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أنّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطًا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة"(٢) .

فمن أهم مميزات هذه الأساليب والوسائل في عرضها للهدايات، هو كمال بلاغتها، حتى يأسر سلطانها القلوب، بعد أن تحير الألباب، فتذعن النفوس لعظمتها، وتنقاد إلى هدايتها؛ فلذلك فإنه حتى نساء المشركين وأطفالهم انبهروا لسماعه، واستكانوا لبيانه، فخاف أشراف قريش من اتباعهم له .

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: " ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدًا بفناء داره، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٨) .

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٢) .

يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين "(١) .

وهذه البلاغة المتناهية الآخذة بمجامع الألباب هي التي أقر بها الوليد بن المغيرة المخزومي بمجرد سماعها، فقال عبارته الشهيرة: " وماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني، فو الله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو، وما يعلى "(٢) .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس ، برقم: (٤٧٦) .

(٢) ينظر : تفسير عبدالرزاق (٣/ ٣٦٢)، وقد سبق .

المطلب الثاني: الصدق:

من أعظم ما يميز أساليب القرآن الكريم ووسائله هو صدقها، فهي من عند الله تعالى، وهو سبحانه أصدق القائلين، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[النساء: ٨٧]،﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[النساء: ١٢٢] .

قال ابن جرير رحمه الله:"﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ ﴾، أيها الناس، ﴿ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ أي: لا أحد أصدق منه قيلا "[1]، وهي آيات واضحة العبارة، صريحة الدلالة .

وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الأنعام: ١١٥] .

قال أبو السعود رحمه الله: " والمعنى: أنها بلغت القاصية صدقًا، في الإخبار والمواعيد، وعدلا في الأقضية والأحكام، لا أحد يبدل شيئًا من ذلك، بما هو أصدق وأعدل، ولا بما هو مثله، فكيف يتصوّر ابتغاء حكم غيره تعالى؟! "[2].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤]، وأصل الحق: المطابقة والموافقة[3]، فهو ينتظم معنى الصدق .

وهذا الصدق تجلت معالمه في جميع الأساليب والوسائل:

- فهو سبحانه صادق في أخباره، وقصصه، وأمثاله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: ٦٢]، وقال

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٢٧) .

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٨) .

(٣) المفردات في غريب القرآن (٢٤٦) .

سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[آل عمران: ٥٩-٦٠] .

- وصادق في ترغيبه وترهيبه ووعده ووعيده، كما قال سبحانه:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[النساء: ٨٧] .

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[النساء: ١٢٢] .

وقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾[الأحقاف: ١٦] .

قال ابن عادل رحمه الله: " وعدًا من الله بالتقبل والتجاوز، والمعنى: (أنه) يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء، وذلك وعد من الله، فبين أنه صدق، لا شك فيه "[(١)] .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ ﴾[إبراهيم: ٢٢] .

- وصادق في إرادة الهداية للخلق ، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧

---

(١) اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ٣٩٧) .

يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٢٦–٢٨]، فأخبر الله تعالى أنه يريد لنا البيان والإرشاد، والهداية ، والتوبة، والتخفيف، وخبره صدق لا شك فيه، فهو صادق في هذه الإرادة؛ لذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وأقام حججه، وفصل بيناته .

والإرادة هنا شرعية، بمعنى المحبة، وليست كونية، بمعنى تقدير ذلك وإيجاده؛ لتخلف الهداية عن كثير من الخلق، وليس كل ما يحبه الله تعالى، يقدره ويوجده؛ وذلك لحكمة يعلمها[1] .

- وصادق في حواراته؛ حيث يذكر قول المخالف كما هو، بحجته، وقوته، وبلاغته، ثم يجيب عنه بأبلغ منه، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[البقرة: ١٣٥]، وقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ ﴾[المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[المدثر: ٢٤–٢٥]، وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[الحجر: ٦]، وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف: ٣١]، وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[الفرقان:٨]،وقال:﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾[النازعات:١١] .

(١) ينظر تفصيله في: شرح الطحاوية (١/ ٨٠) .

فهو سبحانه يحكي الأقوال المخالفة كما هي، بكل صدق وعدل، ثم يرد عليها بما يحقق الهداية، كما سبق في أهمية الأسلوب الحواري .

ولذلك كان الصدق الذي جاء به القرآن الكريم، والحق الذي دعا إليه من أهم خصائصه، وأسباب هداية الناس به، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[يونس: ١٠٨] .

وقال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ: ٦]، فجعل الحق والصدق سببا في هدايته .

قال الرازي رحمه الله: " فإنّ من أوتي علمًا لا يغتر بتكذيبه، ويعلم أن ما أنزل إلى محمد ﷺ حق وصدق، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾: يفيد الحصر، أي: ليس الحق إلا ذلك، وأما قول المكذب فباطل، .. وقوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، يحتمل أن يكون بيانًا لكونه هو الحق، فإنه هاد إلى هذا الصراط، ويحتمل أن يكون بيانا لفائدة أخرى، وهي أنه مع كونه حقًّا هاديًا، والحق واجب القبول، فكيف إذا كان فيه فائدة في الاستقبال وهي الوصول إلى الله "(١) .

فشمل الصدق جميع أساليب القرآن الكريم ووسائله، من الأخبار، والقصص، والأمثال، والحوار، والاستدلال، وغيرها مما سبق .

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٤) ، وانظر المعنى الآخر للآية في تفسير ابن كثير (٦/ ٤٩٥) .

المطلب الثالث: التنوع:

يعد التنوع من أهم سمات أساليب القرآن الكريم ووسائله، فهي متنوعة في صياغاتها ودلالاتها وهداياتها، فتتنوع إلى أمر ونهي، وتوكيد واستفهام، وترغيب وترهيب، واستدلال عقلي، وحوار جدلي، وقصص وأمثال ..

وقد يكون التنوع في السياق الواحد، فنجد أنه يجمع في موضوع واحد، وسياق واحد، بين الترغيب والترهيب، وقصص المهتدين والضالين، كما قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[الحجر: ٤٩-٥١]، فرغب ورهب، ثم ذكر قصة ضيف إبراهيم المهتدين، ثم قصة قوم لوط الضالين .

كما تتنوع في السياق الواحد الأدلة العقلية والحسية، والخبرية والإنشائية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١]، إلى قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[النحل:٨٣] .

في هذه الآيات تعددت الأساليب والوسائل في تقرير الوحدانية: فأمر الله تعالى بها، ونهى عن التنديد تصريحًا، ثم ذكر دليل النوائب، وهو من الأدلة الواقعية على وحدانيته، فلا كاشف للبلاء في البر والبحر غيره؛ لذلك كان المشركون يلجؤون إليه وحده في النوائب، ثم يشركون بعدها، وبعد ذلك ذكر استدلالًا عقليًا، وهو دليل المثل الأعلى، وأن كل كمال ينبغي أن يكون الخالق

الذي يقرون بوجوده أولى بالاتصاف به، فإذا كره المشركون الأنثى فكيف ينسبونها إليه، وهو المنزه عن كل نقص؟ وهنا استخدام للاستفهام الإنكاري .

ثم انتقل إلى وسيلة التذكير بالنعم، فذكر نعمة الأنعام ومنافعها، واللبن السائغ للشاربين، ثم نعمة الثمرات، ثم نعمة العسل، ثم ضرب لهم مثلًا بعدم إشراك السادة عبيدهم في رزقهم؛ لإبطال شركهم، وذكرهم بنعمة الأزواج والأولاد، ثم بين أن عبادة المشركين لما لا يملك لهم رزقًا، ثم ضرب مثلًا لنفسه تعالى، ولما يعبد من دونه؛ إبطالًا للشرك، بطريقة عقلية واضحة، ثم ذكّر الإنسان بخلقه، وانتقل إلى تسخير الطير، ونعمة السكن والبيوت، وما يؤخذ من الأنعام، وفي آخر الآيات يقول تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[النحل: ٨١]، فتأمل في هذا التنوع البديع، في سياق واحد، وقس عليه بقية المواضع الكثيرة في القرآن الكريم .

كما قد يكون التنوع في سياقات متعددة، فمثلًا تنوعت الأساليب والوسائل في تقرير الهداية بتحقيق ألوهيته في آيات القرآن الكريم المتعددة، ومن ذلك التنوع ما يلي:

١ - أمره سبحانه بعبادته، وترك عبادة ما سواه؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[النساء: ٣٦] .

٢- ومنها: إخباره سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦] .

٣- ومنها: إخباره أنه أرسل جميع الرسل بالدعوة إلى عبادته، والنهي عن عبادة ما سواه؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦].

٤- ومنها: الاستدلال على توحيد الإلهية بانفراده بالربوبية، والخلق، والتدبير، وصفات الكمال، ونفيها عن آلهة المشركين؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ١٧]، وقوله حاكيًا عن ما قاله خليله إبراهيم لأبيه: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾[مريم: ٤٢].

٥- ومنها: بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم، حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾[الأحقاف: ٥ – ٦].

٦- ومنها: رده سبحانه على المشركين في اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله، بأن الشفاعة ملك له سبحانه؛ لا تطلب إلا منه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، بعد رضاه عن المشفوع له؛ قال سبحانه: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[الزمر: ٤٣-٤٤].

٧- ومنها: أنه سبحانه ضرب أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، يتضح بها بطلان الشرك، من ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ

﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١]؛ فشبه سبحانه التوحيد في علوه، وارتفاعه، وسعته، وشرفه، بالسماء، وشبه تارك التوحيد، بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين؛ لأنّه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وشبه الشياطين التي تقلقه بالطير التي تمزق أعضاءه، وشبه هواه الذي يبعده عن الحق، بالريح التي ترمي به في مكان بعيد(١) .

ونجد كذلك أنه تعالى إذا أراد من العبد التحقق بمعالم الهداية، نوع بين الوسائل، والأساليب، في الدعوة إليها، فمن ذلك:

١- التعبير بلفظ الأمر الصريح، كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[النحل: ٩٠]، أو بصيغة فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[الإسراء: ٢٦] .

٢-التعبير بلفظ القضاء والحكم، والفرض، والكتب، كقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[الممتحنة: ١٠]، والفرض، كقوله تعالى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ١١]، والكتب، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] .

---

(١) ينظر التفصيل في: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص:٣٩-٤٢) .

٣- والإخبار بأنه على الناس فعله، كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[آل عمران: ٩٧] .

٤- التعبير بأن هذا الفعل خير وبر، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[البقرة: ١٨٩]، ومدح المتحلين به، والثناء عليهم، وبيان عاقبتهم، كقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٨٨-٨٩] .

٥- وترتيب الثواب على الفعل، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[النساء: ١٣]، وترتيب العقاب على ترك الفعل، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٢] .

والأمثلة على هذا الباب لا تنقضي، وحسبنا ما سبق .

وكذلك نجد أنه يقدم أحيانًا، ويؤخر أحيانًا، في تنوع بليغ، له دلالاته البديعة[(١)] .

فيقول تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾[القصص: ٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[يس: ٢٠]، ففي آية القصص قدّم الفاعل

(١) ينظر نماذج ذلك في كتاب: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم د. منير المسيري، وقد سبق بحث ذلك تفصيلًا .

﴿ رَجُلٌ ﴾ على الجار والمجرور ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾، في حين أن الفاعل في آية (يس) جاء متأخرًا على الجار والمجرور.

فقيل توجيهًا لذلك: بأنّ قوله في سورة يس: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ قدم المجرور على المرفوع؛ لاشتمال ما قبله من سوء معاملة أصحاب القرية للرسل، وإصرارهم على تكذيبهم، فكان مظنة التتابع على مجرى العبارة تلك القرية، ويبقى مخيلًا في فكره أكانت كلها كذلك أم كان فيها على خلاف ذلك، بخلاف ما في سورة القصص[1]، حيث جاء الفاعل نكرة لا يعرفه موسى، لكنه موصوف بأنه من أقصى المدينة.

وفي موضع يحذف بعض الكلمات، وفي موضع يثبتها، فيقول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾[البقرة: ١٩٣]، ويقول سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾[الأنفال: ٣٩]، فآية البقرة جاءت خالية من لفظ التوكيد (كلّ)، بينما أثبتت في آية الأنفال.

قال الآلوسي رحمه الله في توجيهه: " ولم يجيء هنا كلمة ﴿ كُلُّهُ ﴾ كما في آية الأنفال؛ لأن ما هنا في مشركي العرب، وما هناك في الكفار عموما فناسب العموم هناك وتركه هنا "[2].

ومقصوده: تأكيد العموم بكل، وإلا فكلاهما فيه صيغة عموم.

---

(١) البرهان للزركشي (٣/ ٢٨٤).

(٢) روح المعاني (١/ ٤٧٢).

وهو متنوع في بيان وسائل الهداية من الدعوة إلى التعقل والتفكر، وتدبر القرآن الكريم، والعمل به، واتخاذ القدوات، وتذكر أصل الخلق، والنعم، وسؤال الهداية، وتكرار كل ذلك بأساليب متعددة، كما سبق .

المطلب الرابع: الشمول:

شمول الأساليب والوسائل القرآنية، تتجلى في جوانب متعددة، منها:

- أنّها شاملة لجميع أنواع الأساليب البلاغية، والوسائل العقلية، والوعظية، والعلمية، كما سبق بيانه في المبحثين السابقين.

- وكذلك شاملة في محاورة جميع أصناف المخالفين للهداية، والمنحرفين عن طريقها، بجميع الاستدلالات الهادية لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام: ٥٥]:

- فيرد في دعوته للتوحيد على عباد الأصنام بالأسلوب الذي يناسبهم، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[العنكبوت: ١٧].

- ويرد على عباد المسيح بما يلزمهم من حجج عقلية واقعية، فيقول سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة: ١٧].

- ويرد على عباد الملائكة بالترهيب من عاقبتهم، فيقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: ٤٠-٤١].

- ويرد على عبدة الكواكب والنجوم، فيقول سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت: ٣٧].

- ويرد على من ينسبون إليه الولد، فيقول سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[مريم: ٨٨-٩٣].

- ويرد على من يؤلهون البشر، فيقول تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١].

- ويرد على من يعبدون أهواءهم، فيقول تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

- ويرد على أصناف المشركين بأسلوب التحدي والتعجيز، فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

فلكل ذلك وصف الله تعالى كتابه بأنه شامل في بيانه، مع تمام هدايته – وهما وصفان متلازمان –، فقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩] .

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: " يفيد العموم، إلا أنه عموم عرفي، في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع، من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلّم، وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية، والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم، وحضاراتهم، وصنائعهم .

وفي خلال ذلك كله أسرار ونكت، من أصول العلوم والمعارف، صالحة لأن تكون بيانًا لكل شيء، على وجه العموم الحقيقي، إن سلك في بيانها طريق التفصيل، واستنير فيها بما شرح الرسول ﷺ، وما قفاه به أصحابه، وعلماء أمته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب، من وصف ما أعد للطائعين، وما أعد للمعرضين، ووصف عالم الغيب، والحياة الآخرة .

ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه؛ للتبصر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه، إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه، وهذا من أبدع الإعجاز "[١] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣) .

ومثله قوله سبحانه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[الأنعام: ٣٨]، على المعنى الثاني، وأنه يراد به القرآن الكريم، وهذا الشمول إما أن يكون تصريحًا، أو تلويحًا: تنصيصًا أو تأصيلًا، بالإحالة إلى السنة، أو طرائق الاستدلال الأخرى .

قال ابن الجوزي رحمه الله في توجيه المعنى الثاني للآية: " فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص، فيكون المعنى: ما فرّطنا في شيء بكم إليه حاجة، إلا وبيناه في الكتاب، إما نصًّا، وإما مجملًا، وإما دلالة "(١) .

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[الكهف: ٥٤-٥٥]، فنعى عليهم عدم اهتدائهم به، مع شمول بيانه لكل ما يحتاجونه، وتصريفه لهم بجميع الأساليب والوسائل المؤدية إلى الهداية .

قال ابن جرير رحمه الله: " يقول عزّ ذكره: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل، ووعظناهم فيه من كلّ عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة؛ ليتذكّروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله، وعبادة الأوثان، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾يقول: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة "(٢) .

---

(١) زاد المسير (٢/ ٢٦) .

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٩٩) .

فجاء القرآن الكريم بكل أسلوب نافع يؤدي إلى الهداية، وبكل وسيلة صالحة تصب في ينبوعها، في ثلاثية للخطاب العقلي، والعلمي، والوعظي، تميز بها هذا الكتاب المعجز، وأمر الدعاة أن يسيروا على منهاجه فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[النحل: ١٢٥]، فالحكمة: هي العلم، والموعظة: هي الخطاب القلبي، والمجادلة بالتي هي أحسن: هي الاستدلال العقلي .

قال ابن كثير رحمه الله: " يقول تعالى آمرا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلّم أن يدعو الخلق إلى الله: ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾، قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة،﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها؛ ليحذروا بأس الله تعالى .

وقوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين، وحسن خطاب "[(١)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٣) .

المطلب الخامس: الإجمال مع الوضوح والبيان:

من مميزات أساليب القرآن الكريم ووسائله، أنّها جمعت بين الإجمال في أكثر مباحثها، ووضوحها وخلوها عن التعقيد، وبيانها لجميع الناس، ممن يفهم لغة العرب، فقد وصف الله تعالى كتابه بالبيان المؤدي للهداية، فقال سبحانه: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[يوسف: ١]، [الشعراء: ٢]، [القصص:٢]، فمع أن آياته معدودة، إلا أن معانيه ودلالاته لا تنقضي عجائبها، من غير إرهاق ذهني، أو كدّ عقلي، بل يكفي فهم لغته، وإحضار القلب عنده، وربما شرح يسير لمن استعجمت عليه معانيه وألفاظه؛ ليجلس القارئ والسامع معه، وكأنه يرى صورًا مجسدة، وحقائق ماثلة .

فأساليبه البلاغية واضحة قريبة، وحججه وبراهينه العقلية فطرية مجملة مبينة، وهذا من عجائب القرآن الكريم .

قال الأصفهاني رحمه الله: " ما من برهان، ولا دلالة ، وتقسيم، وتحديد، ينبئ عن كليات المعلومات العقلية، والسمعية، إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب، دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤] الآية .

والثاني: إن المائل إلى دقيق المحاجة، هو العاجز عن إقامة الحجة بالجلي من الكلام .

فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون، لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ما لم يكن ملغزًا "[1] .

ويؤكد ابن أبي العز رحمه الله هذه الحقيقة قائلًا: "وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة، من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن، من الطرق العقلية، بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق، ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٣]"[2] .

وقد ذكرنا نماذج من ذلك عند الكلام على الاستدلال العقلي في القرآن الكريم، على أنه وسيلة من وسائل عرض الهدايات، وتبين لنا كيف أنها جمعت بين الإجمال من جهة، والوضوح من جهة، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[الطور: ٣٥]، في إثبات الخالق، وكيف أن جبير بن مطعم أذعن لها عند سماعها، دون حاجة إلى تفصيلها، وقوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[ق: ١٥] في إثبات البعث، وقوله: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، في إثبات أن القرآن كلامه سبحانه، وقوله: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[الحجرات: ١٢]، في التنفير من الغيبة، وبيان قبحها، وقوله: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[العلق: ٢]، في التذكير بأصل الخلق .

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٧) .

(٢) شرح الطحاوية (١/ ٧٦) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله: " وهذا الدليل وهو: خلق الإنسان من علق، يشترك فيه جميع الناس، فإن الناس هم المستدلون، وهم أنفسهم الدليل، والبرهان، والآية، فالإنسان هو الدليل، وهو المستدل، كما قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات:٢١]، وقال: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾[فصلت: ٥٣]، وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه، ويذكره كلما تذكر في نفسه، وفيمن يراه من بني جنسه، فيستدل به على المبدأ والمعاد كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴾[مريم: ٦٦-٦٧]"[1] .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴾[المرسلات: ٢٥-٢٧] .

فهذه الآيات مع جزالتها وإجمالها، إلا أنها واضحة بينة، وجامعة لحقائق، تلفت نظر الإنسان إلى دليلي الخلق والعناية، ويفهم منها العربي في الصحراء، أن الأرض تحفظه على ظهرها حيًّا، وفي بطنها ميتًا، وأن الجبال تحفظ الأرض من التصدع، وهو فهم يتناسب مع علمه، ويؤدي الغاية المقصودة من التدبر والعظمة .

وجاء العلماء المختصون اليوم ليتحدثوا لنا عن الجاذبية التي تحفظ الإنسان على سطح الأرض، وإلا لما كان لهم أن يستقروا في مكان، ويتحدث لنا العلماء

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٦٢)، باختصار يسير .

عن الجبال، وعجائبها، واختلاف ألوانها، وما تحويه من معادن، وكيف أن رواسي كل شيء من تحته إلا الجبال، فإنها رواسي الأرض من فوقها؛ ليكون فيها من المنافع ما لا يعلمه إلا الله، وهذا الفهم العلمي يتناسب مع آيات القرآن، ولا ينافيها، ويؤدي المقصود من العظة والاعتبار، ويظهر النعمة بشكل أوضح[1].

وكذلك نجد استفهامات القرآن الكريم جزلة موجزة، وواضحة بينة، لا اختصار يخل بهداياتها، ولا تطويل وحشو يصرف عنها، بل هي كلمات تؤدي معناها بأقوم طريق، وأهدى سبيل، فإذا قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[الواقعة:٥٨-٥٩]، فهم المراد بالاستفهام، وتبادر إلى القلب الجواب بالإقرار بربوبية الله، وكذلك إذا قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[الواقعة: ٦٨-٧٠]، علم عامة الناس مغزى الاستفهام، وتوارد مؤداه على أفئدتهم؛ إقرارًا بربهم.

والإجمال مع الوضوح والبيان، ظاهر كذلك في أسلوبه القصصي؛ حيث لا تذكر إلا في آيات معدودة، وكلمات محدودة، ومع ذلك تتضمن غاية البيان والهدى[2]، فلا ذكر فيها لتفاصيل لا تفيد في الهداية، ولا محل فيها للحشو والتطويل المعهود في كتب الرواية، فهي متسامية في أهدافها، مترفعة عن كل ما

---

(١) ينظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، لمحمد ملكاوي (ص:٣٣٨-٣٣٩).

(٢) ينظر في خصائص القصص القرآني: القصة في القرآن الكريم لمريم السباعي (ص: ٣٧)، وما بعدها.

لا غرض له في غاياتها، مع دلالتها على هداياتها، بأبين صياغاتها، وأوضح عباراتها .

المطلب السادس: التوازن بين العقل والعاطفة:

هنا نجد أن أساليب القرآن الكريم ووسائله، تميزت بمخاطبتها للعقل والعاطفة معًا، وبتعانق دقيق بينهما، فاستخدمت الأسلوب الوعظي بمختلف أنواعه، كالترغيب والترهيب، والأسلوب العقلي بصوره المتنوعة؛ ليتم التوازن بين العاطفة والعقل، فلا تطغى إحداهما على الأخرى، فطغيان العقل سبب في القسوة التي جنح إليها اليهود، وطغيان العاطفة سبب في الغلو، والرهبانية، والضلال، الذي اتصف به النصارى، والقرآن وازن بينهما، فكان كاللبن السائغ بين الغلاة والجفاة، وهو من مدلولات قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهو كذلك منتظم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فمما ذكر في تفسير الوسط، أنها " تقف في الوسط، تنفض عن البشرية ما علق بها، من أوهام، وخرافات، من عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهدى، وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك "(١) .

وقد جاءت الأوامر بتحقيق الأمرين، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[النحل: ٩٠]، فالعدل مناطه العقل، والإحسان تخالطه العاطفة .

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٣٢) .

قال البقاعي رحمه الله في مفهوم العدل: " وهو الإنصاف الذي لا يقبل عمل بدونه، وأول درجاته التوحيد الذي بنيت السورة عليه، والعدل يعتبر تارة في المعنى، فيراد به هيئة في الإنسان، تطلب بها المساواة، وتارة في العقل، فيراد به التقسيط القائم على الاستواء، وتارة يقال: هو الفضل كله، من حيث إنه لا يخرج شيء من الفضائل عنه، وتارة يقال: هو أكمل الفضائل من حيث إن صاحبه يقدر على استعماله في نفسه وفي غيره "(١) .

والأمثلة على الموازنة بين العقل والعاطفة والمزاوجة بينهما كثيرة في أساليب القرآن الكريم، ووسائله، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[النمل: ٦٠]، فتأمل في هذه الآيات التي تأخذ بنواصي العقول، بحقائقها، وإشراقة ديباجتها، وتتعلق بتلابيب الأفئدة بعظاتها، وصدق عاطفتها، فبدأها بالاستفهام التقريري؛ لحملهم على الإقرار بالحقّ، على وجه الاضطرار؛ فإنّه لا يتمالك أحد ممن له أدنى تمييز، ولا يقدر على أن لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات، وأفاض على كل منها ما يليق به من منافعه، والمعنى: أمّن خلق قطري العالم الجسمانيّ، ومبدأي منافع ما بينهما . ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾: وفيه التفات إلى خطاب الكفرة لتشديد التبكيت والإلزام، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى، والإيذان بأنّ إنبات تلك الحدائق، المختلفة الأصناف والأوصاف، والألوان

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٣٦) .

والطّعوم، والرّوائح والأشكال، مع ما لها من الحسن البارع، والبهاء الرّائع، بماء واحد، ممّا لا يقدر عليه إلا هو وحده،﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾، فضلًا عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة، ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عمّا يشركونه به تعالى، في ضمن النّفي الكليّ على الطريقة البرهانية، فإنّ أحداً ممّن له تمييز في الجملة، لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأسًا، لا سيّما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عمّا سواه تعالى، وهكذا الحال في الآيات الأربع الأخرى،﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ إضراب، وانتقال من تبكيتهم، بطريق الخطاب، إلى بيان سوء حالهم، وحكايته لغيرهم، أي: بل هم قوم، عادتهم العدول عن طريق الحقّ بالكلية، والانحراف عن الاستقامة، في كلّ أمر من الأمور[(١)].

وهكذا تستمر بقية الآيات في موازنة دقيقة، وتنقلات عجيبة بين ما هو عقلي، وما هو عاطفي؛ لتنتشل هذا الإنسان، من تخبطات الضلالة والغواية، إلى طمأنينة الهداية.

وهذا كان دأب الأنبياء الذين قص الله من أخبارهم، وبين أسلوب دعوتهم لأقوامهم، فنوح عليه السلام خاطب عقولهم في عبادتهم لأصنامهم وعدم نفعها لهم، ثم خاطب عواطفهم في ترغيبهم بعبادة ربهم وما يمدهم به من أموال وبنين ويجعل لهم جنات وأنهارًا.

---

(١) ملخص من إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٩٣-٢٩٤)، وينظر: نظم الدرر (١٤/ ١٩١-١٩٩).

وإبراهيم عليه السلام خاطب عقولهم، بمناظراته لهم في عبادتهم الكواكب، والنجوم، والأصنام، وخاطب أباه كذلك بإعمال عقله، ثم خاطبه خطابًا وعظيًّا يلامس عاطفته، فحكى الله قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾[مريم: ٤٣-٤٥] .

وهكذا تتابع الآيات، وغيرها كثير، واعظة لقلب هذا الإنسان، ومستدلة له على عظمة الرحمن، في توازن معجز، واتساق مبهر، وهو الشأن في عامة أساليب دعوة القرآن الكريم ووسائلها، ودعوة الأنبياء، فراعت العقل والروح، بالاستدلال والوعظ؛ تحقيقًا للهداية، وإحاطة لهذا الإنسان بكامل الرعاية .

المطلب السابع: الدقة والعمق:

إن من أهم ما يميز أساليب القرآن الكريم ووسائله، دقةَ اختيار ألفاظه، والعمقَ في دلالة معانيه، فاختيرت كل كلمة لمغزى، وقصدت كل صيغة لمعنى، مع التناسب والتناغم بين آياته، بين الأخبار والإنشاءات، والترغيب والترهيب، والاستدلال والحوار، كل ذلك في قالب دقيق، وأسلوب عميق، فيوجز حيث ناسب الإيجاز، كما إذا تأملت قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾[الحجر: ٩٤]، الجامع لمنهاج الدعوة .

يقول الزركشي رحمه الله: " فهذه ثلاث كلمات اشتملت على جميع الرسالة "[١] .

كما أنه يطنب حيث احتاج إلى تفصيل، كما في آيات الأحكام، كالفرائض، والطلاق، ونحوها[٢] .

وهذا الوصف من الدقة والعمق، داخل في معاني قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود: ١] .

قال البيضاوي رحمه الله في بيان معانيها: " ﴿ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ نظمت نظمًا محكمًا، لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى ، أو منعت من الفساد والنسخ، فإن المراد آيات السورة، وليس فيها منسوخ، أو أحكمت بالحجج والدلائل، أو

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٢٦) .

(٢) ينظر: عادات القرآن الأسلوبية، د . راشد الثنيان (١/ ٣٠٦)، وما بعدها .

جعلت حكيمة، منقول من حكم بالضم، إذا صار حكيمًا؛ لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية "(١) .

وهذا لا شك بحر لا ساحل له، فلو جئنا إلى كل سياق، نسبر أغواره، لطال بنا المقام، وقد سبق معنا عند تناول الأساليب والوسائل ما فيها من دقة وإحكام، وعمق وإتقان، وحسبنا هنا أن نمثل لذلك بأمثلة تدلنا على المراد .

فمن أمثلة دقة الأسلوب القرآني في اختيار الألفاظ: أننا نجد عند تقرير أعظم الهدايات، وهي: الوحدانية، يذكر نفسه سبحانه باسم الرب أحيانًا، والإله أحيانًا، وقد يكون في السياق نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعام: ١١٢]، مع قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعام: ١٣٧] .

ففي الأولى عبر بالرب؛ لأنها في بيان أعدائه سبحانه والمسلطين عليه، فأشار إلى أن ذلك لإكرامه وإعزازه، لا لهوانه، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾أي: بما له إليك من حسن التربية، وغزير الإحسان، مع ما له من تمام العلم، وشمول القدرة .

وفي الثانية: الكلام في خصوص الشركاء؛ لذلك علق الأمر باسم الذات، الدال على الكمال، المقتضي للعظمة والجبروت، وسائر الأسماء الحسنى على وجه

---

(١) أنوار التنزيل (٣/ ١٢٧) .

الجلال، فقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ ﴾ أي: بما له من العظمة، والإحاطة بجميع أوصاف الكمال، المقتضية للعلو عن الأنداد، والتنزه عن الشركاء والأولاد، واستحقاق الألوهية[1] .

وكذلك حينما ينهى عن التلبس بما يضاد الهداية تارة يقول: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾، وتارة يقول: ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾:

فالأولى: كما في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٧] .

والثانية: كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢٩]، والسر في ذلك - والله أعلم -: أنّ الآية الأولى تتحدث عن محظورات الصوم، من الأكل، والشرب، والجماع، ثم المحظور في الاعتكاف، وهو الجماع، فناسب التعبير بعدم الاقتراب منها، في حين أنّه في الآية الثانية ذكر

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٨٣)، بتصرف .

الأحكام الشرعية، من الطلاق، والرجعة، والخلع؛ فلذلك حذر من الاعتداء، ومجاوزة حكم الله فيها، فتأمل في هذا التناسق القرآني، والتعانق الإبداعي.

ومن أمثلة الدقة والعمق في الأساليب البلاغية القرآنية، استخدام لفظ المرأة أحيانًا، ولفظ الزوج أحيانًا، فاستخدم لفظ المرأة في قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾[هود: ٧١]، وقوله: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾[مريم: ٥]، وقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾[التحريم: ١٠]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾[التحريم: ١١]، وغيرها.

واستخدم لفظ الزوج في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾[الأنبياء: ٩٠]، وقوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وغيرها، فما السر البلاغي في التنويع بينها، وأي هداية ترشد إليها ؟

يقال - والله أعلم-: إن كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف: حكمة وآية، أو تشريعًا وحكمًا؛ لذلك قال في آية الزوجية: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[الروم:٢١]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان: ٧٤].

فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة، بخيانة أو تباين في العقيدة، فامرأة لا زوج، كما في قوله: ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[يوسف: ٣٠]، وقوله: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ

نُوحٍ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[التحريم:١٠]، ومعها في امرأة لوط آيات: [العنكبوت:٣٣]، [النمل: ٥٧]، [الحجر: ٦٠]، [الذاريات: ٨١]، [الأعراف:٨٣] .

وقوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ﴾[التحريم: ١١]، وقد تعطلت آية الزوجية بينهما، بإيمانها وكفره، وحكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات، هي اتصال الحياة بالتوالد .

فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم أو ترمل، فامرأة لا زوج، كالآيات في امرأة إبراهيم: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾[هود: ٧١]، وامرأة عمران: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ ﴾[آل عمران: ٣٥] .

ويضرع زكريا إلى الله سبحانه، كما حكى الله تعالى قوله: ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴾[مريم: ٥]، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ ﴾[آل عمران: ٤٠]، ثم لما استجاب له ربه، وحققت الزوجية حكمتها، كانت الآية: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ ﴾[الأنبياء: ٩٠][1] .

وتأمل في عمق أسلوب الترهيب والوعيد، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾[التكوير: ٨-٩]، فمعلوم أنه لا ذنب لها، وهي قد لحدت

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (ص:٢٣٠-٢٣١)، وفي نظر الباحث: يرى أن مثل هذه الأمور تحتاج لمزيد تتبع واستقراء لجميع الآيات الواردة فيها، حتى نثبت ونجزم بهذه الحقيقة القرآنية .

في مهدها، لكن هذا التعبير الفائق، والأسلوب العاطفي الرائق، يحمل أولئك القساة على مراجعة فطرتهم، والبحث عن بقايا الرحمة في جنبات سويداء قلوبهم، التي ران عليها شركهم وفواحشهم، كما أنه يتضمن احتقارهم، وعدم الالتفات إليهم؛ تشنيعًا لفعلهم .

قال الشنقيطي رحمه الله: " وقوله تعالى: ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾، إشعار بأنه لا ذنب لها فتقتل بسببه، بل الجرم على قاتلها، ولكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها؛ تبكيتا لوائدها "(١) .

فالأساليب والوسائل القرآنية، متعانقة متماسكة، متجانسة متآلفة، متآخية متجاوبة، منسجمة متلاقية، يعجز الخلق عن سبر أغوارها، واستخراج درر أسرارها، كما قال علي رضي الله عنه: " كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه؛ هدي إلى صراط مستقيم "(٢) .

---

(١) أضواء البيان (٨/ ٤٣٨) .

(٢) أخرجه الترمذي مرفوعًا، في ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، برقم: (٢٩٠٦)، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول انتهى، وقال ابن كثير في تعليقه على هذا الخبر: " وقد وهم بعضهم في رفعه، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ"، ينظر: فضائل القرآن لابن كثير: (ص:١٥) .

ولعمق الأسلوب القرآني أمر الله تعالى بتدبره كما سبق، فإنّه في كل مرة يتدبره فيه المؤمن، يستخرج من كنوزه وعجائبه، ولذلك مهما فسره المفسرون، وجمع فوائده المؤولون: يبقى بحر علومه لا ينفد .

وأختم بهذا النقل القيم ، عن الإمام ابن القيم رحمه الله، حيث يقول: " فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم، فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه، والإشراف على عجائبه، وكنوزه؟! وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البيان غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالا تحتذي عليها، وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد .

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾[الذاريات: ٢٤-٣٠] .

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية، وتطلعت إلى معناها، وتدبرتها، فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف، يأكلون، ويشربون، وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة: أن الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك .

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم؟ وكيف جمعت الضيافة وحقوقها؟ وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة .

وكيف تضمنت علما عظيما من أعلام النبوة؟

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة؟

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد، بألطف إشارة، وأوضحها، ثم أفصحت وقوعه؟

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمنت ذكر الإسلام، والإيمان، والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده، وصدق رسله، وعلى اليوم الآخر، وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة، ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات "[1].

---

(١) الرسالة التبوكية (٦٣، ٦٤).